الدبلوماسية الإسلامية

والعلاقات السلمية مع الصليبيين

دراسات تحليلية وثائقية في التاريخ الدبلوماسي

دكتور عمر كمال توفيق

أستاذ بقسم التاريخ / جامعة الكويت

أستاذ ورئيس قسم التاريخ بجامعة الإسكندرية سابقاً

١٩٨٦

الناشر

مؤسسة شباب الجامعة

للطباعة والنشر

ت ٤٩٣٩٤٧٢ الاسكندرية

99
327.356
T234dA

الدبلوماسية الإسلامية

والعلاقات السلمية مع الصليبيين

دراسات تحليلية وثائقية في التاريخ الدبلوماسي

(٤٩١ – ٦٩٠هـ / ١٠٩٧ – ١٢٩١م)

دكتور عمر كمال توفيق
أستاذ بقسم التاريخ - جامعة الكويت
أستاذ ورئيس قسم التاريخ بجامعة الإسكندرية سابقا

١٩٨٦

الناشر
مؤسسة شباب الجامعة
للطباعة والنشر والتوزيع
ت ٤٩٣٩٤٧٢ الإسكندرية

AUB LIBRARY

المحتـــــــــوى

Li45-18999

الموضوع الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع — الصفحة

الموضوع — الصفحة

بسم الله الرحمن الرحيم

تقــــــديم

مع التطور الكبير الذى حققه التقدم التكنولوجى الحديث فى وسائل الاتصالات الدولية فى النصف الثانى من القرن العشرين ، زادت أهميـة الدبلوماسية فى العلاقات بين الامم • وكان ذلك بما دفع عددا من الباحثين لدراستها والكتابة عنها ، ومحاولة التعرف على نشأتها ومراحل تطورها وبيان مالها من اثار ونتائج • ومع هذا الاهتمام العام بالدبلوماسية فى الاونة الاخيرة ، رأينا أن نخصص هذا الكتاب الذى نقدمه للقارىء الكريم لتناول الدبلوماســية الاسلامية ومعالجتها فى مرحلة هامة من المراحـل التاريخية التى مرت بها أمتنا الاسلامية فى العصور الوسطى • ويرجـع اختيارنا لهذا الموضوع للاعتبارات التى نعرضها فيما يلى :

أولا : عند التأريخ للدبلوماسية والبحث عن أصولها والمراحل الاولى لتطورها ، فان غالبية الباحثين فى العلاقات الدولية لم يبحثوا عنها الا فى التراث اليونانى والرومانى القديم ، وفى ما استحدثته الدول الاوروبية فى العصر الحديث ، الامر الذى ترك انطباعا وكأنه لم تنشأ خارج العالم الاوروبى ، قديمه وحديثه ، أصول وقواعد للدبلوماسية وبدا للبعض وكأن العرب والمسلمين لم يسهموا فيها بقدر ذى اهمية ، بل ادعى بعضهم أن المسلمين فى علاقاتهم الخارجية لم يعرفوا الا السيف لمن لم يؤمن بالكتاب ، وألصقوا بالاسلام تهما ومزاعم باطلة • وهم عندما يذكرونه يقرنونه بالعنف والنزعة لسفك الدماء ، وهذه كلها مزاعم لا تقوى على الصمود امام الدراسات الموضوعية والبحث العلمى النزية •

ثانيا : اذا كان بعض الباحثين بدأوا فى السنوات الاخيرة يتناولون

جوانب من دبلوماسية المسلمين فان هذا الحقل من الدراسات لا يزال فى حاجة لكثير من العناية والاهتمام • وقد وقع اختيارنا على دراسة الدبلوماسية الاسلامية فى مرحلة دقيقة فى تاريخ الامة الاسلامية العربية وهى المرحلة التى تعرضت فيها لعدوان الصليبيين Crusaders على حد تعريف المؤرخين الغربيين بهم ، او « الفرنجة » على حد تعريف المصادر العربية • وقد حدث هذا العدوان عندما انتقل هؤلاء الصليبيون من مختلف بلاد الغرب الاوروبى الى منطقة الشرق الادنى ، واغتصبوا اراضيها وأنشأوا اماراتهم التى استمرت نحو قرنين من الزمان ، امتدا منذ بدء قيامها حتى سقوط آخر مراكزها فى ايدى المسلمين ، وكان ذلك على وجه التحديد من سنة ٤٩١ الى سنة ٦٩٠ هـ (١٠٩٧ — ١٢٩١م) •

ثالثا :وكان مما دفعنا لتناول الموضوع ان غالبية المؤرخين القدامى والحديثين من المسلمين والصليبيين كرسوا جهودهم وعنايتهم لتناول مظاهر العداء والحروب بين الجانبين ، وأفاضوا فى ذكر التفاصيل والمعلومات التى تتعلق بها ، وذلك على النحو الذى ورد فى العديد من المصادر الاصلية وان الاتجاه للتركيز على العلاقات العدائية والمعارك العسكرية ، أدى بشكل غير مباشر الى تعتيم الدور الذى قام به المسلمون فى المجال الدبلوماسى مع الصليبيين ، وطمس الكثير من معالمه ، حتى بدا للكثيرين وكأنه كان من العسير ان تقوم علاقات دبلوماسية فعالة بين الجانبين لتسوية ما ينشب بينهما من خلافات وصراعات ، وكذلك لوضع الاسس والتنظيمات للتعامل السلمى بينهما • وفى الواقع ان الكثير من معالم العلاقات السلمية بين الجانبين لا تزال فى حاجة لمزيد من الايضاح •

وهكذا ونظرا لعدم وضوح صورة العلاقات الدبلوماسية بين المسلمين والصليبيين وللحاجة للتعرف على العلاقات السلمية بين الجانبين، وافتقار

المكتبات التاريخية ، سواء العربية او الاجنبية ، لدراسة خاصة ومتكاملة الابعاد فى هذا الموضوع ، رأينا أن نضطلع بمهمة اعداد هذا الكتاب ، لكى نبين فيه كيف أن المسلمين مع اهتمامهم بالجهاد فى سبيل دينهم ، وما بذلوه من جهود لاقامة جبهة اسلامية متحدة ، فانهم لجأوا كذلك الى الدبلوماسية ومارسوها وكانت لهم فيها نظم وقواعد دقيقة ودراية واسعة ونشاط كانت له آثاره البعيدة المدى فى سير الاحداث ، سواء اكان ذلك بايجاد حلول للمشاكل والصراع وايقاف القتال ، أو وضع تنظيمات وقواعد للعلاقات السلمية مع الصليبيين وذلك بمقتضى المعلومات التى عقدوها معهم وما تضمنته من مواد تتناول العديد من جوانب هذه العلاقات •

ونود ان نوضح ، ونحن نقدم لدراستنا ، اننا لما نذكر مصطلح « الصليبيين » او « الفرنجة » فاننا نقصد بذلك الاوروبيين الذى استوطنوا فى الامارات الصليبية فى الشام ، كما نقصد من جاء منهم مع الحملات الفرنجية التى كانت تفد الى الشرق من وقت لآخر • وفضلا عن هذا وذاك ، فان هذا المصطلح يشمل القوى او الدول الاوروبية الغربية التى كانت لها اهتماماتها بالقضية الصليبية وبمنطقة الشرق الادنى الاسلامى •

ومما يحسن بنا ان نشير اليه كذلك ، ان الباحث لما يتصدى لتناول الدبلوماسية والتاريخ الدبلوماسى فان المنهج الذى يتعين عليه ان يتبعه فى هذا الحقل يختلف عن المنهج المتبع فى معالجة التاريخ السياسى العام • فالتاريخ الدبلوماسى يعنى بالاتصالات السلمية الرسمية بين الدول ، والعوامل التى تدفع كلا منها لاقامة تلك الاتصالات ، كما يتناول نظام التمثيل الدبلوماسى وما يخصه من قواعد • ويتطرق التاريخ الدبلوماسى

لكيفية ادارة الشئون الدولية عن طريق المراسلات الدبلوماسية والمفاوضات التى يقوم بها السفراء ، والاعداد لعقد الاتفاقيات والمعاهدات ، ذلك من اجل مصالح منشودة • وعلى الباحث فى هذا الحقل ان يراعى كيف ان الدبلوماسية الى جانب ما لها من طابع وخصائص دولية ، فانها ترتبط فى نظمها وقواعدها واحكامها بالشرائع والقوانين والنظم والاوضاع الداخلية فى كل دولة ، كما ترتبط بمشاكلها الخارجية ، مما يحتم على الباحث الاعتناء بتلك العناصر جميعها ، ليبين مدى تأثيرها فى سير العلاقات الدبلوماسية •

* * *

وبالنسبة لمحتوى دراستنا ، فاننا بدأنا بتمهيد عرفنا فيه بمصطلح الدبلوماسية وتطوره عبر العصور مع الاشارة الى أهم ما ورد فى ذلك من الاراء ، كما عرضنا الاسس التى يقوم عليها استعمال هذا المصطلح بالنسبة للعلاقات الاسلامية مع الصليبيين • ثم قدمنا فكرة عن موقف الاسلام والمسلمين بالنسبة للعلاقات الدولية ، وتتبعنا ذلك حتى وصول الصليبيين الى الشام ، حيث كان على المسلمين ان يحددوا السياسة التى يتبعونها لمواجهتهم •

وخصصنا الفصل الاول من الكتاب لتقديم عرض تحليلى للمصادر التى يتعين على الباحث ان يرجع اليها فى دراسة التاريخ الدبلوماسى للمسلمين ، وهذه المصادر لا تقتصر على التاريخ الحولى او التاريخ المحلى لمدينة من المدن ، وغير ذلك من المصادر التى يرجع اليها الباحثون فى التاريخ السياسى العام • وفضلا عن هذه المصادر على الباحث أن ينقب عن الوثائق الدبلوماسية ويوليها عناية خاصة •كما يتطلب الامر الرجوع الى الموسوعات التى وضعت عن فن الكتابة والعمل فى ديوان الانشاء ، نظرا لما كان لهذا الديوان من ارتباط بالشئون الدبلوماسية والسياسية الخارجية • هذا ولابد وان يعنى الباحث بالمراجع التى تتناول الشريعة الاسلامية وذلك

فيما يتعلق بموادها وقواعدها التى تتعلق بالدبلوماسية والعلاقات السلمية •

وانتقلنا بعد الانتهاء من الفصل الاول لدراسة الاسباب والعوامل التى أدت الى قيام العلاقات الدبلوماسية المسلمين والفرنجة ، وهى أسباب تنبع من صميم الاوضاع والاحوال السياسية الداخلية والخارجية لكل من الطرفين • وقد خصصنا لذلك فصلين (الفصل الثانى والفصل الثالث) كما تناولنا العوامل الاقتصادية التى اسهمت فى قيام تلك العلاقات ، وهى مرتبطة بالمصالح الاقتصادية المتبادلة ، وخصصنا لذلك الفصل الرابع •

وأتبعنا ذلك بفصول عالجت النظم الدبلوماسية الاسلامية ومنها نظام التمثيل الدبلوماسى ونظام المراسلات والمفاوضات والمعاهدات وجعلنا فصلا خاصا لكل منها وامتدت هذه الموضوعات من الفصل الخامس الى الفصل الثامن •

اما الفصل التاسع وعنوانه « مواد المعاهدات والعلاقات السلمية » فقد قمنا فيه بابراز أهم المواد التى وردت فى المعاهدات والتى هدفت لوضع حلول للمشاكل بين الطرفين ، وايجاد ما يلزم من التنظيمات للتعامل السلمى بينهما • ومن الامور التى تناولتها مواد المعاهدات كان رسم الحدود مع التدقيق فى ذلك ، والتعهد بعدم التعرض لممتلكات الطرفين ، والتحفظ على اوضاع المبانى العسكرية الواقعة على الحدود ، ومشاكل الاسرى والرهائن، وعزل الامارات الصليبية فى الشام عن القوى الأوروبية الغربية ، ومواد خاصة بالامور الدينية والترتيب لها • وكان من اطرف مواد المعاهدات ماجاء منها بخصوص « بلاد المناصفات » وادارتها المشتركة ، وما يفرض بها من الضرائب والرسوم ، وطرق المحاكمات وتنفيذ الاحكام ومنها المواد الخاصة بالمعاملات التجارية ، وأخرى متعلقة بالعرف الدولى البحرى الذى حرصنا على بيان مدى اسهام المسلمين فى تطوره •

هذا وقد الحقنا بكتابنا عددا من الوثائق الدبلوماسية اخترناها من بين المعاهدات التى عقدها المسلمون مع أطراف مختلفة من المسئولين الفرنج ، سواء من كان منهم فى الشام أو فى الغرب الاوروبى •

هذا وقد تطلبت منا طبيعة الدراسة التى قمنا بها ان نزود كتابنا بما يلزم من امثلة من الواقع والمواقف الدبلوماسية لتكون بمثابة نماذج وتطبيقات للنظم والمبادىء والاراء التى نعرضها • كما اقتضى الامر أ، نستشهد بعدد من النصوص الاصلية والوثائق الرسمية ، وذلك حتى يكون المنظور العام للموضوع قائما على أسس ودعائم موثقة •

ونرجو الله أن نكون وفقنا فى عرض الموضوع وتوضيح أبعاده وعناصره الرئيسية وفى ايضاح ذلك الدور الهام الذى قام به المسلمون فى المجال الدبلوماسى ولعل هذه الدراسة التى نقدمها هنا ، تمهد السبيل لمزيد من الدراسات فى هذا الحقل • فان الفترة التى تناولناها والتى امتدت نحو قرنين من الزمان استمر فيها وحود الفرنجة فى الشام ، كانت حافلة بالعديد من الاحداث والتطورات التى كان للدبلوماسية فيها شأنها • وهى موضوعات لا تزال فى حاجة لمن يتولاها بالبحث والدراسة • والله من وراء القصد ، انه نعم المولى والنصير •

تمهيد

التعريف بمصطلح الدبلوماسية

نال مصطلح الدبلوماسية اهتمام الباحثين فى العلاقات الدولية والقانون الدولى العام ، وحرص هؤلاء على بيان أصل المصطلح ومدلوله عبر العصور• وكان من البواعث على هذا الاهتمام بالدبلوماسية مالها من أهمية فى تاريخ الانسانية والعلاقات الدولية •

والدبلوماسية مصطلح قديم يرجع الى أصول كلاسيكية ، واستعمله اليونان القدامى ثم انتقل منهم الى الرومان ، ومن هؤلاء الى اللغات الاوربية الحديثة كالفرنسية والانجليزية ، كما انتقل الى العربية وغيرها من اللغات •

والدبلوماسية فى أصلها اليونانى القديم اشتقت من فعل « دبلوه » Diploo ومعناه يطوى أو يثنى ، ومنه جاء اسم تلك الوثيقة أو المكاتبة الرسمية التى تطوى أو تثنى والتى عرفت باسم دبلوما Diploma والتى كان يبعث بها الحكام وأصحاب السلطان بعضهم الى بعض فى علاقاتهم الرسمية ، وكانت تخول لحاملها امتيازات ومعاملة خاصة أثناء سفره لاداء المهمة الملقاة على عاتقه • (١)

وانتقل المصطلح الى اللاتينية واستعمله الرومان بشكل مقارب لمادرج عليه اليونان • وأصبح الرومان يطلقون كلمة دبلوما على الوثيقة المطوية

---

(١) انظر بشأن هذا المصطلح
greek â Englich Lexicon by liddel and Scott. New Edition by Jones and Mckenzie p. 436.

والموثقة بالختم والتى كانت الدولة تزود بها من تفوضه فى مهمة رسمية وتكفل له رعاية خاصة [2] . ومن الشواهد على ذلك أن السياسى والمشرع الرومانى المعروف ، شيشرون ذكر لفظ دبلوما فى كتاباته بمعنى التوصية التى تعطى للاشخاص الموفدين فى مهام رسمية لجهات أجنبية ، وكانت تسمح لهم بالمرور والامان فى تنقلاتهم ، وتجعلهم موضع عناية خاصة فى الدولة التى يوفدون اليها وهناك على ما يبدو امتداد لهذا العرف القديم نجده فى جواز السفر الخاص الذى يحمله الدبلوماسيون فى العصر الحديث وما يخوله لحامليه من امتيازات وحصانة .

وأخذ مدلول كلمة دبلوما ومشتقاتها يتطور فى الامبراطورية الرومانية، وأصبح يشمل الى جانب وثيقة السفر المثنية المذكورة ، وثائق رسمية أخرى مثل الاتفاقيات والمعاهدات التى ما لبثت أن امتلأت بها دار المحفوظات « الارشيف » الخاصة مما ادى الى ضرورة استخدام الكتاب المدربين ليقدموا على حفظ هذه الوثائق وتصنيفها وتبويبها ودراستها كلما اقتضى الامر . ظهر مصطلح « الشئون الدبلوماسية » أو العمل الدبلوماسى الذى ظل يطلق على هذه الشئون حتى أوائل التاريخ الحديث بمعنى العمل الذى يختص بالمحفوظات والوثائق « اندبلومات » [3] .

وفى العصر الحديث تصدى عدد ممن كتبوا عن الدبلوماسية لمحاولة وضع تعريف لها فى ضوء المهام التى تدخل فى نطاقها وذلك بعد أن أصبحت الدبلوماسية تشمل معان وأمور أكثر تنوعا واتساعا مما كانت تشمله فيما سبق ، وجاءوا فى ذلك بعبارات متعددة وان كانت فى غالبتها لا تختلف فى

---

(٢) انظر كلمة Diploma فى :
Diploma Alatin Dictionary, by Lewis and short; The Oxford Eng lish Dictionary.

(٣) نيكولسون : الدبلوماسية ص ٥٤ .

مدلولها ومؤداها . وفى بيان ما أصبح عليه المدلول الحديث ، اعتمد عدد كبير من كبار الدبلوماسيين على مآورد فى معجم أو كسفورد من أن الدبلوماسية هى ادارة العلاقات الدولية عن طريق المفاوضات ، وأنها الاسلوب الذى تسوى به هذه العلاقات عن طريق السفراء والمبعوثين ، وأن الدبلوماسية هى عمل الدبلوماسى وفنه ، وهى كذلك ما يمارسه من مهارة وحذق فى ادارة العلاقات الدولية واجراء المفاوضات [4] . هذا وقد قال آخرون من الدبلوماسيين عن الدبلوماسية أنها تتضمن الذكاء والكياسة لادارة العلاقات الرسمية بين حكام الدول والامارات المستقلة وأنها كذلك معالجة المصالح المتداولة بين الدول بالوسائل السلمية . كما استعمل البعض الدبلوماسية استعمالا عاما تعوزه الدقة واعتبروها مرادفة للفظ السياسة الخارجية أو السياسة الدولية فى فترة محدودة من الزمان .

ومهما قيل فى التعريف بالدبلوماسية ، فالملاحظ أنها علاقات سلمية رسمية بين الدول تتضمن عناصر ومقومات ومهام أساسية ، منها التمثيل الدبلوماسى على هيئة ارسال السفراء والمبعوثين او الرسل وما يتمتعون به من الامتيازات والحصانة لدى الدول الاخرى «والبروتوكول» الخاص باستقبالهم ، وكذلك ما يقومون به من أعمال ومهام . كما تشمل الدبلوماسية المراسلات والمفاوضات وعقد الاتفاقيات والمعاهدات . ومن وسائل الدبلوماسية الضغط والتهديد وتكوين الاحلاف والمحاور السياسية ، والاستعانة بوسائل التخابر السرية . وبطبيعة الحال لابد على الباحث التعرف على العوامل التى تؤدى الى قيام العلاقات الدبلوماسية والتى

---

(٤) انظر كلمة Diplomacy فى :
The Oxford English Dictionary

تؤثر فى مسارها وفى ما تحققه من نتائج • وفى ضوء هذه المقـومات والمفاهيم يكون البحث فى تاريخ الدبلوماسية والعلاقات الدبلوماسية •

وعند التاريخ للدبلوماسية بمعناها الدقيق ، نستطيع القول بأنهـا نشأت منذ أقدم العصور كوسيلة للاتصال والتفاهم بين الجماعات البشرية المتجاورة • فمنذ أن قامت المجتمعات الاولى وتداخلت مصالحها ، شعرت بحاجتها الى قيام علاقات حسن الجوار مع بعضها ولو على الاقل بشكل مؤقت • وكان من الطبيعى أن تؤدى هذه الحاجة الى نمط من الاســاليب الدبلوماسية كسلوك اجتماعى تفرضه الحاجة الى التفاهم وتبادل المنافع وتحقيق السلام • وظهرت عبر العصور علاقات دبلوماسية ، اختلفت فى أشكالها ، الا أنها تشابهت من حيث أغراضها ووسائلها والنتائج التى ترتبت عليها ، حتى أنه يمكننا القول بأن من بين التقاليد الدبلوماسية الحديثـة ما يرجع الى تلك التقـاليد التى عرفتهـا الانسانية فى عصورها الخالية •

وقد تدرجت العلاقات الدبلوماسية منذ التاريخ القديم فعرفتهـا دول الشرق الادنى القديم ابان ازدهار حضاراتها القديمة ، كما خبرتهـا دول الاغريق ودولة الرومان • أما العصور الوسطى ، فمع مطلعها انقسمت الامبراطورية الرومانية الى قسمين أساسيين ، قسم غربى وآخر شرقى وكان القسم الغربى هو الذى اجتاحته القبائل الجرمانية وأنشأت به عددا من الممالك والامارات المستقلة ، كما برزت بهذا القسم الكنيسة الكاثوليكية وعلى رأسها البابوية التى أصبحت الهيئة ذات السيادة الروحية العليـا على الغرب الاوربى • كما تميز هذا القسم بتغلب النظام الاقطاعى عليه •

أما القسم الشرقى من الامبراطورية الرومانية ، فهو الذى عــرف باسم الدولة البيزنطية أو بلاد الروم على حد تعريف العرب ، وقد تغلبت عليه الثقافة الهلينستية والديانة المسيحية على المذهب الارثوذكسى • وكان

لهذه الدولة نشاطها الواضح فى استخدام الدبلوماسية كوسيلة من الوسائل الاساسية التى اعتمدت عليها لمواجهة المتطلبات والمسئوليات الكبرى التى كان عليها أن تواجهها فى علاقاتها الخارجية •

الاســلام والعلاقات الدوليـــة

وكان فى العصور الوسطى كذلك ، وبالذات فى القرن السابع للميلاد أن بزغت شمس الاسلام ليبدأ ظهور دولته على المسرح السياسى العالمى وتقوم تلك الدولة منذ باكورة تاريخها بدور أساسى له شأنه فى العـلاقات الدولية • والمشاهد أن المسلمين فى علاقاتهم مع الدول غير الاسلاميـة ، اعتمدوا على وسيلتين أساسيتين لا يمكن اغفال أى منهما وهما الجهـاد والعلاقات السلمية أو الدبلوماسية •

ومنذ فترة مبكرة اختلف الفقهاء المسلمون فى أصل عـلاقة الدولة الاسلامية بالدول غير الاسلامية ، وانقسموا فى تحديد ذلك الى فريقين : فريق يرى أن الاصل قائم على الجهاد ، وأمعن أعضاء هذا الفريق فى التمسك برأيهم ، مما جعل البعض يقولون أن المسلمين فى علاقاتهم الخارجيـــة مع غير المسلمين لم يعرفوا الا السيف لمن لم يؤمن بالكتاب المنزل • وأما الفريق الاخر من الفقهاء فقد رأى أن الجهاد لا يكون الا دفاعا وأنه مشروط بقصد حماية الدعوة الاسلامية وأنصارها ، وأن السلم هو الاصل فى علاقة المسلمين بغير المسلمين • فالله تعالى حث الناس على نشر الاســـلام ، ولكن بالحسنى والكلمة الطيبة • فقد جاء فى القرآن الكريم ما يســمح للانسان باختيار عقيدته « لا اكراه فى الدين » [٥] كما جاء : « أدع الى سبيل

---

(٥) سورة البقرة من الآية ٢٥٦ •

ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن » [٦] وجاء كذلك:
« ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتى هى أحسن » [٧] .

وهناك ما يشير الى أن القتال مكروه والحرب مكروهة وان كان واقع الحياة يسوغ الدفاع المشروع عن النفس : « كتب عليكم القتال وهو كره لكم ، وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم ... » [٨] ولا يقر الاسلام العدوان وقد جاء فى الكتاب الكريم : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين . » [٩] ويفضل الاسلام الدخول فى السلم اذا ما جنح اليه المعتدون فقد جاء فى القرآن الكريم : « وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله ... » [١٠] وهناك كذلك : « يأيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة . » [١١] .

ومهما يكن من أمر الخلاف فى الرأى حول الاصل فى علاقة الدولة الاسلامية بالدول غير الاسلامية ، هذا الخلاف . الذى لا يزال قائما حتى يومنا هذا بين كبار المفكرين المسلمين ، فمن المؤكد أن المسلمين منذ فترة مبكرة من تاريخهم عرفوا العلاقات الدبلوماسية كوسيلة أساسية فى سياستهم الخارجية ، ومارسوها فى علاقاتهم مع الدول غير الاسلامية . فقد وجدوا فى القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة أساسا مكنهم من الدخول فى هذه العلاقات وعقد ما يلزم من الهدن أو المعاهدات وفقا لما

---

(٦) سورة النحل من الآية ١٢٥ .
(٧) سورة العنكبوت من الآية ٤٦ .
(٨) سورة البقرة من الآية ٢١٦ .
(٩) سورة البقرة الآية ١٩٠ .
(١٠) سورة الانفال من الآية ٦١ .
(١١) سورة البقرة من الآية ٢٠٨ .

تسمح به الشريعة الاسلامية . لقد ذكر المؤرخون كما أجمع الفقهاء على أن الرسول (صلعم) وادع مشركى مكة بمقتضى معاهدة السلام التى عرفت باسم هدنة الحديبية [١٢] . واذا كان الفقهاء اختلفوا فى مدة ما يعقد من المهادنة أو المعاهدة مع غير المسلمين وفى جواز اطلاقها زمنيا أو تأبيدها، فانهم قالوا بجواز عقدها .

واستمر المسئولون المسلمون فى ممارسة الدبلوماسية الى جانب الجهاد سواء أكان ذلك فى عهد الخلفاء الراشدين او الامويين أو العباسيين أو ابان حكم غيرهم من المسئولين من المسلمين ، مع ملاحظة أن هذه الممارسات الدبلوماسية ازدادت وتطورت مع مرور الزمن ووفقا لما اقتضته الظروف .

وفى علاقاتهم بالدول الاسلامية ، ذهب المسلمون الى تقسيم العالم الى قسمين أساسيين : القسم الاول وعرفوه باسم دار الاسلام وهى البلاد التى تظهر فيها شعائر الاسلام وتطبق فيها أحكامه ، والقسم الاخر وهو دار الحرب وهى البلاد التى لم يغلب الاسلام على أهلها ولم تقم فيها أحكامه . ومع تطور العلاقات الخارجية للدولة الاسلامية واقتضاء دخولها فى علاقات سلمية مع جيرانها ، ظهر من الفقهاء من وضع الظروف التى مرت بها الدولة الاسلامية فى اعتبارهم وكونوا رأيهم القائم على تقسيم العالم الى ثلاثة أقسام عرفوها باسم دار الاسلام ودار الحرب ودار الصلح

---

(١٢) بشأن هدنة الحديبية ، أنظر ابن هشام : سيرة النبى ح ٣ ص ٧٨١ — ص ٨٧٣ — ت محمد محيى الدين عبد المجيد القاهرة ١٣٨٣ هـ / ١٩٦٣ والهدنة عقدت فى سنة ٦ هـ وكانت لعشر سنين ، ولكنها لم تدم الا سنتين بسبب نقض أهل مكة لها .

أو دار العهـد (١٣) • وبناء على هذا التقسيم الثلاثى أصبح من المألوف قيام علاقات دبلوماسية وعهدية بين الدول الاسلامية وغيرها وذلك على أساس من التعايش السلمى بين دار الاسلام ودار الحرب •

وصـــول الصليبيين الى الشام وموقف المســلمين منهم

وفى أخريات القرن الحادى عشر للميلاد ، بدأت القوات الصليبيـــة زحفها من غرب اوربا متجهة نحو الشرق الاسلامى وهى مدفوعة برغبـــة ملحة للاستيلاء على بيت المقدس واقامة دولة لاتينية كاثوليكية فى فلسطين وغيرها من البلاد الشامية • واستغل الصليبيون ما ساد دول المسلمين واماراتهم من تفكك ، ونجحوا فى تحقيق هدفهم ، وأقامـــوا مجموعـــة من الامارات اللاتينية التى تكونت منها تلك الدولة الصليبية التى عرفت باسم مملكة بيت المقدس اللاتينية ، والتى استمر بقاؤها زهاء قرنين من الزمان امتدادا من أواخر القرن الحادى عشر الى أخريات القرن الثالث عشـر للميـــــلاد •

وابان اقامة الصليبيين فى الشرق ، ومع توافد حملات صليبية جديدة لتدعيم مركزهم ضد المسلمين ، كان من الطبيعى أن يصبح القتال والتصارع ظاهرة أساسية فى العلاقات بين الجانبين ، وذلك لما كان هناك من اختلافات دينية وعنصرية ، وتباين فى المقومات والخصائص الحضارية ، هذا فضلا عن التعارض فى المصالح • فان الوجود الصليبى فى الشام كان بالنسبة للمسلمين عدوانا على دار الاسلام واغتصابا لها • كما أن الصليبيين الجدد الذين توافدوا تباعا من غرب أوربا الى الشرق الاسلامى كانوا أقل تفهما وأكثر تعصبا من أولئك الذين استقروا فى الشرق وتأقلموا مع ظروفهم

(١٣) كتاب الام للامام أبى عبد الله محمد بن ادرس الشافعى ط. أولى القاهرة ١٣٢٢هـ ج ٤ ص ١٠٣ ـ ص ١٠٤ ، خدورى ص ١٩٦ .

الجديدة • ولذا كان هؤلاء الصليبيون الجدد بمثابة عامل اضافى زاد فى حدة الخلاف والصراع مع المسلمين • ولا شك أن دعاة الجهاد من المسلمين ودعاة الحرب الصليبية من الفرنجة كانوا من العوامل التى ألهبت المشاعر لما حثوا عليه من مواصلة القتال والجهاد •

وكان من الطبيعى أن يتأثر كثير من المؤرخين القدامى من المســلمين والصليبيين بما ساد من مظاهر الصراع والعداء فى العلاقات بين الجانبين، فيركزوا على هذه المظاهر فيما وضعوه من كتب التاريـــخ الحولى وغيرها من المؤلفات عن ملوكهم وحكامهم وأحداث بلادهم • وأوشك هذا الاتجـــاه الغالب لدى أمثال هؤلاء المؤرخين أن يحجب دور الدبلوماسية الاســلامية مع الصليبيين ويفرض عليها تعتيما • وتكاد الحـــوليات المعاصرة ألا تذكر الا أخبارا مقتضبة عن بعض ما يتصل بالنشاط الدبلوماسى ، وذلك فى ثنايا ما أوردته من أخبار عن الحروب والملوك والامراء • وقد جاءت هذه الاخبار الموجزة مبعثرة ومتناثرة فى بطون كتب الحوليات • وعلى سبيل المثال فان ما أوردته هذه المصادر من المعلومات عن المعاهدات أو المهادنات التى عقدت بين الجانبين ، كانت فى غالبية الاحيان على شكل اشارات سريعة ، ولا تقدم صورة واضحة متكاملة للجهود التى بذلت حتى أصبح من الممكن التوصل الى عقد هذه المعاهدات ، ولا توضح الظروف التى أحاطت بذلك ويندر أن تذكر هذه الحوليات نصوص المعاهدات وماتضمنته من مواد بشكل متكامل دقيـــق •

ونحن عندما نجد أمثال هذه الاشارات السريعة لمعاهدة من المعاهدات التى عقدت بين المسلمين والصليبيين ، فعلينا أن ندرك أن كل واحدة منها انما كانت مرحلة ختامية أو تتويجا لجهود وأعمال دبلوماسية جادة ، قام بها سفراء اشتركوا فى مفاوضات ، وحملوا أثناء اجرائها ما حملوه مـن

مراسلات ومكاتبات ليمهدوا لعقد هذه المعاهدة ، وأنهم فى عمل ذلك كله كانوا يتحركون وفقا لقواعد ونظم وشرائع وقوانين وتقاليد كان عليهم الالتزام بها ومراعاتها بكل دقة وتقدير لمسئولية وخطورة ما يقومون به من مهـــام •

وعلى الباحث فى مجال التاريخ الدبلوماسى أن يتطرق فى بحثه الى أنواع متعددة من المصادر التاريخية ، وأن يتحلى بالصبر فى محاولة اقتفاء أثر ما يلزمه من معلومات ليجمعها ويعكف على تحليلها ودراستها ليتمكن بعد ذلك كله من ابراز عناصر الدبلوماسية الاسلامية ودورهـــا فى العـــلاقات بين المسلمين والصليبيين •

الفصــــــل الاول

مصـــــــادر البحـــث

حقيقة أن المؤرخين القدامى وضعوا عددا ضخما من المـؤلفات التى تناولت تاريخ العلاقات بين المسلمين والصليبيين فى العصـور الوسطى ، ووصلنا حشد كبير من المصادر التى اكتظت بها المكتبات العربية والافرنجية. جاءت هذه المصادر بلغات مختلفة منها العربيـة واللاتينية واليونانيـة والارمينيـة .

وقد نالت هذه المصادر عناية واهتمام كثيرين من المؤرخين الحدثين الذين قاموا على تحقيقها ودراستها وجمعها توطئة للاعتماد عليها فيما قاموا به من أبحاث وما وضعوه من دراسات عديدة . وكأن المؤرخون الفرنسيون سابقين على غيرهم من المؤرخين الحديثين فى الاهتمام بتلك المصـادر وبعد سنوات طوال انكبوا خلالها على العمل لجمع العديد من المصـادر الخاصة بعصر الحروب الصليبية أصدروا تلك الموسوعة الكبرى التى تضمنت مجموعة ضخمة من المصادر ، والتى تتكون من ستة عشر مجلدا كبيرا ، وقد عرفت باسم مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية[1] . منها خمسة مجلدات للمصادر اللاتينية ، وخمسة للمصادر الشرقية بما فيها المصادر العربية ، ومجلدان للمؤرخين الاغريق ومجلدان للوثائق الارمينيـة ، ومجـلدان لقوانين مملكة بيت المقدس .

وبعد اصدار هذه الموسوعة الكبرى فى فرنسـا ، تابع الباحثـون الحديثون جهودهم للتعرف على مزيد من المصادر ودراستها ، وحققوا فى ذلك نتائج حميدة . ويستطيع المرء أن يستدل على هذه المصادر عن طريق بعض الدراسات الحديثة التى تناولت هذا الموضوع أو التى تعرضت له .

---

(١) انظـــر :

Recueil des Historiens des Corisades. Academie des Inscriptions. Paris, 1841 *â* 1906.

ومن أحسن ما نجده فى هذا المجال تلك الدراسة للمصادر التى وردت فى كتاب كاهان المعروف باسم « تاريخ شمال الشام فى عصر الحروب الصليبية » (٢) . ومما يبرز فى مجال التعريف بالمصادر تلك الدراسة القيمة والتى قام بها المؤرخ البريطانى المعروف رنسيمان والتى تعرف باسم : « تاريخ الحروب الصليبية » (٣) كما أن قوائم المصادر التى وردت فى تلك الموسوعة التى اضطلعت باصدارها جامعة بنسلفانيا ، فى الولايات الامريكية المتحدة ، والتى ظهر منها الى الان أربعة أجزاء تعتبر من أهم وأحدث ما يمكن الرجوع اليه (٤) .

تغلب اسلوب العداء على الكتابات التاريخية وأسباب ذلك :

وليس هدفنا هنا أن نقدم دراسة تفصيلية عن المصادر المختلفة سواء اكانت عربية أو افرنجية ، فهذا موضوع لا يسمح به المقام هنا . وانمـــا هدفنا أن نشير الى أن هذه المصادر ، مع كثرتها ، قد عنى أغلبها بالتاريخ السياسى العام . كما أنها عندما أوردت أخبار الدول والامارات الاسلامية والصليبية ، فأكثر هذه الاخبار جاء ليتناول مظاهر الصراع والعداء بين الجانبين . وكثير من هذه المصادر تضمن عبارات تعكس مشاعر بالاختلاف

---

(٢) الكتاب صدر بالفرنسية وعنوانه :

Cahen ,C: La Syrie du Nord a l' epoque desCroisades. Paris, 1940.

(٣) الكتاب صدر باللغة الانجليزية وعنوانه :

AHistory of the Crusades. Cambridge, 1966.

وقد قام بترجمة هذا الكتاب الى اللغة العربية الدكتور السيد الباز العرينى بعنوان تاريخ الحروب الصليبية — بيروت ١٩٦٩ .

(٤) أنظـــر :

A History of the Croisades. Ed. Setton. The University of wisconcin Press, 1977.

العنصرى والدينى ، وتعكس روح العداء والكراهية ، ممـــا يعطى انطباعا مبدئيا باستبعاد وجود أى تعايش سلمى وأى تفاهم بين الطرفين . فالباحث المتمعن لا تخفى عليه تلك العبارات التى كثر ترددها فى المصادر سواء أكانت عربية أو افرنجية .

وبالنسبة للمصادر العربية فامثال تلك العبارات تظهر فى كتابات كثيرين من المؤرخين مثل ابن الاثير أو ابن القلانسى أو المقريزى وغيرهم كثير . وحتى أسامه بن منقذ ذلك الامير العربى ، صاحب كتاب الاعتبار ، والذى يعرف عنه أنه أبدى مقدرة ملحوظة على التفاهم مع الصليبيين والتعايش السلمى معهم ، فانه فى كتاباته عنهم يكرر عبارات مماثلة للعبارات التى يكثر ترددها الى المصادر العربية الاخرى عند تعرضها لاخبار الصليبيين . فهو لا يضن عليهم بصفة « شياطين » (٥) وصفة « كـــافرين » (٦) كمـــا يذهب الى استنزال لعنة الله عليهم (٧) . وفى الدعاء الى الله ، يطلب أسامـــه أن « يطهر الدنيا منهم » (٨) .

أما ابن جبير ذلك الرحالة المسلم الاندلسى الذى زار المملكة الصليبية فى أخريات القرن الثانى عشر للميلاد ، فقد ترك عبارات مماثلة ، ان لم تكن أشد ، فى بيان الخلاف والعداء . فهو عند حديثه عن مدينة عكا التى كانت من أهم مراكز الصليبيين فى الشام ، يقوم انها:«تستعر كفرا وطغيانا وتفور خنازير وصلبانا ، زفرة قذرة ، مملوءة كلها رجسا وعذرة ...» (٩) أما مدينة

---

(٥) أسامه بن منقذ : كتاب الاعتبار ص ١١٨ س٢١ .

(٦) المصدر السابق ص ١٤٨ س ١٤ ، ص ١٣٥ س ١٤ .

(٧) المصدر السابق ص ١٣٩ س ١٤ ، ص ١٤٠ س ١ .

(٨) المصدر السابق ص ١٣١ س ٥ .

(٩) ابن جبير : رحلة ابن جبير ص ٢٧٦ .

صور التى كانت كذلك تحت الحكم الصليبى فلم يملك ابن جبير الا أن يدعو عليها بقوله « دمرها الله » (١٠) .

هذا وقد وردت فى جملة المصادر اللاتينية كثير من العبارات المماثلة التى تظهر فيها مشاعر الخلاف والعداء . ويمكننا أن نضرب على ذلك العديد من الامثلة . ومما يمكننا الاستشهاد به منذ فترة مبكرة نسبيا من تاريخ الحركة الصليبية ، كان ما جاء فى كتابات المؤرخ الصليبى روبرت الراهب الذى أورد صورة للخطاب الذى القاه البابا أوربان الثانى على مسامع المسيحيين ليستحثهم على محاربة المسلمين وقد جاء فيه عنهم أنلم « جنس حلت عليه لعنة الله » وأنهم «جنس ضل سبيله الى الله » (١١) .

أما المؤرخ وليام الصورى الذى يعتبر أهم المؤرخين الصليبيين ، فقد أورد فى كتابه عبارات أراد بها أن يمس الرسول ﷺ فيقول عنه أنه « النبى الزائف كما يصف المسلمين «بالكفرة» (١٢) وان هذه العبارات وما يشابهها قد كثر ورودها فى المصادر اللاتينية التى أرخت للحروب الصليبية وعلاقات الصليبيين مع المسلمين .

وفى التعليق على هذه النزعة فى كتابات واضعى التاريخ الحولى وغيره من المصادر ، يبدو أنهم تأثروا بالاختلاف الدينى والعنصرى بين المسلمين

---

(١٠) المصدر السابق ص ٢٧٧ .

(١١) انظـــر :

«Speech of Pope Urban II,» D. C. Munro Trans. University of Pennsylvania, Vol' I, pp. 5 = 10.

(١٢) انظـــر :

Wilhiam of tyre : History of Deeds Done Beyond the Sea. Trans Babcock and Krey. New yorh, 1943.

والصليبيين كما تأثروا بالاختلاف الحضارى بينهما ، فضلا عن تأثرهم بالمشاعر العامة وما صاحبها من حماسة دينية ، لينعكس كل ذلك فيما دونوه من أخبار . كما يبدو أن بعض هؤلاء المؤرخين اعتبروا أن الجدير بالتسجيل والكتابة عنه فى مؤلفاتهم انما هى العمليات العسكرية والمعارك الحربية ولهذا جاءات كتاباتهم تعكس صورا متتالية للخصومات والمعارك والمشاعر العدائية ، وكأنهم رأوا أن العلاقات بين الجانبين يجب ألا تقوم الا على حد السيف ، وأنه لا مكان لقيام علاقات طبيعة ودبلوماسية بين دار الاسلام ودار الحرب ، وكأن تلك العلاقات الاخيرة أمر ينال من مكانة المسئولين سواء أكانوا من المسلمين أو الصليبيين ، ويحيط من شأنهم أمام رعاياهم.

وربما كانت هذه النزعة لدى المؤرخين مما يفسر أسلوب تلك المصادر التاريخية ونزعتها ومنهجها ، وأنها لما تأتى بمعلومات فى مجال العلاقات المدنية عامة والدبلوماسية خاصة ، كان ذلك على شكل نتف وأخبار موجزة، يتعين على الباحث أن ينقب عنها حتى يتمكن من العثور عليها فى مواضع متناثرة بين الاخبار المطولة التى أوردها المؤرخون القدامى فى حولياتهم التى تتناول أخبار الخلفاء والسلاطين والملوك والامراء ، وكذلك فى أخبار المعارك التى دارت رحاها بين المسلمين والصليبيين .

ولا شك أن من الاسباب المسئولة عن ضآلة ما وصلنا من المعلومات عن العلاقات الدبلوماسية فى التاريخ الحولى ، ما تتسم به هذه العلاقات فى كثير من الاحيان من تكتم وسرية . فان السياسة الخارجية لدولة من الدول ، اذا كان بعض جوانبها يتسم بالعلانية والوضوح ، فان مهام السفراء والرسل والمفاوضات التى يشاركون فيها كثيرا ما تحاط بالسرية والتحفظ على النحو الذى تقتضيه الاحوال الداخلية والظروف الخارجية للدول والامارات المختلفة سواء أكانت اسلامية أو صليبية .

A U B LIBRARY

ولكن مهما قيل عن مصادر التاريخ الحولى ، وعدم تفصيلها بصفة عامة فى تاريخ العلاقات السلمية والدبلوماسية ، فانه لا يمكن الاستغناء عنها ، وذلك لما تقدمه للباحث من خلفية عامة وما تزوده به من بعض التفاصيل عندما يتصدى للبحث فى التاريخ الدبلوماسى •

ومما يلاحظ بالنسبة للمصادر التاريخية الاسلامية ، أنها بالرغم من وفرتها بالنسبة للحملات الصليبية المتأخرة ، فانها لا تقدم الا مساعدة محدودة فى التأريخ للحملة الصليبية الاولى والمرحلة المبكرة من اقامة الصليبيين فى الشرق • وعلى العموم ، فمع الانتقال من أخريات القرن الحادى عشر للميلاد ، الذى وصل فيه الصليبيون الى الشرق ، الى القرن الثانى عشر للميلاد ، يزداد اهتمام المصادر العربية بالتأريخ للعلاقات بين المسلمين والصليبيين • والى جانب كتب التاريخ الحولى وما يشابهها مما كتبه المؤرخون مثل ابن الاثير وابن القلانسى وابن شداد وأبو شامة وابن الفرات وابن الجوزى وأبو الفداء وكثيرون غيرهم ، فهناك أصناف أخرى من المصادر العربية التى يمكن للباحث أن يجمع منها مادة علمية تساعده فى تتبع التاريخ الدبلوماسى نعرضها فيما يلى •

ومن أهم تلك المصادر ذلك الكتاب الذى وضعه أسامة بن نقذ والذى سبقت الاشارة اليه ويعرف باسم كتاب الاعتبار الذى كان على شكل مذكرات ذاتية سجلها هذا الامير • فالكتاب له أهمية بالغة فى دراسة مظاهر العلاقات المدنية بين المسلمين والفرنجة ، وهى تمدنا بمعلومات طريفة نكاد ألا نجد لها مثيلا فى المصادر الاخرى • ومما يزيد فى قيمة هذه المعلومات ، شخصية مؤلف الكتاب وتجاربه المتعددة الجوانب ، وما أتيح له من فرص للتعرف على أحوال الامارات الاسلامية التى عمل فيها والامارات الصليبية

التى زارها • وأسامة الذى يعرفه البعض كأديب لامع ، كان كذلك فارسا مقداما شارك فى الجهاد ، كما كان رجل دولة معروف • وقد ولد فى امارة شيزر الواقعة على نهر العاصى فى سنة ٤٨٨ هـ (يوليو ١٠٩٥م) فى ذلك الموضع الذى كان منطقة لقاء بين الامارات الاسلامية والصليبية • وتنقل أسامة بين معظم العواصم العربية واتصل بعماد الدين زنكى ونور الدين محمود والخليفة الفاطمى الحافظ ثم الظاهر ، وتعرف شخصيا على بوهيموند وفولك من أمراء الافرنج وحكامهم ، كما اتصل قبل وفاته بالسلطان صلاح الدين الايوبى الذى أظهر نحوه مشاعر طيبة • وفى أواخر حياته ، عكف أسامة على تدوين كتاب الاعتبار الذى كان على شكل مذكراته وتجاربه الشخصية ، وقد تميز بالامانة والصدق فى الرواية والدقة فى الملاحظة •

ومن أهم فصول كتاب الاعتبار كان الفصل الذى سجل فيه أسامة ملاحظاته عن الفرنجة التى جاءت نتيجة لاتصالاته الشخصية بهم عن كثب بعد أن عاشرهم وكانت له العديد من التجارب الشخصية معهم[١٣] •

ويحتل كتاب ابن الفراء المعروف باسم « رسل الملوك ومن يصلح للرسالة والسفارة » مكانة بالغة الاهمية بالنسبة لمن يبحث فى تاريخ العلاقات الدبلوماسية بين المسلمين وغير المسلمين • ولا شك أن الاضطلاع بتحقيق هذا الكتاب ونشره كان من الاعمال الهامة الرائدة فى دراسة نظام السفراء المسلمين ومهامهم[١٤] • وقد زود هذا الكتاب المكتبة التاريخية بمعلومات

(١٣) لمزيد من المعلومات عن أسامه وكتابه انظر ماكتبة فيليب حتى فى التقديم هذا الكتاب — انظر أسامه بن منقذ : كتاب الاعتبار حرره فيليب حتى — برنستون ، الولايات المتحدة ١٩٣٠ •

(١٤) ابن الفراء : «رسل الملوك ومن يصلح للسفارة» قام بتحقيق هذا الكتاب ونشره صلاح الدين المنجد وظهرت منه طبعتان الاولى فى القاهرة سنة ١٩٤٧ والثانية فى بيروت ١٩٧٢ . وتتميز الطبعة الاولى بتلك الدراسة العلمية القيمة التى تقدم بها لهذا المصدر الهام •

A U B LIBRARY

طريقة ودقيقة لها أهميتها فى هذا المجال فهو يقدم صورة واضحة لخبرة العرب والمسلمين فى نظام السفارات وعملها فى عصر ابن الفراء • ونصوص الكتاب تعكس معرفته المسلمين بما تركه الاغريق والفرس من تراث فى المجال الدبلوماسى ، فابن الفراء يرجع الى كتاب السياسة العامة لارسطو كما يقتبس من كتاب خداينامه كما يقتبس مما كتبه الهنود • الا أن هذا الكتاب مع ما له من قيمة وأهمية ، قد غلب عليه الايجاز ، فهو فى أصله وصل فى ٥٣ صفحة ، كما أن مؤلف الكتاب عاش فى القرن الرابع للهجرة (القرن العاشر للميلاد) وقد يكون أدرك القرن الخامس للهجرة مثلما بين محقق الكتاب فى طبعته الثانية • ولهذا فان كتاب ابن الفراء وان كان يعيننا فى القاء أضواء على نظام السفراء والدبلوماسية فى مراحلها الاولى فهو لا يزودنا بمعلومات خاصة ومباشرة عن الفترة التالية التى قامت فيها الامارات الصليبية فى الشرق فى القرنين السادس والسابع للهجرة (الثانى عشر والثالث عشر للميلاد) •

وبطبيعة الحال يتعين على الباحث فى التاريخ الدبلوماسى أن يرجع الى الوثائق الرسمية من المراسلات والمكاتبات الدبلوماسية ، والمعاهدات التى عقدت بين الطرفين • فالوثائق لها أهميتها وضرورتها التى لا سبيل للاستغناء عنها حتى يقوم البحث على أسس علمية سليمة • والمعروف أن المسلمين اهتموا اهتماما بالغا بالوثائق الرسمية • ويتضح اهتمامهم بالوثائق الصادرة منهم من حيث انشائها وكتابتها وتوثيقها وتصديرها مع حفظ نسخ منها • كما يتضح هذا الاهتمام بالنسبة للرسائل الواردة من الخارج ، والتى كانوا يعتنون بدراستها وحفظها للرجوع اليها عند الرد عليها • وقد اضطلع بمسئولية هذه الوثائق وكذلك الوثائق الخاصة بالمعاهدات ذلك الجهاز الادارى الذى كان له شأنه بين الاجهزة الادارية الرئيسية فى الدولة

الاسلامية ونقصد بذلك ديوان الرسائل الذى عرف أيضا باسم ديوان الانشاء ، وكانت من اختصاصات هذا الديوان أمور تدخل فى نطاق اختصاصات وزارة الخارجية فى العصر الحديث[15] •

ومن المؤكد أن الاقسام ، الخاصة بالمحفوظات أو « الارشيف » فى دواوين الانشاء قد احتوت على ثروات بل وكنوز من الوثائق الرسمية سواء أكان ذلك فى القاهرة أو دمشق أو بغداد أوغيرها من العواصم الاسلامية خاصة بعد ان تزايدت العلاقات الخارجية عقب مجىء الصليبيين الى الشرق وتتابعت الاتصالات بين المسلمين والدول والامارات الفرنجية سواء أكانت فى الشام أو فى غرب أوربا •

ولكن بالرغم من كثرة الوثائق التى اكتظت بها دواوين الانشاء ، على ما تشهد به المصادر فان الغالبية العظمى من هذه الوثائق قد فقد ، وما وصلنا منها انما كان نسبة محدودة وعلى شكل نسخ للاصول التى فقدت • وفى تفسير ما حدث من ضياع هذه الثروة من الوثائق ، نجد أن دواوين الانشاء ومحتوياتها قد تعرضت للتلف والضياع نتيجة لعوامل متعددة • ومما يأتى فى مقدمة هذه العوامل تقادم الوثائق وتلفها نتيجة لمرور الدهور والسنين عليها • ومنها تعاقب الدول والحكومات والحروب وقيام عدد من الدول المستقلة فى الولايات على حساب السلطة المركزية أو حكومة الخلافة ثم سقوطها وقيام دول أخرى على أنقاضها مما أدى ضياع كثير من الوثائق الرسمية الخاصة بالحكومات والدول البائدة • ومما أسهم فى ضياع الوثائق كانت الخصومات والاختلافات المذهبية بين الدول الجديدة والدول

(١٥) سوف نعرض لاعمال ديوان الانشاء واختصاصاته فى الشئون الخارجية والعلاقات الدبلوماسية فى موضع تال من دراستنا لما نتناول موضوع النظم الدبلوماسية .

A U B LIBRARY

السابقة عليها • وان كانت قلة من هذه الوثائق وصلتنا عن طـريق كتب التاريخ الحولى ، فقد كان للمصنفات التى وضعت عن دواوين الانشـاء الفضل الاكبر فى الاحتفاظ بنسبة منها ، كما أن هـذه المصـنفات تزودنا بمعلومات هامة عن جوانب أساسية مع النظم الدبلوماسية • وأمام ذلـك فلابد من العناية بتقديم فكرة واضحة عن هذا النوع من المصادر •

المصنفات فى فن الكتابة وديوان الانشاء :

منذ فترة مبكرة نسبيا من التاريخ الاسلامى ، أظهر المسلمون اهتماما بوضع مؤلفات خاصة عن فن الكتابة والعمل فى ديوان الرسائل او ديوان الانشاء كما أصبحوا يطلقون عنيه • وتعاقب جهود المؤلفين لهذه الكتب حتى كثرت أعدادها ويقدر المستشرق جوركمان WBjorkmann عددهـا بما يزيد على خمسين كتابا [16] • وكان مؤلفوها عادة من المشتغلين فى ديوان الانشاء وكانت بمثابة دساتير تبين مصطلح الكتابة السليم وتوجه الكتاب الى أفضل الطرق لاداء أعمالهم وتتناول الاشتراطات اللازم توفرها فى العاملين فى انديوان من ثقافة وغيرها ، والاسلوب المتبع فى الكتابة والادارة والمراسيم والمصطلحات • وتطرق بعضها للحديث عن الاوراق التى تستعمل فى الكتابة وأنواعها والافلام وأصنافها وغير ذلك من الجزئيات والتفاصيل فضلا عن بيان كافة نظم هذا الديوان ومظاهر نشاطه المختلفة • واذا كان بعض هذه المصنفات قد فقد ، فان بعضها الاخر أصبح فى تناول الايدى بعد تحقيقه ونشره • وهناك منها مما لا يزال على هيئة مخطوطات وفى حـاجة الى من يقوم بدراستها ونشرها • وفضلا عن هذا وذاك فان بعض ما فقد

---

(١٦) انظـــر :
W. Bjorkmann : «Diplomatic,» Encyclopedia of Islam, I,306.

من هذه الكتب قد وصلتنا أجزاء منها ، بشكل غير مباشر عن طريق المؤلفات التى وضعت فى عصور تالية لها والتى رجع أصحابها الى تلك الكتب •

ومن المصنفات الاولى فى أدب الكتابة أدب الكاتب الابن قتيبة ت ٢٧٠هـ ، كتاب الوزراء والكتاب لابن عبدوس الجهشيارى ت ٣٣١هـ ، أدب الكتاب للصولى ت ٣٣٥هـ وغيرها • وجاءت بعد هذه المؤلفات مجموعة أخرى ظهرت فى العصور التالية المتصلة بموضوع بحثنا منها كتاب « مواد البيان » لعلى بن خلف ، وقانون ديوان الرسائل لابن الصيرفى ومعـالم الكتابة ومغانم الاصابة لابن شيت ت ٦٦٥هـ ، وحسن التوسل الى صناعة انترسل لابن فهد الحلبى ت ٧٢٥ هـ ، « والتعـريف بالمصـطلح الشريف للعمرى » ت ٧٤٩هـ ، و «صبح الاعشى فى صناعة الانشاء» للقلقشندى ت ٨٤١ هـ • ونقدم فيما يلى تعريفا مجملا ببعض هذه المصادر على أساس أنها نماذج مختارة منها •

وبشأن كتاب « مواد البيان » لعلى بن خلف فان مؤلفه عاش فى العصر انفاطمى ، وكان فيما يبدو من كتاب الانشاء فى الدولة الفاطمية • وقـد عاصر عهد الخليفة المستظهر (٤٢٧ — ٤٨٧ هـ/١٠٣٥ — ١٠٩٤م) وهـو يؤرخ لفن الكتابة فى الفترة التى سبقت مباشرة وصول الصليبيين الى الشرق• وعلى أية حال فهو يقدم فكرة عن الاتصالات المبكرة بين الفاطميين وغرب أوربا قبيل الحركة الصليبية • فالكتاب وان قنن لفن الكتابة بوجه عام ، فقد قنن لكتابة الانشاء بشكل خاص ، ويضع القوانين والقواعد الواجب اتباعها عند كتابة كل نوع من أنواع الرسائل والوثائق ، ويأتى بعدها بنماذج وأمثلة ايضاحية والمشاهد أن القلقشندى نقل عنه فى كثير من المواضع وخاصة فى

A U B LIBRARY.

تلك المرحلة التى عالج فيها فن الكتابة ونظمها فى العصر الفاطمى [١٧] .

وجاء بعد على بن خلف ابن الصيرفى ت ٥٤٢ الذى وضع كتابة المسمى « قانون ديوان الرسائل » • وهو كاتب ومؤرخ فاطمى تولى الكتابة فى ديوان الانشاء الفاطمى وأصبح رئيسا له وعمل به قرابة نصف قرن ومات فى الخليفة الحافظ [١٨] .

هذا وقد وضع فى العصر الايوبى العديد من الرسائل والوثائق الدبلوماسية والمؤلفات كتبها كتاب لهم شأنهم وشهرتهم مثل القاضى الفاضل وابن مماتى وابن شيث صاحب كتاب « معالم الكتابة ومغانم الاصابة » • أما العصر المملوكى فكان أكثر وازدهارا فى المؤلفات التى وضعت عن العمل فى ديوان الانشاء • ومن أهمها كان ما وضعه شهاب الدين العمرى ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٩م وهو صاحب الموسوعة الكبرى المسماة « مسالك الابصار فى ممالك الابصار » ويهمنا هنا كتابه الذى وضعه فى أصول شئون ديوان الرسائل والمسمى « التعريف بالمصطلح الشريف » وقد تولى العمرى ديوان الانشاء قبل القلقشندى بنحو نصف قرن ويعتبر كتابة « التعريف » فى نظم الكتابة والانشاء الرسمية من أهم الدساتير التى نظمت مصطلح الكتابة فى عصر المماليك البحرية ، وقد فرغ منه العمرى سنة ٧٣٥هـ • والقسم

---

(١٧) يذكر جمال الدين الشيال أن معهد المخطوطات العربية بالقاهرة قد أحضر فيلما مصورا لهذا الكتاب عن نسخة وحيدة منه كتبت فى القرن السابع الهجرى ومحفوظة فى مكتبة فاتح فى استانبول — أنظر جمال الدين الشيال : مجموعة الوثائق الفاطمية ص ٩ .

(١٨) لمزيد من المعلومات عن ابن الصيرفى أنظر المرجع السابق ص ٤٢ — ص ٤٤ — هذا وقد نقل المؤرخ الفرنسى ماسيه Masse كتاب ابن الصيرفى فى المذكور الى اللغة . الفرنسية تحت اسم :

Le Code de la Chancellerie. Le Caire, 1914.

الرابع من الكتاب خصصه « للهدن والمواصفات والمفاسخات » وهى أمور تتصل اتصالا مباشرا بالعلاقات الدبلوماسية • وكتاب « التعريف » جاء موجزا وغير مفصل اذا ما قارناه بغيره ، الا أنه كانت له أهمية ، حتى أن القلقشندى فى مقدمته اعتبره « أنفس الكتب المصنفة فى هذا الباب » وقد مهد « التعريف » السبيل للكتب التى وضعت بعده عن ديوان الانشاء أو بمعنى آخر كتب الدساتير ، ويبرز من بينها بشكل خاص كتاب صبح الاعشى للقلقشندى •

يحتل كتاب صبح الاعشى مكانة خاصة بين الكتب الخاصة بديوان الانشاء • ومؤلفه هو القاضى شهاب الدين أحمد بن على بن أحمد القلقشندى الذى ولد على ما يبدو سنة ٧٥٦هـ (١٣٥٥م) ودرس فى القاهرة والاسكندرية على أكابر علماء عصره وتخصص فى الادب والفقه الشافعى ، وبرع فى علوم اللغة والبلاغة والانشاء • وتدرج فى عدد من الوظائف الادارية الى أن استرعت مهارته انتباه المسئولين فعينوه فى ديوان الانشاء فى ٧٩١هـ • وهناك أتيحت الفرصة للوقوف على شئون الحكم والسياسة فى المجال الداخلى وكذلك فى مجال العلاقات الخارجية مع سائر الدول •

ولما قرر القلقشندى وضع كتابه « صبح الاعشى » رأى أن يكون شاملا يجمع فيه بين العناية بالكتابة ونظام العمل فى ديوان الانشاء ليكون كتابة مرجعا متكاملا • كما حرص على أن يكون هذا المرجع مفصلا يجمع كل ما يتصل بديوان الانشاء منذ نشأته الى وقت الفراغ من تأليف الكتاب سنة ٨١٥هـ وقد تطلب ذلك منه جمع معلومات كثيرة من مصادر عديدة فى فروع مختلفة تبدأ من صدر الاسلام وتمتد الى عصره • كان من المصادر التى رجع اليها الكتب التالية كتاب مواد البيان ، معالم الكتابة لابن شيث ، ومكاتبات القاضى الفاضل وبالنسبة للعصر المملوكى فكانت أهم

A U B LIBRARY

المصادر التى اعتمد عليها القلقشندى ما كتبه ابن فضل الله العمرى مثل «التعريف» الذى استرشد به القلقشندى فى تقسيم موضوعات كتابه ، وهناك كذلك كتاب « عرف التعريف » « والجواهر الملتقطة » و(التذكرة) الى جانب مصادر أخرى مثال « تثقيف التعريف » لابن ناظر الجيش ، «وحسن التوسل فى صناعة انترسل » و « زهرة الربيع فى ترسل البديع » للشيخ محمود الحلبى ،« وتذكرة اللبيب فى نزهة الاديب » لابن المكرم [١٩] .

وبذل القلقشندى كذلك جهدا كبيرا فى البحث والتنقيب عن الوثائق والمراسلات الدبلوماسية ، وتجمعت لديه من كل ما قرأه مادة ضخمة وبعد سنوات من الجهود المضنية بذلها فى الجمع والتأليف أتى بكتابه هذا الذى جاء على شكل موسوعى يتفوق على ما سبقه من الكتب التى وضعت فى هذا الموضوع ، بل ويمكننا القول أن كتاب صبح الاعشى يكاد يغنى عن العديد من الكتب التى سبقته ، وذلك لما اتصف به من شمولية ودقة ويعوضنا كذلك بشكل نسبى عن المصادر السابقة التى فقدت .

ويمدنا كتاب صبح الاعشى بمعلومات قيمة بالنسبة لموضوع بحثنا فى العلاقات الدبلوماسية بين المسلمين والفرنجة . فهو يتناول نظام السفراء والمراسلات وقواعدها والمعاهدات وشروطها . وأركانها ، كما زودنا بعدد من الوثائق الدبلوماسية الهامة . وبشأن هذه الوثائق لم يقصد القلقشندى أن يقدم سجلا كاملا للمراسلات بين السلاطين والملوك والامراء المسلمين الذين تراسلوا مع الحكام الفرنجة أو المعاهدات بين الطرفين ويبدو

(١٩) أنظر الاعشى ج ٧ ص ٢٢٩ ، ص ٢٥٧ ، ج ٩ ص ٣٢٠ . وارجع كذلك لذلك الثبت التفصيلى بأسماء الكتب التى ذكرها القلقشندى فى كتابه صبح الاعشى والتى كان على معرفة بها وذلك فى الكتاب الذى اعده محمد قنديل البقلى : فهارس كتاب صبح الاعشى . ص ٥٩٧ — ص ٦٢١ .

أنه لم يقصد من جمع الوثائق عرضها أن يستفيد منها الناس من الناحية الخبرية ، بل أن يستعين بها الكتاب والعاملون فى ديوان الانشاء كنماذج يقتدى بهامن يحتاج اليها منهم . الا انه إذ فعل ذلك قدم للباحثين خدمة لها قدرها من الاهمية ، حيث زودهم بمعلومات وعدد من الوثائق التى تلقى أضواء نافعة على جوانب هامة من العلاقات الدبلوماسية .

وفى أكثر من موضع يتضح لنا أن القلقشندى لم يكن مجرد جماع للمادة التاريخية والادبية والنقل عن السابقين ، بل كان له ادراكه وذوقه وخبرته الخاصة فى البحث والتحليل والتعليق على ما يطلع عليه ويرجع اليه من المعلومات . ومما يشهد بذلك ما علق به على نسخ الهدن والاتفاقيات التى نقلها عن كتاب « تذكرة اللبيب » لمحمد بن المكرم وهو أحد كتاب الدولة فى عهد السلطان قلاون،وقول القلقشندى معقبا عليها:«ليس منها ماهوحسن الترتيب رائق الالفاظ ، بهيج المعانى بليغ المقاصد غير النسخة الاخيرة المعقودة بين الملك والاشرف (خليل بن قلاون) وبن الملك دون حاكم (ملك أراجون) . اما سائر النسخ المتقدمة فانها مبتذلة الالفاظ ، غير رائقة الترتيب ، لا يصدر مثلها من كاتب عنده أدنى ممارسة لصناعة الكلام . والعجب من صدور ذلك فى زمن الظاهر ببرس والمنصور قلاون ، وهما من عظماء الملوك ، وكتابة الانشاء يومئذ بيد بنى عبد الظاهر ، الذين هم أهل الفصاحة ورءوس أرباب البلاغة . ولكن القلقشندى ، بأدبه المعهود ، يحاول أن يجد لذلك تبريرا عندما قال أن سبب ذلك التدنى فى الاسلوب ربما يرجع الى طريقة التفاوض بين المسلمين والصليبيين والاتفاق على المعاهدة مادة مادة والخوف من التعديل فيها فى حالة اعادة صياغة أى من تلك المواد [٢٠] .

(٢٠) صبح الاعشى ج ١٤ ص ٧٠ — ص ٧١

A U B LIBRARY

وفضلا عما تقدمه هذه الكتب أو الدساتير عن فن الانشاء والعمل فى ديوان الانشاء من معلومات هامة ، فانه يتعين على الباحث أن يرجع الى المصادر الخاصة بالشريعة الاسلامية والفقه الاسلامى للتعرف على القواعد التى سمح بها الاسلام للتعامل فى مجال العلاقات مع الدول غير الاسلامية ، سواء أكان ذلك فيما يتعلق بالجهاد ، أو السلم والصلح وعقد المعاهدات وتبادل الرسل وما يتصل بذلك من أمور • ويجد الباحث معلومات بالغة الاهمية فى القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة فقد وردت فيهما القاعدة الدستورية فيما يتعلق بأصول العلاقات الدولية للمسلمين مع الدول غير الاسلامية • كما تزود كتب الفقه الباحث بتفاصيل هامة فى أمور مثل معاملة الرسل والسفراء عند عبورهم حدود الدولة فى فصول حملت عنوان « فيمن مر بمسالح الاسلام من أهل الحرب » وكذلك الكتب التى تناولت السير والمغازى الاولى للمسلمين ، وهذه كتب تناولت مسارات العلاقات اندولية ويجد فيها الباحث معلومات هامة • ومن هذه الكتب كتاب الخراج لابى يوسف وكتاب السير الكبير للشيبانى مع شرح السرخسى ويمكن اعتبار الشيبانى وهو أكبر أصحاب أبى حنيفة ، من الرواد فى التأليف فى القانون الدولى من وجهة النظر الاسلامى • فانه ، فى كتابه السير الكبير عن السير المغازى الاولى للمسلمين وضعه فى أواخر القرن الثانى للهجرة تناول علاقة المسلمين بغير المسلمين ، وأحكام تلك العلاقات ويتناول الامان على اختلاف ضروبه وألفاظه ، والمستأمن والرسل الذين يفدون من دار الحرب الى دار الاسلام والحصانات التى يتمتعون بها ، والصلح والفداء والارض التى يستولى عليها المسلمون أو الحربيون ونقض المعاهدات وغير ذلك من الشئون الدولية • وكان هذا الكتاب موضع تقدير الخليفة هارون الرشيد الذى عاصره • كما عنى به كثيرون من اللاحقين مثل السرخسى

الذى كان من علماء الفقة والكلام والاصول المعروفين فى القرن الخامس الهجرى ، وقد قام بشرح كتاب الشيبانى (٢١) •

واذا ما انتقلنا الى المصادر اللاتينية فلا تخفى علينا وفرتها وكثره أعدادها • وهى تمد الباحث بكثير من التفاصيل عن الممتلكات الصليبية وأحوالها الداخلية فضلا عن علاقاتها مع المسلمين ونالت الحملة الصليبية الاولى والمرحلة المبكرة من تاريخ الفرنجة فى الشرق اهتمام عدد من المؤرخين الغربيين ، ومنهم ريموند أجيلز الذى وضع كتاب « تاريخ أعمال الفرنجة » وفولشير أوف شارتر صاحب كتاب « تاريخ أعمال حجاج بيت المقدس » وهو يتميز كمؤرخ على كثيرين من المؤرخين اللاتين بدقته وصدق روايته • ومن المؤرخين الذى ظهروا فى الفترة التالية كان المؤرخ وليام الصورى رئيس أساقفة كنيسة صور •

ويعتبر وليام الصورى أعظم مؤرخى الحروب الصليبية بل هو من أعظم المؤرخين الغربيين فى العصور الوسطى • وقد وضع كتابه الذى يعرف باسم « تاريخ الاعمال التى تمت فيما وراء البحار » الذى ويتناول الفترة الواقعة بين سنتى ١٠٩٥ و ١١٨٤م •

ولوليام الصورى أهميته كرجل من كبار رجال الكنيسة الكاثوليكية

---

(٢١) قام بتحقيق الكتاب المذكور مع شرح السرخسى صلاح الدين المنجد وعبد العزيز أحمد . وقد قدم صلاح الدين المنجد للكتاب بمقدمة تناول فيها اهمية الكتاب ومكانة مؤلفه وهو يرى أن الشيبانى سبق بكتابه هذا جروتيوس grotius الهولندى الذى عاش فى القرن السابع عشر للميلاد وسمى أبا القانون الدولى لبحثه فى أمور تتعلق بهذا القانون — هذا وقد ترجم الكتاب الى اللغة التركية ، وأصبح الدليل والمرجع الذى رجع اليه العثمانيون فى علاقاتهم مع الدول الاوروبية . انظر : شرح كتاب السير الكبير ، ت صلاح الدين المنجد ج ١ ص ١٣ — ص ١٤ .

AUB LIBRARY

فى الشرق ، كما كانت له مكانة المرموقة بين رجال الدولة المسئولين فى مملكة بيت المقدس الصليبية • الا أن شهرته فى العصور التالية قامت على أساس انجازاته كمؤرخ ، هذا بالرغم من ضياع بعض مؤلفاته فى التاريخ • ومهما يكن من أمر فان تاريخه الكبير الذى وصل الى أيدينا والذى أشرنا اليه يحتل مكانة عظيمة الاهمية بين مصادر تاريخ الحروب الصليبية • وجرى العرف على اعتبار هذا الكتاب الاصل الذى تفرع منه أدب الحروب الصليبية ، مع اعتبار أن الجذور وجدت فما سبقه من المؤلفات ، وأن الفروع كانت الكتب التى وضعها المؤرخون اللاحقون الذين لم يذكروا أسماءهم وأعتبروا مؤلفاتهم ملاحق أو مذيلات على تاريخ وليام الصورى (٢٢) •

ونعرف فيما يلى بحياة هذا المؤرخ ونشاطه • كان وليام الصورى من أصل افرنجى والمحتمل أن أبويه نزحا من أوروبا الى الشرق كغيرهم من الصليبيين • وكان مولد وليام فى بيت المقدس حوالى سنة ١١٣٠م ابان حكم الفرنجة لها • وقد أتاحت له معيشته فى الشرق الفرصة لكى تصبح له دراية بعدد من اللغات ومنها اللغة العربية التى كانت تستعمل بكثرة فى محيط التبادل التجارى » •ويظهر أنه كان على بعض ألعلم باللغة اليونانية التى انتشر استعمالها فى الشرق يحكم صلة الجوار المباشر مع الدولة البيزنطية التى كان لها اتصالات متنوعة مع الصليبيين وشعوب الشرق الادنى الاسلامى •

وقد عمل وليام منذ فترة مبكرة من حياته فى السلك الكنسى ، وتابع دراسته فى غرب اوربا • وبعد عودته عمل فى خدمة الملك الصليبى عمورى

(٢٢) كانت حياه المؤرخ وليام الصورى ونشاطه موضع اهتمام عدد من الباحثين وبالنسبة للدراسات التى تناولت ذلك أنظر :

الذى كفله بكتابة تاريخه • وهكذا بدأ وليام ، وهو فى منتصف العمر ، نشاطه فى كتابه التاريخ منذ سنة ١١٦٧ حتى سنة ١١٨٤م • ولصلته بالملك عمورى وقربه منه ، أتيحت لوليام الفرصة لاستقاء المعلومات عن أحداث الدولة التى كان يؤرخ لها • وقد جاء كتابه : تاريخ الاعمال التى تمت فيما وراء البحار كثمرة نهائية لخبرته وتجاربة العملية ونشاطه فى التأليف التاريخى •

وعندما نحاول الحكم على وليام كمؤرخ ، فمن أهم ما نلاحظه كان ميله للموضوعية فى كتاباته وأحكامه • وبصفة عامة نستطيع القول بأنه لم يخضع للتعصب العنصرى أو الدينى أو الطبقى بنفس الدرجة التى كان عليها غالبية الكتاب الاوربيين المعاصرين وهو اذا امتدح أفرادا من اللاتين والبيزانطيين فهو يمتدح كذلك أفرادا من المسلمين ، ومثال ذلك وصفة للملك العادل نور الدين محمود بأنه « رجل حكيم فطن » (٢٣) وكان وليم على استعداد للاعتراف بميزات المسلمين ما قام به بعضهم من أعمال مجيدة • كما أظهر وليام اهتمامه بمظاهر الحياة اليومية والصناعات والتجارة والحياة الاجتماعية ، هذا الى جانب المسائل العسكرية والكنسية والدبلوماسية وسائر شئون الدولة • وقل أن يتوفر هذه الجمع فى مؤلفات غيره من الفرنجة •

ولا عجب اذن أن أصبح كتاب وليام يشغل مركزا رئيسيا بين المصادر اللاتينية التى وصلتنا عن تاريخ الحركة الصليبية ، فهو المصدر الرئيسى لتلك المرحلة الهامة الممتدة من ١١٢٧م حتى ١١٨٤م ، كما أنه بفضل المنهج الذى اتجه فى معالجة أحداث المرحلة السابقة على سنة ١١٢٧م أصبح ملحقا هاما للمصادر السابقة عليه •

(٢٣) المصدر السابق ج ، ص ١٤٦ .

AUB LIBRARY

وقد جاء بعد وليام الصورى مؤرخون لاتين آخرون تناولوا تاريخ الحركة الصليبية من أخريات القرن الثانى عشر حتى نهاية الوجود الصليبى فى الشرق قرب نهاية القرن الثالث عشر للميلاد • ومن أهم ما وضع من المؤلفات كانت تلك التذييلات على تاريخ وليام الصورى والتى دونت باللغة الفرنسية القديمة (٢٤) •

هذا ويجب الا يغفل الباحث أمر المراسلات الفرنجية ابان الوجود الصليبى فى الشرق ، ومنها مراسلات البابوية والملوك والامراء ، وتلك المكاتبات التى بعث بها رجال الجماعات الدينية العسكرية من الداوية والاسبتارية ، وكذلك ما يتعلق بالامور التجارية الواردة فى سجلات مدن بيزا والبندقية وجنوه (٢٥) •

وهناك كذلك المؤلفات الدستورية التى وضعها اللاتين لتنظيم شئون اماراتهم ، ويبرز من بينها كتاب يوحنا ابلين عن الفقة الدستورى وقد جاءت قوانين المحكمة البرجوازية تصف الاجراءات والمعاملات التجارية (٢٦) •

ومن هذا العرض المجمل للمصادر العربية والافرنجية يتضح للقارىء تنوع وتعدد المصادر التى يتعين على الباحث الرجوع اليها عندما يقدم على معالجة تاريخ العلاقات الدبلوماسية بين المسلمين والفرنجة •

---

(٢٤) رنسيمان ج ٣ ص ٨٠٤ — ٨٠٥ •

(٢٥) المصدر السابق ج ٢ ص ٧٧٨ •

(٢٦) أنظر رنسيمان ج٣ ص ٨٠٨—٨٠٩ •

الفصل الثانى

الاوضاع السياسية فى الشرق الادنى الاسلامى

وأثرها فى قيام العلاقات الدبلوماسية

A U B LIBRARY

فى الدراسات العديدة التى قام بها المؤرخون الحديثون عن العلاقات بين المسلمين والفرنجة ، تطرقوا لبيان العوامل التى أدت الى الصراع والتنازع بين الجانبين ، وكانت لهم فى ذلك نظريات متعددة تراوحت ما بين تغليب العامل الدينى والعوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، ولهم فى ذلك أراء متعددة .

ونحن هنا سنحاول تحليل العوامل التى اقتضت نوعا من التعايش السلمى بين الجانبين وما تطلبه من قيام العلاقات الدبلوماسية . وقد نشأت هذه العلاقات نتيجة لعوامل سياسية واقتصادية فرضتها طبيعة الاوضاع السياسية والاقتصادية لدى كل من الطرفين الاسلامى والصليبى .

وسوف نعرض فى مايلى الاوضاع السياسية التى تطلبت قيام العلاقات الدبلوماسية . لتوضيح هذه العوامل وبيان مدى تأثيرها سنقدمها على النحو التالى : أولا تحليل الاوضاع السياسية فى الشرق الادنى الاسلامى — ثانيا تحليل الاوضاع السياسية فى الامارات الصليبية فى الشام هذا مع الحرص على ابراز كيف أن الاوضاع السياسية لدى كل من الجانبين قد دفعت كلا منها للدخول فى علاقات دبلوماسية كما اقتضى الامر ذلك وحرصا على توضيح أثر العوامل السياسية سوف نعرض أمثلة من الواقع التاريخى لبيان مدى تأثيرها فى مجريات الاحداث .

اذا نحن ألقينا نظرة على الأوضاع السياسية فى منطقة الشرق الادنى الاسلامى ، تلك المنطقة التى كان عليها أن تواجه العدوان الصليبى ، وحاولنا استعراض أهم معالمها فى العصر الذى اقام فيه الصليبيون فى الشرق ، وهو الذى امتد زهاء قرنين من أخريات القرن الحادى عشر الى أخريات القرن الثالث عشر للميلاد ، لوجدنا العديد من العوامل والاسباب السياسية التى جعلت المسلمين لا يحجمون عن اقامة علاقات دبلوماسية

من الصليبيين كلما اقتضتذلك ضرورة من الضروريات أو كلما رأى المسلمون فى ذلك تحقيق مصلحة من مصالحهم •

والملاحظ أن خلال تلك المرحلة الطويلة تراوحت أحوال المسلمين ما بين التمزق والانقسام واضطراب أوضاعهم السياسية ، وبين تجميع قواهم ومحاولة اقامة جبهة اسلامية متحدة • وفى كل من الحالتين وجد من العوامل ما أدى الى دخولهم فى العلاقات الدبلوماسية •

لقد شهدت منطقة الشرق الادنى ، فى المرحلة التى سبقت وصول الصليبيين الى الشرق ، وهى التى امتدت خلال النصف الثانى من القرن الحادى عشر للميلاد ، صراعا واسعا على النفوذ بين ثلاث قوى رئيسية هى : دولة الخلافة العباسية السنية ومركزها بغداد ، ودولة الخلافة الفاطمية الشيعية ومركزها القاهرة ، والدولة البيزنطية وعاصمتها القسطنطينية • ومنذ دخول الاتراك السلاجقة بغداد سنة ١٠٥٥م ، حملوا لواء الخلافة العباسية ومدوا حدودهم على حساب البيزنطيين فى شمال الشام وآسيا الصغرى كما أحرزوا قدر اكبير من النجاح فى احلال نفوذهم محل الفاطميين فى جنوب الشام حيث استولوا على بيت المقدس وغيرها من مدن فلسطين • وبطبيعة الحال لم يكن الفاطميون لينسوا أو ليتغاضوا عن حقوقهم فى بلاد الشام الامر الذى سينعكس على تصرفاتهم مع السلاجقة على النحو الذى ستشاهده عقب وصول الصليبيين الى الشرق •

الا أن القوة والوحدة التى أمد بها الاتراك السلاجقة الدولة العباسية، ذهب الكثير من معالمها بعد وفاة ملك شاه ، آخر السلاطين السلاجقة العظام سنة ١٠٩٢م ، أى قبيل وصول الصليبيين الى الشام بسنوات معدودة • وأخذت الدولة الكبرى التى أقامها السلاجقة فى التفكك والتمزق على أثر

تنازع أفراد البيت السلجوقى ، الذين أخذ نفوذهم يخبو فى الشام • وكان من أهم مظاهر التفكك والتمزق السياسى قيام عدد من الامارات الاسلامية تحت اسم ما يعرف بنظام الاتابكيات الذى انتهى بتأسيس عدد من البيوت الحاكمة فى امارات جديدة أهمها امارة دمشق ومؤسسها ظهير الدين طغتكين ، وأتابكية الموصل وحلب وقد وضع أساسها عماد الدين زنكى ليستمر حكم أسرته فى الموصل من سنة ١١٢٧م الى سنة ١٢٦٢م • وكانت فلسطين من نصيب الامراء التركمان الاراتقة حتى سنة ١٠٩٨م عند ما تحرك الفاطميون ، الذين كانوا يترقبون لفرصة السانحة لاسترجاع ممتلكاتهم فى جنوب الشام من الاتراك ، ونجح الفاطميون فى استرجاع بيت المقدس وفضلا عن ذلك التنافس بين أفراد البيت السلجوقى والاتابكيات الجديدة ، والصراع بين اندولة الفاطمية الشيعية والامارات التركية السنية فى الشام ، وجدت بعض الاسرات العربية الحاكمة فى الشام التى كانت لها مصالحها وسياستها الخاصة وذلك مثل آل منقذ فى امارة شيزر •

وقد كان فى هذه الاوضاع أن تقدمت الحملة الصليبية الاولى الى البلاد الشامية وشرعت فى اقامة الامارات الصليبية مستغلة ما ساد الشرق الادنى الاسلامى من انقسام وتمزق سياسى ، وحرص الامراء المتنازعين على مصالحهم الخاصة المحلية بدلا من الاهتمام بتوحيد قوى الاسلام لمواجهة الخطر الصليبى • وظلت أحوال المسلمين السياسية على النحو المذكور لمدة ثلاثة عقود عقب تأسيس الامارات الصليبية فى الشرق ، دون أن يستطيع أحد من حكامهم اقامة وحدة سياسية أو جبهة اسلامية متحدة تواجه الفرنج •

وكان من الطبيعى فى تلك الاحوال من الاضطراب السياسى أن تضعف

A U B LIBRARY

قوى الامراء المسلمين ، ويضطر عدد منهم للدخول فى مراسلات ومفاوضات
مع الفرنجة لعقد هدن واتفاقيات معهم ، سواء أكان ذلك بغرض تفادى
التعرض لهجماتهم فى وقت كانت فيه اماراتهم غير قادرة على دفع خطرهم ،
أو بهدف الاستعانة بالصليبيين فى مواجهة امارات اسلامية أخرى منافسة
على النحو الذى سوف نبينه فى موضع تال لما نعرض الامثلة والنماذج لأثر
العوامل السياسية فى دفع المسلمين للدخول فى علاقات دبلوماسية
الصليبيين •

حقيقة أن الاوضاع السياسية للمسلمين أخذت فى التغير منذ العقد
الرابع للقرن الثانى عشر للميلاد ، وذلك على أثر احياء قوى الاسلام
السياسية وقيام جبهة اسلامية متحدة لمواجهة الصليبيين • وبرزت فى هذا
المجال جهود قادة مسلمين مشهورين اضطلعوا بهذه المهمة وهم عماد الدين
زنكى (١١٢٧ — ١١٤٦م) ثم ابنه الملك العادل نور الدين (١١٤٦ — ١١٧٤)
ثم السلطان صلاح الدين الايوبى (١١٧٤ — ١١٩٣م) الذى قضى على
الخلافة الفاطمية الشيعية فى مصر سنة ١١٧١م بعد أن استمرت مدة
طويلة ، ونجح صلاح الدين فى وضع الاساسى للدولة الايوبية التى استمرت
حتى ١٢٥٠م (٦٤٨ هـ) • وجاءت بعد هذه دولة المماليك التى حكمت من
١٢٥٠ الى ١٥١٧ م • وحملت المسئولية المزدوجة للابقاء على الجبهة
الاسلامية المتحده ومواجهة القوى الفرنجية • وقد حظى العصر المملوكى
بقيادات فذه أسهمت اسهاما حميدا فى أداء الرسالة • ولا يخفى على أحد
الدور الهام الذى قام به السلطان قطز (ت ٦٥٧هـ/١٢٥٩م) والسلطان
بيبرس (٦٥٨ — ٦٧٦هـ/ ١٢٦٠ — ١٢٧٧م) والسلطان قلاون (٦٧٩ —
٦٨٩هـ / ١٢٧٩ — ١٢٨٩م) ثم السلطان الاشرف خليل بن قلاون • وكان

من الطبيعى أن يترتب على ذلك التغيير فى أوضاع المسلمين تعديل نسبى
فى ميزان القوى ليصبح فى صالح المسلمين بشكل عام •

الا أننا لما نتحدث عن احياء قوى الاسلام السياسية وقيام جبهة
اسلامية متحدة ، وما فرضه واجب الجهاد على المسلمين من مسئوليات
والتزامات ،يجب أن نذكر أن بناة الوحدةكان عيهم أن يواجهوا فى نفس
الوقت مجموعة من المشاكل والعوامل السياسية الداخلية التى حدت نسبيا
من مقدرتهم على التفرغ لمحاربة الصليبيين ، وفرضت عليهم فى عدة مراحل
الدخول فى علاقات دبلوماسية معهم •

ولتوضيح ذلك علينا أن نأخذ فى اعتبارنا أن بناه الوحدة الاسلامية
كان عليهم فى كثير من الاحيان أن يواجهوا الامارات والقوى الاسلامية
المجاورة والمنافسة لهم • والمصادر العربية تزودنا بكثير من التفاصيل عن
الفتن أو الحروب التى قامت بين الامارات الاسلامية بالرغم من وجود
الخطر الصليبى المشترك •

وفضلا عن ذلك فان التاريخ السياسى يروى الكثير من المعلومات
عما قابله بناة الوحدة الاسلامية من مشاكل ، وما عانوا منه مع أمرائهم
العاملين تحت لوائهم • حيث ان كثيرين منهم كانوا ذوى نزعة استقلالية
انفصالية • ولتصور ذلك بوضوح علينا أن نتذكر طبيعة النظام الاقطاعى
الذى قامت على أساسه الدول الاسلامية فى المشرق فى هذا العصر • وفى
كثير من الاحيان كان كبار الامراء المسلمين يتحينون الفرص للتخلص من
السلطة المركزية التى كان السلاطين يحاولون فرضها عليهم ، بل وكثيرا
ما انشقوا عليهم وأسسوا امارات أو دويلات مستقلة وخاصة بهم •

ومن الجلى أن فى مثل هذه الاحوال ، كان بناة الوحدة ، بالرغم من

A U B LIBRARY

الجهود المضنية التى قاموا بها ، يجدون قدراتهم محدودة نسبيا فى مواجهة الخطر الصليبى ، وذلك بسبب المشاكل السياسية الممثلة فى علاقاتهم مع الامارات الاسلامية المنافسة ، وأمرائهم المشاغبين • وليس من المستغرب أن نلاحظ أن الوحدة الاسلامية قد تعرضت للتصدع فى أكثر من مناسبة سواء أكان ذلك فى القرن الثانى عشر أو الثالث عشر للميلاد •

ونجد كذلك أن بعض الامراء المسلمين الناشئين الذين أرادوا أن يحافظوا على الامارات التى أقاموها ، كانوا فى سبيل تحقيق اطماعهم الخاصة ، ولتخوفهم من السلاطين وبناة الوحدة ، كانوا لا يترددون فى اقامة علاقات دبلوماسية مع الصليبيين بهدف اقامة أحلاف سياسية عسكرية معهم يعتمدون عليها فى مواجهة القوى الاسلامية الاخرى •

ونضيف الى ما سبق أن الحكام المسلمين كانوا أحيانا يدخلون فى علاقات دبلوماسية مع بعض القوى الصليبية لاستمالتها أو على أقل تقدير لضمان وقوفها موقفا محايدا ، فى الوقت الذى يريد فيه المسلمون التفرغ لبعض القوى الصليبية الاخرى •

هذا وقد وجدت أسباب سياسية أخرى أسهمت فى قيام العلاقات الدبلوماسية ومن بينها كان موضوع الاسرى • اذ كان من المألوف أثناء المعارك الحربية العديدة أن يقع الاسرى من كل من الطرفين فى يد الطرف الاخر • وسواء أكانوا من القادة أو الامراء أو الفرسان أو عامة المحاربين فان فك أسرهم كان مسئولية تقع على عاتق حكامهم ، وقد تطلب ذلك ارسال الرسل والتفاوض والاتفاق من أجل تحقيق ذلك •

وكان الاستخبارات أو الجاسوسية أو المعلومات من المهام التى

يشارك فيها أعضاء البعثات الدبلوماسية منذ العصور القديمة الى يومنا هذا وعن طريق مشاهداتهم وملاحظاتهم فى بلاد العدو كان من الممكن لهم جمع معلومات تتعلق بالكثير من أحوال العدو وأوضاعه سواء أكان ذلك بالنسبة لحالته المعنوية أو أوضاعه السياسية والاقتصادية والاجتماعية • وفى ضوء هذه المعلومات التى تجمع ، كان الحكام يستطيعون التصرف ووضع سياستهم

ومن الكتاب العرب المعاصرين الذين أفردوا مكانا خاصا فى كتاباتهم عن الاستخبارات والجاسوسية كان القلقشندى ، فهو يذكر الشروط المطلوبة فيمن يقوم بهذا العمل ، وطريقة ادائه له وغير ذلك من الامور المتعلقة برجال الاستخبارات أو الجاسوسية ومما كتبه فى ذلك عن صفات الجاسوس:

« ••• ومنها أن يكون ذا حدس صائب وفراسة تامة ليدرك بوفور عقله وصائب حدسه من أحوال العدو بالمشاهدة ما كتموه عن النطق به ، ويستدل فيما هو فيه ببعض الامور على بعض ، فاذا تفرس فى قضية ولاح له أمر آخر يعضدها ، قوى بحثه فيها بانضمام بعض القرائن الى بعض » وذكر نفس المؤرخ فى موضع آخر : « ومنها أن يكون كثير الدهاء والحيل والخديعة ليتوصل بدهائه الى كل موصل ، ويدخل بحيلته فى كل مدخل ما ويدرك مقصده من أى طريق أمكنه ••• » •[1] •

هذا وقد اتخذت الدول والامارات الاسلامية بقدر الامكان الاحتياطات اللازمة لمنع السفراء والمبعوثين الاجانب من الاطلاع على أحوالهم • وكان ذلك من الاسباب التى جعلتهم يخصصون للسفراء الوافدين من يستقبلهم عند أطراف الدولة ومرافقتهم وملاحظتهم ابان اقامتهم فى البلاد •

وأحيانا كان المسلمون يلجأون لجمع المعلومات عن طريق السماح

---

(١) صبح الاعشى ج ١ ص ١٢٣ — ص ١٢٤ •

AUB LIBRARY.

لرسل الفرنجة بالتردد على البلاد الاسلامية وخاصة ابان اجراء المفاوضات اذ كانت اجتماعاتهم بهم والمحادثات التى تدور بينهم مما يساعد على استخلاص بعض أخبارهم وماهم عليه من قوة أو ضعف • وعلى سبيل المثال فان المؤرخ ابن شداد قد علق على السماح لرسل الافرنج بالتردد ذهابا وايابا أثناء المفاوضات التى كان صلاح الدين الايوبى يحربها مع حكامهم ، بأن السلطان كان يقصد « كشف الاخبار بتواتر الرسل » (٢) •

أمثلة لبيان أثر الاوضاع السياسية فى دخول المسلمين فى علاقات دبلوماسية

ونعرض فيما يلى عددا من الامثلة التى توضح كيف أسهمت الاوضاع السياسية فى الشرق الادنى الاسلامى فى دفع المسلمين للدخول فى علاقات دبلوماسية مع الصليبيين • وما نقدمه هنا انما هو عبارة عن نماذج مختارة وليس حصرا شاملا للاتصالات الدبلوماسية التى جاءت نتيجة للعوامل السياسية التى تنوعت فى طبيعتها ، ومنها ما أثر فى سياسة السلاطين المعروفين بحماستهم للجهاد • وفى عرضنا لهذه الامثلة سوف نلتزم بصفة عامة بالترتيب الزمنى للاحداث منذ وصول الفرنجة الى الشرق حتى القضاء على آخر مراكزهم به •

الاتصالات الدبلوماسية ابان الحملة الصليبية الاولى : الوزير الفاطمى الافضل ومشروع التحالف مع الصليبيين :

ومما تجب الاشارة اليه ، أن الاتصالات الدبلوماسية قد بدأت منذ باكورة وصول الفرنجة الى الشرق • وهناك ما يدل على أن عددا من الحكام المسلمين تراسلوا مع الفرنج وأن بعضهم ابدى استعداده لعقد اتفاقيات

(٢) ابن شداد : ص ٢٣١

معهم ، ونوضح ذلك على النحو التالى • فالصليبيون عند وصولهم الى بلاد الشام كان يهمهم تجنب قيام المسلمين على شكل جبهة متحدة ضدهم ، وأرتاوا مواجهة امارات الاسلامية الواحدة تلو الاخرى حتى يسهل عليهم الاستيلاء على البلاد • وكان من الطبيعى اذن أن يبادروا الى توجيه رسلهم الى بعض الامارات الاسلامية والدخول فى مفاوضات معها لاستمالتها ولو بشكل مؤقت •

والواقع أن اتصال الفرنجة بالمسلمين دبلوماسيا قد بدأ منذ فترة مبكرة • فقد ورد فى بعض المصادر ما يفيد بأن الامبراطور البيزنطى الكسيوس كومنين ، وهو الخبير بشئون الشرق ، نصح الصليبيين أثناء عبورهم بعاصمة دولته ، القسطنطينية وهم فى طريقهم الى الاراضى المقدسة ، أن يعملوا على التقارب الى حكام مصر الفاطمية وعقد معاهدة معهم ، على أساس أن الفاطميين كانوا من أشد الناس خصومة للاتراك السلاجقة ، ولا يقبلون مصالحتهم بسبب الاختلاف المذهبى بين الجانبين وما كان بينهم من خصومات سياسية وتنازع على النفوذ فى بلاد الشام • وهناك من المصادر الغربية ما يفيد أن الصليبيين استجابوا لنصيحة الامبراطور البيزنطى وأنهم ارسلوا وهم يمرون بآسيا الصغرى سفارة صليبية الى مصر • (٣) والمعلومات عن هذه السفارة ونتائجها الاولى موجزة غير واضحة • وعلى العموم فعقب وصول الفرنجة الى شمال الشام وأثناء مهاجمتهم لمدينة أنطاكية ، أرسلوا الى الامراء المسلمين فى حلب ودمشق يطمئنوهم على مصائرهم ويؤكدون أنهم لا يقصدون غير البلاد التى كانت حتى عهد قريب بيد الروم (البيزنطيين) وأنهم لا يطلبون سواها (٤) •

(٣) رنسيمان ج ١ ص ٣٢٦ •
(٤) ابن الاثير : الكامل ج ١٠ ص ٢٧٥ ، أحداث سنة ٤٩١هـ •

AUB LIBRARY

والاشارة هنا الى المنطقة الشمالية من بلاد الشام وخاصة مدينة أنطاكية ونواحيها التى كانت قاعدة للنفوذ البيزنطى فى شمال الشام منذ أن غزاها البيزنطيون سنة ٩٦٩م حتى سنة ١٠٨٤م ، لما خلصها منهم الاتراك السلاجقة •

أما الوزير الفاطمى الافضل ، الذى استأثر بالنفوذ فى مصر دون الخليفة ، كان يتولى تصريف الامور بها عند وصول الصليبيين الى الشرق ، فقد رأى أن يستغل الاوضاع التى استجدت فى الشرق عقب وصول الصليبيين وانشغال الاتراك فى مواجهتهم فى شمال الشام ، وأرسل جيشا تمكن من ارجاع بيت المقدس للحكم الفاطمى(٥) • كما أرسل الافضل سفارة الى معسكر الصليبيين المنصوب أمام أنطاكية • والمعلومات التى وصلتنا عن هذه السفارة غير مفصلة • والمرجح أن الافضل اقترح ، فيما يبدو ، اقتسام الممتلكات السلجوقية فى الشام ، فيستحوذ الفرنج على شمالها ، وتأخذ مصر الفاطمية أرض فلسطين • مع العلم بأن مثل هذا التقسيم كان موجودا من قبل أن يغزوا السلاجقة الشام ، حيث كان الجزء الشمالى منها تابعا للدولة البيزنطية والجزء الجنوبى تابعا لمصر •

ومكث سفراء الافضل فى المعسكر الصليبى بضعة أسابيع وعادوا بعدها الى بلادهم تصحبهم سفارة صغيرة من الافرنج ، وقد حملوا هدايا وفيرة • ولكن لا يوجد فى المصادر ما يدل على أن الطرفين الفاطمى والصليبى عقدا اتفاقية خاصة ، كما لا تذكر المصادر ما يشير الى أنهم التزموا بتدبير خاص ولا شك أن الصليبيين استفادوا من هذه المفاوضات التى حققوا أثناءها الاستيلاء على عدد من البلاد الاسلامية • وسرعان

(٥) ابن القلانسى ص ١٣٥

ما خابت آمال الوزير الافضل فى عقد اتفاق مع الصليبيين لما قام هؤلاء بمهاجمة بيت المقدس واستولوا عليها سنة ١٠٩٩م ومدوا نفوذهم الى فلسطين على عكس ما كان يأمله الفاطميون(٦) •

امارة دمشق واتصالاتها بالصليبيين والتحالف معهم :

ومن الامثلة الواضحة على أثر العوامل السياسية فى قيام الاتصالات الدبلوماسية ما نجده فى السياسة التى اتبعتها امارة دمشق والتقارب بينها وبين الفرنجة وذلك بسبب تخوفها من امارة حلب وحكامها • فان أمراء دمشق أصبحوا يخشون على كيانهم من أمراء حلب على أثر تزايد قوة الاخيرين وتوسيعهم لرقعة امارتهم وهم رافعين شعار الجهاد ضد الصليبيين ومنادين بضرورة قيام جبهة اسلامية متحدة • واضطلع بهذه المهمة فى بادى الامر عماد الدين زنكى ليتبعه ابنه الملك العادل نور الدين محمود • وقد اتضحت نوايا كل منهما لبسط نفوذه على امارة دمشق •

وعلى أثر تزايد هجمات عماد الدين زنكى على دمشق ، اتجه أميرها معين الدين أنر الى الملك الصليبى فولك أوف آنجو للاستعانة به ضد زنكى • وبعث أمير دمشق كسفير له لدى الصليبيين ، الامير العربى أسامة بن منقذ المعروف باتصالاته السلمية والدبلوماسية معهم ، لكى يتفاوض معهم ويتفق على عقد معاهدة • ووردت أخبار هذه الاتصالات فى أحداث سنة ٥٣٤هـ (١١٣٩ — ١١٤٠م) • وتذكر المصادر العربية أن أنر ، لكى يستحث الصليبيين على معاونته ، أبرز لهم خطر زنكى

(٦) رنسيمان ج ١ ص ٣٢٦

A U B LIBRARY.

وخوفهم منه ان هو ملك دمشق ، وأنه ان ملكها لا يبقى لهم معــه بالشام مقـــام[٧] .

وبذكر المؤرخ ابن القلانسى ما يفيد بأن دمشق عقدت تحالفا مع مملكة بيت المقدس الصليبية قائلا : « وكان قد تقرر الامر مع الافرنج على الاتفاق والاعتضاد والمؤازرة والاسعاد والامتزاج فى دفعه — زنكى — والاختلاط فى صــده عن مراده ومنعه ، ووقعت المعاهدة على ذلك بالايمــان المــؤكدة والضمان للوفاء بما بذلوه ، والتمسوا عنى ذلك مالا معينا يحمل اليهم ليكون عونا لهم على ما يحاولونه ، وقوة ورهانا تسكن بها نفوسهم ، وأجيبوا الى ذلك ، وحمل اليهم المــال والرهائن من أقاربه المقدمين ، وشرعوا فى التأهب للانجاد والاستعداد للمؤازرة والاسعاد ، وكاتب بعضهم بعضا بالبعث على الاجتماع من سائر المعاقل والبلاد على ابعاد أتابك وصده عن نيل الارب من دمشق والمراد قبل استفحال أمره واعضال خطبه وقوة شوكته واستظهاره على عصب الافرنج وقصد بلادهم »[٨] وقد ازداد التحالف بين أنر والملك الصليبى فولك قوة بعد زيارة الاول للبلاط الصليبى وبرفقته أسامةبن‌منقذ تلك الزيارة التى تمت فى اطار ودى تم فيه تبادل الهدايا . وبطبيعة الحال كان استقبال أنر بحفاوة وترحاب من قبل الصليبيين .

واستمرت سياسة أمير دمشق على هذا المنوال من التقارب والتحالف مع الصليبيين بعد موت زنكى وتولى ابنه الملك العادل مقاليد الحكم فى امارة حلب سنة ١١٤٦م . وظل أمير دمشق يخطب ود الصليبيين وهو مدفوع فى ذلك بتخوفه من نور الدين . وفضل أنر بعد فشل الحملة الصليبية الثــانية

(٧) ابن الاثير : الكامل ، ج ١١ ص ٧٣ — ص ٧٤ .
(٨) ابن القلانسى ص ٢٧٢ .

التى استهدفت دمشق ، أن يعقد معاهدة مع الملك الصليبى فى مايو ١١٤٩م تستمر لمــدة سنتين . وعندما مات أنر بعد ذلك بفترة قصيرة (أغسطس ١١٤٩م) تولى مقاليد الحكم فى دمشق مجير الدين بورى ، وهــو حفيــد طغتكين ، واستمر يحكمها حتى سنة ١١٥٤م . وأثناء حكمه اتضح ضــعفه وعدم كفاءته وعدم قــدرته على ادارة شئون امارته التى تعــرضت كذلك لضغوط سياسية من جانب نور الدين من الشمال ومن قبــل الصليبيين من الجنوب . وفضل مجير الدين اتخاذ جانب الصــليبيين والاســتعانة بهم للوقوف ضد نور الدين . ويذكر ابن القلانسى فى أحداث ٥٤٤هـ (١١٤٩ — ١١٥٠م) مشيرا الى المسئولين عن امارة دمشق : « ... وقد كانوا عاهدوا الافرنج أن يكونوا يدا واحدة على من يقصدهم من عساكر المسلمين .. »[٩] وأصبح مجير الدين على استعداد لبذل مزيد من التنازلات فى اتفاقه مــع الفرنجة لدرجة أصبحت امارة دمشق معهــا أشبه ما تكون تحت النفــوذ والحماية الصليبية ، وصار الدماشقة يدفعون ضريبة سنوية مقابل حمــاية الصليبيين لهم ضد أمير حلب ، كما أصبح رسل الصليبيين وعمالهم يدخلون دمشق لجمع الضرائب التى فرضوها على أهلها من المسلمين .

وقد أعرب الملك العادل نور الدين ، أمير حلب ، عن استيائه وغضبه على موقف مجير الدين ومستشاريه فى الرسالة التى بعث بها اليهم ، عندما تقدم بجيشه نحو دمشق ، قائلا فيها : « ... اننى ما قصدت بنزولى هذا المنزل طالبا لمحاربتكم ولا منازلتكم ، وانما دعانى الى هذا الامر كثرة شكاية المسلمين من أهل حوران والعربان ، بأن الفــلاحين أخذت أموالهم وشتت نساؤهم وأطفالهم بيد الافرنج ، وعدم الناصر لهم ، لا يسعنى مع ما أعطانى

(٩) المصدر السابق ص ٣٠٨ .

A U B LIBRARY.

الله ، وله الحمد ، من الاقتدار على نصرة المسلمين وجهاد المشركين وكثرة المال والرجال ، ولا يحل لى القعود عنهم والانتصار لهم ، مع معرفتى بعجزكم عن حفظ أعمالكم والذب عنها ، والتقصير الذى دعاكم الى الاستصراخ بالافرنج على محاربتى ، وبذلكم لهم أموال الضعفاء والمساكين من الرعية ، ظلما لهم وتعديا عليهم ، وهذا مالا يرضى الله تعالى ولا أحد من المسلمين • ولابد من المعونة بألف فارس تزاح العلة تجرد مع من توثق بشجاعته من المقدمين لتخليص ثغر عسقلان وغيره ••• »[١٠] •

ولكن بالرغم من انتقاده الشديد السابق لامير دمشق وموقفه مع الصليبيين فى مهادنتهم ودفع الجزية لهم،فان نور الدين بعد نجاحه فى ضم أمارة دمشق الى دولته ، قد أبقى على سياسة المهادنة مع الصليبيين ودفع الجزية لهم ، فيتحدث ابن القلانسى عن اتفاقية أو موادعة عقدها نور الدين مع الملك الصليبى فى شوال سنة ٥٥١هـ (نوفمبر ١١٥٦م) وكانت لمدة سنة وقال المؤرخ المذكور فى ذلك : « ان المقاطعة المحمولة اليهم من دمشق ثمانية آلاف دينار صورية ، وكتبت المواصفة بذلك بعد تأكيدها بالامان والمواثيق المشددة »[١١] ولابد أن مثل هـذا الموقف من جانب نور الدين كانت له مقتضياته التى تطلبت منه عمل ذلك •

الوزير الفاطمى شاور وعلاقاته بالمملكة الصليبية :

على أثر تطور الاحداث فى كل من بلاد الشام والديار المصرية ، سعى كل من الملك العادل نور الدين والملك الصليبى عمورى لامتلاك مصر وتسابقا على ذلك الامر الذى رافقه نشاط واتصالات دبلوماسية ملحوظة بين المسئولين عن مصر والصليبيين •

(١٠) المصدر السابق ص ٣٠٩

(١١) المصدر السابق ص ٣٣٦ •

فان نور الدين بعد نجاحه فى ضم امارة دمشق والتوحيد بينها وبين امارة حلب تحت حكمه ، وبعد أن تزايد نفوذه على أتباعه وحلفائه من أمراء بلاد الجزيرة ، أصبحت تحت امرته امكانيات عسكرية كبيرة نسبيا كما أصبح فى وضع يمكنه من التفكير فى مصر وضمها الى دولته حتى يتحقق له تطويق المملكة الصليبية برا •

وفى نفس الاونة جلس عمورى على عرش المملكة اللاتينية ، وكان شابا طموحا متطلعا للقيام بعمليات عسكرية وسياسية كبيرة يدعم بها مركز دولته • وقد تطلع هو بدوره للاستيلاء على مصر • وهكذا كان من الطبيعى أن يمتد الصراع بين نورالدين والفرنجة من البلاد الشامية الى الديار المصرية ، هذا الصراع الذى تسابق فيه الطرفان للاستيلاء عليها •

والواقع أن مصر وأحوالها الاقتصادية كانت مصدر اغراء لكل من نور الدين وعمورى وشجعتهما كذلك أحوالها السياسية على التدخل فى شئونها • فمصر كانت معروفة بوفرة مواردها الاقتصادية وقد اشتهرت بمحاصيلها الزراعية ونشاط حركة التجارة بها وبالذات تجارة «الترانزيت» العالمية • وتبين كل من المسلمين والفرنجة المزايا الاقتصادية التى يحصل عليها من يؤول اليه حكم مصر • فالمسلمون نظروا اليها على أنها «حلوبة بيت المال»[١٢] وتتضح معرفة الفرنجة الجيدة بخبراتها فيما كتبه عنها المؤرخ وليام الصورى فى تاريخه[١٣] وهكذا فنتيجة لتلك الثروات التى تمتعت بها مصر ازداد طمع جيرانها الشماليين فى امتلاكها •

وقد شجعتهم على ذلك كذلك تلك المرحلة من الضعف والاضمحلال السياسى التى كانت مصر تمر بها وهى المرحلة التى يشار اليها بعهد «الوزراء

(١٢) جاء فى وصف مصر أنها : « هى معظم دار الاسلام وحلوبة بيت مالهم » أنظر أبو شامة : الروضتين ج ١ ص ١٧٢ •

(١٣) أنظـــر : Willia of TyreII, p336

A U B LIBRARY.

العظام » التى أنعمس فيها الخلفاء الفاطميون فى حياة الترف والاسراف فى الملذات ، وأصبحت السلطة الحقيقية فى أيدى الوزراء • وكان يجلس على العرش حينئذ الخليفة الفاطمى العاضد الذى كان صبيا لاحوله ولاقوة، مما أفسح المجال للتصارع الداخلى بين الامراء على من تكون له السلطة ، ذلك التصارع الذى تبلور حول شخصيتين أساسيتين ألا وهما الوزير شاور وضرغام بن عامر والى الصعيد ، اللذان اتجها الى نور الدين وعمورى طالبين المساعدة منهما • وكان من الطبيعى اذن ان تنشط المراسلات والاتصالات الدبلوماسية والمفاوضات بين شاور وضرغام من ناحية ونور الدين وعمورى من ناحية أخرى على النحو الذى سوف نوضحه فيما يلى •

بعد أن طرد ضرغام شاور من الوزارة استنجد الاخير بنور الدين ، فما كان من ضرغام الا أن اتجه الى الملك الصليبى مستنجدا به وعرض عليه عقد معاهدة وحلف بينهما ليقدم عمورى له العون ضد أعدائه مقابل دفع جزية سنوية تزيد على الجزية التى وافقت مصر على دفعها للملك الصليبى السابق بولدين الثالث • كما أعلن ضرغام عن استعداده لتقديم الرهائن كضمان لاستمرار التزامه بالمعاهدة التى وافق على أن تكون معاهدة دائمة غير محدودة بزمن (١٤) •

على أية حال ، فان شاور بعد أن نجح ، بفضل مساعدة نور الدين له ، فى القضاء على ضرغام والتخلص منه فى أغسطس ١١٦٤م ، ما لبث أن تنكر له • وما كان من نور الدين الا أن أرسل الى مصر أحد أمرائه وقواده المرموقين وهو شيركوه على رأس جيش للقضاء على الوزير شاور • وأمام ذلك لجأ الاخير الى الصليبيين ودخل فى مفاوضات معهم لطلب مساعدتهم

---

(١٤) المصدر السابق ج ٢ ص ٣٠٤ •

ضد نور الدين • وتذكر المصادر العربية أن شاور أرسل الى الفرنج يستميلهم ويخوفهم من نور الدين أن هو ملك مصر • وأن الفرنج أيقنوا بالهلاك ان ملكها نور الدين وأنهم فزعوا لتلك الفكرة • كما تصور هذه المصادر ترحيب الفرنج بطلب شاور لما أرسل اليهم يستنجدهم ويطلب اليهم أن يساعدوه على اخراج شركوه من مصر ، فى العبارة التالية : « جاءهم فرج لم يحتسبوه وسارعوا فى تلبية دعوته والمبادرة التى نصرته ، وطمعوا فى ملك مصر • وكان قد بذل لهم مالا على المسير اليه ، فجهزوا وساروا » • (١٥)

ويأتى المؤرخ الصليبى وليام الصورى بمزيد من التفاصيل لتلك الاتصالات الدبلوماسية • فيقول أن شاور قدر أن الوسيلة الوحيدة للحصول على مساعدة عمورى كانت بعرض دفع جزية للصليبيين تزيد على ماتم لهم الاتفاق عليه مع سلفه ، وكذلك بأن يدفع قدرا مناسبا من المال لتغطية نفقات حملة الملك وباروناته الذين يحضرون معه الى مصر لانجدة شاور • ويضيف وليام أن هذه العروض من جانب شاور نالت استحسان الصليبيين الذين الذين وافقوا على التعاهد والتحالف معه على أساس تجديد الاتفاقيات السابقة بين حكام مصر والفرنجة ، وعقد معاهدة سلام دائمة يصدق عليها الملك الصليبى ويباركها الخليفة العاضد • كما يضيف وليام أن بعد ادراج رغبات كل من الجانبين فى المعاهدة ، وافق شاور على دفع مبلغ أربعمائة الف دينارا للملك الصليبى ، وتعهد الاخير بالا يغادر مصر الا بعد القضاء نهائيا على جيش شيركوه أو بعد انسحابه من البلاد انسحابا كاملا (١٦) •

---

(١٥) أبو شامه : الروضتين ج ١ ص ١٣١ ، ابن الاثير : الكامل ج ١١ ص ٢٢٩ حوادث سنة ٥٥٩ هـ •

(١٦) أنظر :
William of Tyre : Vol II. pp 318 -19,

A U B LIBRARY.

وأن ذكرناه عن سارو ، انما يوضح لنا حاة من الحالات التى تؤثر فيها العوامل السياسية فى دفع بعض الحكام المسلمين للدخول فى علاقات دبلوماسية مع الفرنجة ٠

السلطان صلاح الدين الايوبى ودبلوماسيته مع الفرنجة :

يتبوأ صلاح الدين مكانة خاصة فى التاريخ للدور الذى قام به فى بناء الوحدة الاسلامية والجهاد ضد الصليبيين الذين أحرز ضدهم عدة انتصارات حاسمة كان من أبرزها انتصاره عليهم فى موقعة حطين التى أعقبها باسترجاع مدينة بيت المقدس منهم ٠ الا أن جهود صلاح الدين فى هذا المجال كمجاهد ومحارب يجب ألا تحجب عنا جهوده واتصالاته الدبلوماسية مع الصليبيين وقد جاءت هذه هذه نتيجة لعوامل أساسية منها العوامل السياسية التى تطلب منه عمل ذلك وتتلخص هذه العوامل فى الاحوال السياسية الداخلية فى الدولة التى ورثها عن نور الدين وفى ما صادفه من مشاكل مع الامراء المسلمين ٠

حقيقة أن نور الدين وضع الاساس للوحدة الاسلامية ورفع راية الجهاد ضد الصليبيين ، ممهدا السبيل لمن يخلفه ليواصل المسيرة ٠ الا أن هذه المهمة لم تكن بالبساطة التى تبدو بها للوهلة الاولى ، وقد واجه صلاح الدين ، الذى أراد أن يتابع الطريق الذى بدأه نور الدين ، مجموعة من المشاكل السياسية من الجانب الاسلامى ٠ ذلك أن الدولة الكبرى التى أجهد نور الدين نفسه فى اقامتها حتى أصبحت تشمل عددا من البلاد الشامية والديار المصرية وأجزاء من اقليم الجزيرة بالعراق ، قد تعرضت للتمزق والانهيار عند وفاته فى شوال ٥٦٩هـ (١٥ مايو ١١٧٤م) ٠ اذا قامت مشكلة تقسيم دولته بين أفراد البيت الزنكى والامراء العاملين فى خدمته ٠ ومن الامراء الزنكيين كان هناك الصالح اسماعيل بن نور الدين الذى لم يتجاوز

الحادية عشرة من عمره عند وفاة أبيه ، وكذلك سيف الدين غازى الثانى ، أتابك الموصل الذى أسعده خبر وفاة عمه نور الدين ، وعمد للخروج بحكم بعض البلاد التى كانت تابعة لنور الدين فى اقليم الجزيرة ٠ كما نشأ صراع بين اثنين من أقوى أمراء نور الدين وهما شمس الدين على بن الداية، والامير شمس الدين محمد بن عبد الملك المعروف بابن المقدم ، وكان كل منهما يسعى لكى تؤول اليه الوصاية على الملك الصالح ابن نور الدين وأن يستأثر بتدبير الدولة ٠ فاحتل ابن الداية حلب بوصفها مركز الدولة النورية، فى حين تحفظ ابن المقدم على شخص الملك الصالح اسماعيل فى دمشق [١٧] ٠ أما صلاح الدين فكان يعمل حينئذ كنائب للاسرة النورية الزنكية فى ادارة شئون مصر ٠

وهكذا كان على صلاح الدين أن يبذل جهودا مضنية للحفاظ على وحدة دولة نور الدين ، والحيلولة دون تمزقها وانحلالها ٠ وتطلب انجاز ذلك سنوات عديدة امضاها فى جمع كلمة المسلمين ٠ وكان من الطبيعى فى هذه السنوات الاولى من حكمه أن يضطر لمهادنة الصليبيين حتى يستطيع التفرغ لانقاذ الوحدة الاسلامية ٠ ولا عجب اذن فى هذه المرحلة أن يتكرر اتصاله بالصليبيين ويدخل معهم فى مفاوضات ويعقد معهم عددا من الهدن أو المعاهدات منها هدنة سنة ٥٧٦هـ / ١١٨٠م ، وهدنته مع بوهيموند امير أنطاكية سنة ١١٨٣م ، وهدنته مع ريموند أمير طرابلس سنة ٥٨٠هـ / ١١٨٤م [١٨] ٠

ولم تقتصر الدوافع السياسية التى جعلت صلاح الدين يدخل فى فى علاقات دبلوماسية مع الصليبيين على السنوات الاولى من حكمه ، بل

(١٧) ابن الاثير الكامل ج ١١ ص ٤٠٥ حوادث سنة ٥٦٩ هـ ٠

(١٨) المصدر السابق ج ١١ ص ٤٦٤ ٠

AUB LIBRARY

امتدت الى الفترة التالية كذلك ، فانه كان من المتعذر عليه الاستمرار فى القتال ضدهم دون توقف لما يتطلبه ذلك من نفقات باهظة ، وكذلك لما يصيب قواته المحاربة من عناء واجهاد (١٩) . وفضلا عن ذلك كان الامراء المسلمون يخشون أن السلطان فى حالة التخلص من الصليبيين والقضاء على خطرهم ، سوف يتجه للحد من نفوذ هؤلاء الامراء . ولا عجب اذن أن صلاح الدين ، فى هذه المرحلة ، ان يضطر لاقامة علاقات دبلوماسية مع عناصر مختلفة من الفرنجة ، سواء أولئك الذين استوطنوا البلاد الشامية ، أو أولئك الذين جاءوا مع الحملة الصليبية الثالثة وبالذات مع ريتشارد قلب الاسد أثناء وجوده فى الشام (٢٠) .

الأيوبيون والدبلوماسية بعد صلاح الدين :

وغرضنا فى هذا الموضع هو أن نبين كيف أن الاحوال السياسية فى الدولة الايوبية ، بعد موت السلطان صلاح الدين ، أسهمت فى قيام العلاقات الدبلوماسية بين المسلمين والفرنجة . ولتفسير ذلك تجب الاشارة الى أن الدولة الكبرى التى أقامها هذا السلطان ، والتى امتدت من نهر دجلة الى نهر النيل لم يكتب لها أن تظل موحدة متماسكة بعد وفاته ، وذلك لما تعرضت له من تصارع داخلى بين أمراء البيت الايوبى ، وقد تركز هذا التصارع الى حد كبير على سلطنة مصر بالرغم من تعدد الولايات والاقاليم التى تكونت منها دولتهم ، اذ ان مصر كانت تعتبر مركز الثقل فى العالم الاسلامى ومقر

---

(١٩) عماد الدين الكاتب : الفتح القسى ص ١٢٩ ، ابن الاثير الكامل حوادث سنة ٥٨٤ هـ .

(٢٠) بشأن تلك الاتصالات الدبلوماسية ارجع الى بهاء الدين ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٨٢ ، ص ١٩٣ وما بعدها ، العماد الاصفهانى : الفتح القسى ص ٥٤٢ ، ص ٥٥٥ ، ص ٥٦١ ، المقريزى : السلوك ج ١ ص ١١٠ — هذا وسوف نعرض بالتفصيل دبلوماسية صلاح الدين فى فصول تالية عندما نتناول موضوعى المراسلات الدبلوماسية والمفاوضات :

السلطنة وأدت الخلافات الداخلية التى قامت بين الايوبيين الى اضعاف قوتهم فى مواجهتهم للصليبيين ولا عجب اذن أن تتجدد حاجتهم لاقامة علاقات دبلوماسية مع الصليبيين . ويمكننا أن نجد صورا واضحة لاثر تلك الاوضاع ، التى عانت منها الدولة الايوبية ، على سياستها نحو الصليبيين فى عهد كل من السلطان الملك العادل (ت ٦١٥ هـ / ١٢١٨م) والسلطان الملك الكامل (ت ٦٣٥هـ / ١٢٣٧ م) .

فعند وفاة صلاح الدين قسمت دولته بين أبنائه الذين لم يتوفر لاحد منهم ، على ما يبدو ، ما كان للسلطان الراحل من عبقرية ومهارة . وقد خلفه ابنه الافضل فى دمشق وابنه العزيز فى القاهرة وابنه الظاهر فى حلب ، أما أخوه الملك العادل ، سيف الدين ، الذى كان موضع ثقة صلاح الدين ، فقد خلفه على الكرك والشوبك . ولما نشبت حرب الوراثة بين أبناء البيت الايوبى ، قام الملك العادل ليعمل على توحيد الدولة الايوبية ، وشغلته هذه المهمة الصعبة . ولذا فقد حاول بصفة عامة أن يبقى على العلاقات السلمية مع الصليبيين . ومن الشواهد على ذلك كان الصلح الذى عقده معهم فى أول يوليو ١١٩٨م والذى كان على أساس القواعد التى التى اتبعت فى المعاهدة المعروفة بصلح الرملة (١١٩٢م) والتى سبق أن عقدها السلطان صلاح الدين مع رتشارد قلب الاسد (٢١) .

وبالنسبة للسلطان الكامل ، فالمعروف أن الملك العادل عند موته وجريا على عادة الايوبيين ، قسم دولته بين أبنائه ليخلفه عند موته السلطان الكامل فى مصر ، والمعظم فى الشام (دمشق) والاشرف فى اقليم الجزيرة . وكان هذا التقسيم من أسباب قيام الانشقاق والتصارع بين هؤلاء الامراء . واشتعلت الحرب بين الكامل وأخيه المعظم الذى كان دائم الحقد على أخيه

---

(٢١) المقريزى : السلوك أحداث سنة ٥٩٤هـ ج ١ ص ١٤١ .

AUB LIBRARY

وقد تفاقم الموقف بالنسبة للكامل لما استعان المعظم بخوارزم شاه الذى كان يحكم دولة كبرى تمتد من السند الى دجلة ، وقد خضعت له الخلافة العباسية فى بغداد وأصبحت أملاكه تجاور ممتلكات الايوبيين • وفضلا عن ذلك فقد تحالف المعظم مع الاشرف ضد الكامل •

والى جانب تلك الاخطار التى باتت تتهدد الكامل من جانب الحكام المسلمين بدأ يظهر له خطرجديد لما وردت الانباءعن عزم الامبراطور فردريك الثانى على التوجه الى الشرق على رأس حملة صليبية • وفريدريك هذا هو ابن للامبراطور الالمانى هنرى السادس من أم نصف ايطالية ، وقد نشأ فى صقلية النورمانية حيث تجمعت مقومات الحضارات العربية والبيزنطية واللاتينية ، وساعدت البيئة التى نشأ فيها على تكوين شخصيته بشكل متفتح ، حتى أنها تعتبر من أبرز الشخصيات التاريخية مما أدى الى أن يطلق عليه المؤرخون لقب « أعجوبة الدنيا » Stupor Mundi وكان فريدريك قد أقسم للبابا يمينا مقدسا سنة ١٢٢٥م على أنه سيقوم بحملة صليبية ، كما أن هذا الامبراطور تزوج من يولندا ملكة بيت المقدس ، وهكذا وأصبح من المتوقع قدومة الى الشرق •

وأمام هذه الاخطار التى باتت تتهدد الكامل من داخل العالم الاسلامى وخارجه ، أرتأى أن يواجهها بالدخول فى مفاوضات مع فريدريك الثانى لتجنب الاصطدام به ومحاوله كسبه الى جانبه • وبناء على ذلك أرسل الكامل سنة ١٢٢٦م سفارة للتفاوض مع الامبراطور فى صقلية وكان على رأسها الامير فخر الدين • وهناك روايات تقول بأن الكامل طلب من الامبراطور الحضور الى الشام وأنه سيقدم له جميع ما بيد المسلمين من بلاد الساحل بما فى ذلك مافتحه صلاح الدين فى تلك الانحاء (٢٢) وكانت

(٢٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٢٢١ — ص ٢٢٢

A U B LIBRARY

تلك السفارة بداية للمفاوضات التى استمرت بين الجانبين فترة من الزمان فقد أرسل فريدريك الثانى الى القاهرة سفيرا من قبله هو توماس أكيرا ومعه أسقف بلرمو مصحوبا بهدايا ورسائل الى السلطان •(٢٣) وعلى أثر وصول الامبراطور الى الشرق تم عقد معاهدة بينه وبين الكامل فى ١٨ فبراير ١٢٢٩م — سنة ٦٢٦هـ تلك المعاهدة التى قابلها العديد من المسلمين والصليبيين بالاستنكار والنقد بسبب المواد التى احتوت عليها • فقد وافق الكامل على تسليم بيت المقدس وبيت لحم للصليبيين مع شريط من الارض يمتد من لد وينتهى عند يافا على البحر ، فضلا عن الناصرة وغرب الجليل ، على أن يظل فى أيدى المسلمين من بيت المقدس منطقة الحرم بما احتوته من الصخرة والمسجد الاقصى (٢٤) •

المماليك والدبلوماسية : (٦٤٨ — ٩٣٣هـ / ١٢٥٠ — ١٥١٧م) :

كان للعصر المملوكى كذلك مشاكله السياسية الداخلية والخارجية التى جعلت سلاطين المماليك فى كثير من الاحيان يدخلون فى علاقات دبلوماسية مع الصليبيين • ويمكن القول أن هذه المشاكل كانت الى حد كبير امتدادا للاوضاع التى وجدت فى العهد الايوبى من حيث طبيعة النظام الاقطاعى الذى قامت على أساسه الدولة الاسلامية والنزعات الفردية

(٢٣) لتتبع سير المفاوضات بين الطرفين ارجع الى رنسيمان ج ٣ ص ٣٢٧ — ص ٣٣٠ ، التاريخ المنصورى : تلخيص الكشف والبيان فى حوادث الزمان ص ٣٧٠ — ص ٣٧١ تأليف أبى الفضائل محمد بن على الحموى — (حوادث سنة ٦٢٤هـ ص ٣٧٠ — ص ٣٧١) •

(٢٤) رنسيمان ج ٣ ص ٣٣١ ، المقريزى : السلوك ج ١ ص ٢٣ • وقد ورد نص حرفى للمعاهدة فى :
Historia Diplomatica Friderici Secundi, Vol III, pp 86-87.

للامراء ورغبتهم فى الاستقلال عن سلطة السلاطين مما أدى الى تجدد الفرقة والنزاع فى دولة المماليك وفضلا عن ذلك فقد واجهت المماليك مشـــاكل خارجية لها خطورتها كان أبرزها الخطر التتارى • وعلى أية حال فالمصادر التاريخية تشير الى اضطرار المماليك للدخول فى العلاقات الدبلوماسية مع الصليبيين التى أسفرت عن عقد العديد من المعاهدات بين الجانبين •

AUB LIBRARY

الفصـــل الثـــالث

الاوضاع السياسية للامارات الصـليبية التى دفعتهـا للدبلوماسية

الفصـــل الثـــالث

الاوضاع السياسية للاءارات الصـليبية التى دفعتهـا للدبلوماسية

هناك مجموعة من الظواهر والشواهد التى توحى للباحث ، للوهلة الاولى ، بقوة الامارات الصليبية فى الشرق ومقدرتها على البطش بالمسلمين وعدم حاجتها للالتجاء لاستعمال الدبلوماسية والدخول فى علاقات سلمية معهم • فالحملة الصليبية الاولى تميزت بضخامة أعداد من شاركوا فيها من المحاربين المتحمسين ومن جاء برفقتهم من الغرب • كما توالت فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين حملات صليبية أخرى تميز بعضها بالضخامة وكثرة المعدات والاسلحة مثل الحملة الصليبية الثانية والثالثة وغيرها من الحملات ، مما يحمل البعض على المبالغة فى قوة الصليبيين فى الشـــام •

الا أن الدراسة التحليلية الدقيقة لهذه الامارات واحوالها السياسية، تبين صورة تختلف اختلافا كبيرا عن هذا الانطباع الاول فقد عاشت فى ظروف حدت من قوتها وامكانياتها سواء أكان ذلك من حيث الرقعة الجغرافيه التى احتلتها وقامت عليها ، أو القوة العددية للعناصر الصليبية التى أستقرت فى الشرق ، أو النظم السياسية التى عاشت فى ظلها أو علاقاتها مع الغرب الاوربى ومدى اعتمادها عليه للحصول على الامدادات والمساعدات • كل هذه العوامل التى كثيرا ما حدت من قوة الصليبيين وجعلتهم فى حاجة للدخول فى علاقات دبلوماسية مع المسلمين • ونعرض فيما يلى تلك الاوضاع بشىء من التفصـــيل •

طبيعة الرقعة الجغرافية الخاضعة للصليبيين :

وبالنسبة للبلاد التى احتلتها الامارات الصـليبية فى الشام ، فكانت

AUB LIBRARY

فى معظمها أشبه بشريط ساحلى ضيق قامت به امارات بيت المقدس والرها وأنطاكية وطرابلس • وقد قامت هذه الامارات أمام متسع من البـــلاد الاسـلامية التى أحاطت بها والتى كانت لها أعمـاقها البعيـدة المدى ، وظلت محـافظة على استقلالهـا أمام الصـليبيين ، وذلك مثـل امارات حلب وحماه وبعلبك ودمشق فضلا عن مصر•ولم تكن المدن التابعة للصليبيين تبعد عن المراكز الاسلامية المستقلة أكثر من مسيرة يوم واحد • وكان من الطبيعى أن يفرض هذا الجوار المباشر والحدود المشتركة ، وطبيعة الرقعة الجغرافية المحدودة للمملكة الصليبية وسط هذا المحيط الاسـلامى ، قيام اتصالات عديدة بين الجانبين • واذا كانت بعض هذه الاتصالات فى مجال القتال ، فقد كان البعض الاخر فى مجال العلاقات السلمية التى تطلبت اتصالات دبلوماسية من أجل وضع تنظيمات لهذه العلاقات •

الصليبيون وقلتهم العددية فى الشرق :

هذا وكان الصليبيون الذين استقروا فى الشرق وأقاموا به أقليـة اذا ما قورنوا بالكثافة السكانية للمسلمين الذين احاطوا بهم • وتفسير ذلك أن كثيرين من المشتركين فى الحملة الصليبية الاولى ، وغيرها مـن الحملات ، بعد أن تحقق الاستيلاء على القدس وبعد محاربتهم للمسلمين شعورا بأنهم أوفوا بتعهداتهم للكنيسة وأدوا واجبهم نحوها ، فعادوا أدراجهم الى أوطانهم ، ولم تبق منهم فى البلاد الشامية الا نسبة محدودة

وفضلا عن عن القلة النسبية فى عدد الصليبيين فى الشرق ، فلم تكن أماراتهم مقصورة عليهم أومتجانسة فى عناصرها السكانية • فقد وجدت بها أخلاط بشرية وعناصر مختلفة • فالى جانب الصليبيين الغربيين ، وجدت عناصر من المسلمين والمسيحيين الشرقيين وكذلك من الارمن واليهود • وبالرغم من صعوبة عمل احصائية دقيقة عن نسب العناصر الفرنجيـــة

والعناصر الاخرى فى الامارات ، فالظواهر تشير الى أن الفرنجة لم يكونوا يمثلون أغلبية بهـــا •

وبالنسبة للمسلمين فى الامارات التى خضعت للفرنجة ، وان كانت أعداد كبيرة منهم قد غادرتها عقب قيام الحكم الفرنجى ، فهناك شواهد واضحة تدل على استمرار وجود المسلمين بأعداد كبيرة بها • وعلى سبيل المثال استمرت القرى المحيطة بمدينة نابلس تحظى ببقاء أعداد كبيرة منهم ، كما استمر وجودهم على امتداد الطريق من بانياس الى عكا حيث كان الفلاحون فى معظمهم من المسلمين • وفى أقصى الشمال فى البقيعة وفى جبال النصيرية ووادى الاورنت ، وجدت عناصر اسلامية من مذاهب مختلفة كما وجدت قبائل عربية بدوية على امتداد الطرف الجنوبى للمملكة وفيمـا وراء الاردن (١) •

وهناك كذلك العناصر المسيحية من أهل الشام ، ولم تكن تنتمى الى مذهب واحد أو جنس واحد ولو أن معظمها كانت تتحدث العربية • والكثير منها كان ينتمى للكنيسة الارثوذكسية ووجدوا فى مملكة بيت المقدس • اما كونتية طرابلس فبرز فيها المسيحيون الشرقيون المعروفون بالمـارونيين الذين يدينون بالمذهب المونوثيليتى (مذهب المشيئة الواحدة للسيد المسيح الذى اعتنقوه) • على أن معظم المسيحيين الشرقيين فى الشمال كـانوا يعتنقون المونوفيزية أو مذهب الطبيعة الواحدة • وقد وجدت فى الجهات الشمالية جاليات أرمينية كثير العدد (٢) •

---

(١) انظـــر :
Cahen : La Syrie bu Nord, pp 170 ff
وانظر كذلك رنسيمان ج ٢ ، ص ٤٧٣ •

(٢) عن تنوع السكان واختلاف عناصرهم فى الامارات الصليبية ، انظر رنسيمان ج ٢ ص ٤٧٢ — ص ٤٧٣ •

A U B LIBRARY.

ومهما يكن من أمر ، فان الافتقار الى وحدة بين العناصر السكانية والاختلاف العقائدى بها ، كثيرا ما حد من القوة السياسية والعسكرية للامارات الصليبية فى مواجهتها للمسلمين مما كان يدفعها لالتماس الطريق والحلول عن طريق الدبلوماسية .

النظم السياسية للمملكة الصليبية :

ولم تكن النظم السياسية التى عاش الصليبيون فى ظلها بأعدادهم المحدودة بالتى تكسبهم قوة تؤكد لهم رجحان كفتهم على المسلمين بشكل ثابت ، بل أنها على العكس من ذلك ، كثيرا ما كانت تتسبب فى تمزيق صفوف الصليبيين . حقيقة أن الامارات الصليبية ترأستها ملكية ، الا أن هذه الملكية لم تتمتع بسلطة مركزية قوية ، بل كانت ملكية اقطاعية تحد من سلطتها عدة هيئات ونظم داخلية ، منها الكنيسة بمالها من امتيازات وحقوق ، والجماعات الرهبانية المحاربة مثل الداوية Templars والاسبتارية Hospitaliers ، وكذلك ما حصلت عليه قومونات Communes المدن التجارية الايطالية والبروفنسالية من امتيازات فى مدن المملكة الصليبية بالشام .

ومن الطبيعى أن يكون النظام السياسى الذى يقيمه الصليبيون فى الشرق نظاما اقطاعيا وذلك على نمط النظم التى عرفوها وعاشوا فى ظلها فى غرب أوربا ، وكانت نظما اقطاعية وقد حملوا معهم هذه النظم عند مجيئهم الى الشرق . ولم تكن بالتى تمد الملكية بسلطات قوية . فالملك وفقا للعرف السائد فى النظام الاقطاعى انما كان « الاول بين أقرانه » primus inter pares . كما أن الظروف التى أنشئت فيها الممتلكات الصليبية أدت الى مزيد من الحد من سلطة الملكية ولتوضيح ذلك يكفى أن نستشهد بما ذكره أحد شراع القانون فى المملكة الصليبية عندما جاء المارشال ريتشارد

فيلانجيرى Riehard Filangieri مندوبا عن الامبراطور فريدريك الثانى الى الشرق سنة ١٢٣١ م على رأس جيش ليفرض السلطة الملكية على النبلاء الصليبيين .. فقد اجتمع نبلاء بيت المقدس معترضين على مطالب ريتشار وادعاءاته من أجل الامبراطور ، وتحدث عن النبلاء باليان أمير صيدا قائلا : « ان المملكة الصليبية لم تنشأ مثل الممالك الاخر نتيجة لغزو يقوم به أمير ذو سلطة عليا ينظر اليه الناس على أساس كونه السيد الاعلى صاحب السيادة على المملكة ،وانما قامت هذه المملكة بفضل جهود جيش من الحجاج الذين اجتمعوا من كافة البلاد المسيحية وحققوا هدفهم بفضل رعاية الرب . وان أول ملك للبلاد انما تولى منصبة عن طريق الانتخاب » (٣) .

كما يتحدث المؤرخ الفرنجى ريموند الصنجيلى عن الظروف التى وضع فيها الصليبيون الاساس لقيام اماراتهم ابان الحملة الصليبية الاولى ، فيقول أنه جرت العادة على أن أول من يدخل من الامراء قلعة من القلاع أو مدينة من المدن ويرفع علمه فوقها ، تكون من نصيبه ويحق له الاستحواذ عليها . وكان فى هذه الظروف أن ظهرت طبقة الامراء الحاكمة فى الاراضى المقدسة . وهكذا فلم يكن قيام دولة الصليبيين على أساس أن ملكا من الملوك تولى بنفسه مهمة فتح البلاد ثم يقوم بعد ذلك بتوزيع أراضيها كاقطاعات على نبلائه . وهكذا فبسبب هذه الظروف التى أحاطت بقيام الامارات الصليبية ، جاء الضعف النسبى فى النظام الملكى الاقطاعى فى الدولة الصليبية ، واستمر الوضع على هذا النحو حتى بعد أن تحولت الملكية هناك من انتخابية الى ملكية وراثية . وظلت الممتلكات الصليبية

---

(٣) انظر :
La Monte : Feudal Monarchy, p.3

AUB LIBRARY

تتكون من أربع وحدات رئيسية متميزة هى : كونيات أنطاكية والرهـا وطرابلس وبيت المقدس • وكان مصطلح مملكة بيت المقدس يطـلق على الامارة الجنوبية كما كان يطلق على مجموع الممتلكات الصليبية بصـفة عـــامة (٤) •

والباحث فى نظم الممتلكات الصليبية فى الشام لابد وأن يلاحظ أنه بالرغم من كفاءة ونشاط بعض ملوكها مثل بولدوين الاول وبولدوين الثانى وعمورى ، فان ثروة المملكة ومواردها المادية والبشرية لم تكن مركزه فى يد الملك ، مما ترتب عليه الحد من سلطته بداخل دولته الامر الذى تسبب له فى صعوبات كبيرة عند مواجهته للمسلمين خاصة بعد أن قامت الصحوة الاسلامية • وسنتناول فيما يلى أهم الهيئات والنظم الداخلية فى المملكة الصليبيـــــة •

الكنيســـــة :

كان للكنيسة مكانة خاصة ذات أهمية فى المجتمع الفرنجى الذى قام لتحقيق الرسالة التى أمرت بها البابوية التى كان لها الهيمنة على الحركة الصليبية وخاصة فى مراحلها الاولى • وقد استحوذت الكنيسة فى فلسطين على ثروات ضخمة من الاراضى والاقطاعات النقدية • فقد منحها المسيحيون الكثير من الهبات والاقطاعات • الا أن الخدمات العسكرية التى كانت على شكل المحاربين والتى كان على الكنيسة أن تقدمها مقابل هذه الاقطاعات كانت أقل من المعتاد تقديمه فى حاله حصول نبيل علمانى على اقطاعات مماثلة (٥) •

---

(٤) لمزيد من المعلومات عن علاقة ملك بيت المقدس بنبلاء الصليبيين ارجع الى الفصل الخاص بذلك فى المرجع السابق ص ١٨٧ — ص ٢٠٢ •

(٥) رنسيمان ج ٢ ص ٤٩٨ •

كما أن الكنيسة مع التسليم بماقدمته من أعمال البر والاحسان للمجتمع الصليبى ، فانها لم تنجح فى المحافظة على الحماسة الدينية والروح المعنوية بشكل فعال بين الصليبيين ، كما أنها لم تفلـح فى الحيلولة دون انحطاط المستوى الاخلاقى بينهم ، بما فى ذلك مستوى بعض رجال الدين •

جماعات الرهبان المحاربين :

من أهم النظم التى قامت فى المملكة الصليبية بالشام كانت جماعات الرهبان المحاربين ، وبرزت من بينها بشكل خاص الجماعة الدواية والجماعة الاسبتارية أو جماعة فرسان القديس يوحنا • واشتهر أعضاء الجماعتيـــن بتدينهم وحماستهم لخدمة الكنيسة ، كما عرفوا بالشجاعة وشدة البأس فى القتال ، وكثير ما كانوا مصدر خطر كبير على المسلمين • وفضلا عما لهمامن الحماسة والقوة القتالية ، كانت الجماعتان تتمتعان بموارد اقتصادية ضخمة توفرت لديهما عن طريق الهبات التى أوقفها عليهما المسيحيون • كما تحكمت الجماعتان فى عدد من الحصون والقلاع التى أشرفت على طرق التجـــارة والمسالك بين المدن الكبرى ، وتمكنتا من زيادة مواردها عن طريق مـا فرضتاه من رسوم على القوافل التجارية • كما اشتغل بعض الرهبـــان بأعمال الصيرفة التى عادت عليهم بأرباح طائلة واستعمل الرهبان ما جمعوه من أموال فى شراء مزيد من الاراضى حتى شملت ممتلكاتهم اقطـــاعات ضخمة وعددا من أهم القلاع والحصون والمدن •

واذا كانت الجماعتان الداوية والاسبتارية فى سنواتها الاولى ومصدر

---

(٥) بالنسبة لمكانة الكنيسة وامتيازاتها وعلاقتها بملوك بيت المقـــدس ارجــــع الى :

La Monte Feudal Monarchy, pp 203-216.

AUB LIBRARY

قوة ساندت المملكة الصليبية • فان هذا لاينطبق على الفترة التالية من تاريخها ، فان امكانيات الجماعتين لم تكن مركزه فى خدمة المملكة الصليبية • فمن ناحية لم يكن للملك عليهما سلطان ، اذ كانت الجماعتان تتمتعان بالاستقلال عن الملكية وكانت تتبعان للبابوية مباشرة • وفضلا عن ذلك فان الجماعتين لم تلتزما بتنسيق الجهود بينهما واتباع سياسة موحدة مع الملكية ، وكانت كل منهما تتبع السياسة التى تعود عليها بالنفع وتحقيق مصالحها الخاصة• ولا عجب اذن أنه كثيرا ماقام بينهما التنافس والتصارع • وفى سبيل تحقيق مصالحها لم تحجم الواحدة منها عن التفاوض مع المسلمين وعقد الاتفاقيات والهدن معهم • بل وكثيرا ما تحالفت احدى الجماعتين مع بعض الامارات الاسلامية ضد الجماعة الاخرى على النحو الذى يتضح بشكل خاص خلال القرن الثالث عشر الميلادى (٦) •

المدن التجارية وامتيازاتها :

وكانت الامتيازات التى منحتها المملكة الفرنجية للمدن التجارية الايطالية والبروفنسالية من العوامل التى حدت من قوة الملكية • فان الصليبيين لم تتوفر لديهم الأساطيل اللازمة لهم للاستيلاء على المدن الساحلية فى الشام ثم المحافظة عليها فى مواجهة القوى الاسلامية ، أو لتأمين اتصالات الصليبيين بأوطانهم فى أوربا • وأمام هذه الضرورة اضطروا لطلب العون من القوى البحرية الاوربية ، وكانت ممثلة حينئذ فى جنوة وبيزا والبندقية ومدن اقليم بروفنس بجنوب فرنسا ، واتخذوا من هذه المدن حلفاء لهم (٧) • وعقد الصليبيون عددا من المعاهدات مع

(٦) عن الجماعتين الاسبتارية والدوية ووضعهما فى المملكة الصليبية ارجع الى المرجع السابق ص ٢١٧ — ص ٢٢٥ •

(٧) رنسيمان ج ٢ ص ٤ ٥ •

هذه القوى البحرية ، قدمت الأخيره بمقتضاها العون والمساعدة للصليبيين مقابل حصولها على امتيازات وتسهيلات تجارية فى المدن الصليبية فى الشام ، كانت أحيانا على شكل احياء خاصة بتلك القوى فى المدن الكبرى وقد يبلغ الواحد منها فى بعض الاحيان ثلث مساحة المدينة • واضطر الامراء الصليبيون لمنح العديد من أحياء مدن عكا وصور وطرابلس بين المدن الايطالية حتى لم يتبق بعد ذلك تحت امرتهم الا أجزاء بسيطة من مساحتها وكان أعضاء كل من هذه الجاليات أو القومونات Communes من المدن التجارية المذكورة ، لهم امتيازاتهم الخاصة من كنيسة وسوق وحمام وطاحونة ومخبز ومخازن لبضائعهم (٨) • واعتمدت أوضاع هذه الجاليات أو القومونات على مدى الحقوق والامتيازات التى حصلت عليها فى المعاهدات والعهود التى عقدتها مع الامارات الصليبية ، وقد تراوحت ما بين حرية التجارة الى حرية ذاتية كاملة لادارة شئون القومون — المجتمع — الخاص بها واعفائها من دفع أية نوع من المكوس والضرائب ، وتمتعها بامتيازات قضائية ، واعفائها من الخدمات العسكرية للمشاركة فى الحملات الهجومية ضد المسلمين • وقد تزايدت هذه الامتيازات نتيجة للتنافس بين الامارات الصليبية للحصول على مساعدة وتعاون القومونات مقابل تقديم مزيد من الامتيازات لها (٩) •

وهكذا فان الامراء الصليبيين فى الشام ، من أجل الدفاع عن الكيان

(8) La Monte: Feudal Monarchy, p. 234

(٩) المرجع السابق ص ٢٣٣ — بشأن العهود التى منحتها الامارات الصليبية لمدن التجار مثل البندقية وجنوه وبيزا ومرسيليا فى المراكز التابعة لهذه الامارات فى الشام ، نظر الثبت الخاص بهذه العهود فى نفس المرجع ص ٢٦١ — ٢٧٣ •

A U B LIBRARY

السياسى لاماراتهم ، ضحوا بالكثير من مصالحهم الاقتصادية للقوى التجارية السالفة الذكر ، وفقدوا السيطرة على التجارة داخل الموانى والمدن الصليبية ، كما فقدوا موردا من أهم الموارد المالية للملكة ، ونعنى بذلك المكوس التى كانت تفرض على تجارة العبور « ترانسيت » Transit التى حققت نشاطا ملحوظا فى هذا العصر وهكذا تأثر الكيان الاقتصادى للملكة الصليبية تأثرا سلبيا ، بعد أن أصبح معظم النشاط التجارى بمدنها فى أيدى التجار الايطاليين والبروفنساليين •

ومن ناحية أخرى فان المدن التجارية الابطالية غالبا ما كانت تهتم بمصالحها الخاصة وتعطى لها الاولية على القضية العامة للمسيحيين فى مواجهتهم للمسلمين • وكانت هذه المصالح الخاصة تقوم على أساس العلاقات السلمية مع هؤلاء تحقيقا لاستمرار التعامل التجارى معها ، حتى أننا أصبحنا نسمع عن دخول هذه المدن التجارية فى مفاوضات مع المسلمين وغالبا ما انتهت بعقد معاهدات تجارية معهم • بل لقد قام تنافس بين هذه المدن من أجل ما يخص كل منها من مصالح تجارية ، مما أدى الى نشوب القتال بينها ومن أبرز الامثلة على ذلك كانت الحرب التى نشبت بين قومون البنادقة وقومون الجنوية فى مدينة عكا ، تلك الحرب التى شملت معظم الاطراف والعناصر فى المملكة الصليبية واستمرت مدة طويلة بدأت من سنة ١٢٥٦ م وامتداد حتى سنة ١٢٧٧م • وقد تسبب التنافس والقتال بين قومونات البنادقهوالجنوية والبيازنة فى مشاكل داخلية بالممتلكات الصليبية فى الشام أدت الى اضطراب شبه مستمر فى أحوالها خلال القرن الثالث عشر للميلاد ••

ومجمل القول ، أن النظم السياسية فى المملكة الصليبية لم تقم على

أسس مركزية قوية ، بل غلب عليها عدم التمركز ، مما أدى الى الحد من قوى الصليبيين وأصبحت الهيئات الصليبية على أختلاف أنواعها ، مثل الامراء الصليبيين فى انطاكية والرها وطرابلس وغيرها ، ورؤساء الجماعات الرهبانية المحاربة ، مثل الداوية والاسبتارية ، والقومونات التجارية مثل قومون البنادقة والجنوية ، كثيرا ما تفضل الدخول فى علاقات دبلوماسية مع المسلمين لعقد معاهدات وهدن معهم على النحو الذى يلاحظه من يدقق فى تتبع العلاقات بين المسلمين والفرنجة •

تأقلم الصليبيين فى الشرق وأثره فى تناقص المساعدات من الغرب :

فى ضوء ما وضحناه عن الرقعة الجغرافية المحدودة التى احتلها الصليبيون ، والقلة العددية النسبية لمن استقر منهم فى الشرق ، فضلا عن طبيعة النظم السياسية والتكوين الاقطاعى لممتلكاتهم ، وعدم تجميع قواهم لمواجهة المسلمين نستطيع أن نقدر مدى حاجة المملكة الصليبية لوصول مساعدات عسكرية فعالة من الغرب الاوربى ، ممثلة فى المحاربين، للاسهام فى الدفاع عن كيان هذه المملكة ، الا أنه استجد من العوامل ما أدى الى تناقص نسبى ملحوظ فى وصول المساعدات المرجوه وكان من الاسباب الرئيسية لذلك ماقام من اختلاف بين الفرنجة الذين استقروا فى الشرق • والفرنجة الجدد الذين وفدوا اليه فى فترات تالية •

وعقب عودة الفرنجة الجدد الى الغرب الاوربى أشاعوا به مجموعة من الروايات والاخبار عن فرنجة الشرق ، لم تكن بأية حال فى صالح الاخيرين •

فقد ظهرت مع مرور الوقت اختلافات فى الطبائع والمصالح بين

AUB LIBRARY

الصليبيين الذين استقروا فى الشرق واتخذوا منه موطنا لهم وبين أولئك الذين وصلوا مع الحملات الصليبية الكبرى التى جاءت الى الشرق فى الفترات التالية على امتداد القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، مما كان له آثاره على موقف المسيحيين الغربيين من فرنجة الشام ٠

ولتفهم ذلك الاختلاف ، على المرء أن يدرك طبيعة التحول الذى طرأ على الفرنجة الذين استقروا فى الشام وما كان من ارتباط حياتهم ومصالحهم بظروف هذه المنطقة ، مما كانت له آثاره فى علاقاتهم مع الغرب الاوربى وبالتالى مع الدول الاسلامية المجاورة ٠

ومن أحسن ما يصور لنا هذا التحول كان ذلك الوصف الطريف الذى رواه المؤرخ الصليبى المعاصر فوشيير أوف شارتر Fulcher of Chartres وهو يشير الى ما حدث فى أحوال فرنجة الشرق بعد مرور نحو ربع قرن من الزمان على اقامتهم به ، الامر الذى اعتبره معجزة الهية لا تقل قدرا وأهمية عن ظاهرة كسوف الشمس سنة ١١٢٤م والتى تعجب لها الصليبيون واعتبروها معجزة الهية كبرى ٠ وقد ورد فى التاريخ الذى وضعه المؤرخ المذكور ما نصه :

« ولم يتعجب الانسان من أن الله يظهر المعجزات فى السموات فى حين أنه أتى بمعجزة فوق البسيطة ذاتها ، وذلك بتحويله الغربيين الى شرقيين ٠٠٠ انى أود أن تتأملوا يا قوم وتفكروا كيف أن فى زماننا هذا قد حول الله الغرب الى شرق ، فاننا نحن معشر الغربيين أصبحنا شرقيين : ومن كان من أهالى ايطاليا أو فرنسا من قبل ، أصبح الآن جليليا أو فلسطينيا ٠ كما تحول أبناء مدينتى ريمز وشارتر وأصبحوا أنطاكيين وصوريين (نسبة الى مدينة صور) ٠ فقد نسينا أوطاننا الاولى ، أو كدنا أن ننساها ، حتى يكاد ألا يأتى ذكرها على ألسنتنا الا لماما ٠

وقد امتلك بعضنا هنا — فى لشام — ديارا كما أصبح لدى بعضنا الاقنان الذين آلوا الينا عن طريق الميراث ، وكأن لنا فى البلاد حقوقا قديمة ٠ واذا كان بعضنا نزوج من بنات جنسنا ، فقد اتخذ آخرون منا زوجات لهم من السورياتر الارمينيات بل ومن المسلمات بعد حصولهن على بركة تعميدهن ٠ وأصبح يعيش فى كنف الصليبى : حموه أو زوجة ولده أو ابن زوجته أو زوج أمه ، كما ترعرع حولنا هنا أحفادنا ، كما استطاع كثيرون منا استعمال ألفاظ ومصطلحات من لغات مختلفة فى تعاملهم ٠ فان اللغات على اختلاف أصولها ، بعد أن شاع تداولها ، أصبحت معروفة لدى كل من الجنسين — الفرنجة والمسلمين — ٠٠ وان من كانوا يعدون فى مصاف الاجانب والغرباء ، أصبحوا من أهالى البلاد ٠ فمن كان مجرد مسافر أو عابر طريق ، أصبح مواطنا ٠ وقد توافد الينا ، يوما بعد يوم ، آباؤنا وأهلنا تاركين وراءهم ، بعد تردد ، كل ما كانوا يمتلكون فى الغرب ٠ ومن كانوا هناك من الفقراء ، أفاض الله عليهم من عطائه وأصبحوا هنا من الاغنياء فان أولئك الذين لم يحتكموا من قبل الا على قدر ضئيل من المال ، أصبحوا يمتلكون قدرا منه لا يحصى ٠ ومن لم يكن فى حوزتهم حقل واحد ، أصبحوا يمتلكون هنا مدنا بأكملها وذلك كله بفضل الله ٠

اذن فلماذا يفكر المرؤ فى الغرب بعد أن وجد فى الشرق مكانا صالحا وأفاض الله عليه من خيراته على هذا النحو ؟ وان الله لا يرضى أن يظل أولئك الذين حملوا شعار الصليب وأقسموا على أداء الرسالة ، فى معاناة أبد الدهر ٠ كلا !! ولذلك فأنتم ترون أن ما حدث لنا هنا انما هو معجزة كبرى ، معجزة يجب أن تثير عجب العالم أجمع ٠ وهل بلغ أحدا منا من الازمان السالفة أخبار تماثل هذا الحدث ؟ وهكذا فالله تعالى قد أراد أن يغدق علينا جميعا من نعمه ويصطفينا لخيره ، ويجمعنا مع أفضل أصفيائه ٠٠٠ » ٠

A U B LIBRARY

وان هذا التحول فى أحوال الفرنجة الذين استقروا فى الشرق وتأقلمهم على النحو الذى وصفه فولشير أوف شارتر فى النص الطريف الذى عرضناه ، قد لاحظه بعض المؤرخين المسلمين المعاصرين كأسامة بن منقذ ، الذى عاش فى القرن الثانى عشر للميلاد ويتحدث عن ظاهرة هذا التطور لدى هؤلاء واختلافهم عن الفرنجة الجدد الذين توافدوا الى البلاد فيقول : « فكل من هو قريب العهد بالبلاد الافرنجية ، أجفى أخلاقا من الذين تبلدوا وعاشروا المسلمين »[١٠] .

وهكذا تناولت المصادر العربية واللاتينية تلك الظاهرة الهامة التى تبدلت فيها خصائص الصليبيين فى الشام ، وتحولت ميولهم ، وما كان من ارتباطهم ببلاد الشام التى اتخذوا منها موطنا جديدا لهم . وكان من الطبيعى أن يحرصوا على هذا الموطن ويكونوا على استعداد للتفاهم والتعايش مع المسلمين عندما تقتضى مصالحهم ذلك ، ويدخلوا فى علاقات دبلوماسية وسلمية معهم .

وقد أدى هذا التأقلم أو التبلد على حد قول ابن منقذ ، الى قيام اختلاف واضح بين الصليبيين الشاميين والصليبيين الجدد . وكثيرا ما اتضح هذا الاختلاف وقت وصول هؤلاء الاخرين من الغرب فى حملات صليبية كبيرة أو فى جماعات محدودة العدد من المغامرين والمتطوعين للقضية الصليبية ومن ذلك ماحدث عقد وصول الحملة الصليبية الثانية (١١٤٧ — ١١٤٩م) . فان الفرنجة الشاميين نظروا الى الفرنجة الجدد كعناصر دخلية تتهدد مصالحهم ، وتشكلوا فى نواياهم ، خاصة لما وجدوا بينهم من أرادوا الاستقرار فى الشام وتأسيس امارات لهم به الامر الذى تعارض مع مصالح الفرنجة الشاميين وكان الفرنجة الجدد أقل تفهما لاوضاع الشرق وأكثر

(١٠) اسامه بن منقذ ص ١٣٤

اندفاعا فى مواجهة المسلمين وهكذا دب الخلاف بين الطرفين الفرنجيين ولا عجب اذن أن كتب الامبراطور كونراد الثالث رسائله التى هاجم فيها الفرنجة الشاميين واتهمهم بالخيانة [١١] .

ومما زاد فى حدة هذا الخلاف والتنافر ، أن الصليبيين الجدد عندما رجعوا الى الغرب ، كثيرا ما أرجعوا أسباب ماواجههم من فشل وخيبة فى حملاتهم على الشرق ، الى ما أعتبروه خيانة من جانب الفرنجة الشاميين . ولاعجب اذن أن ظهر فى غرب أوربا شعور بالتشكك بل والعداء للفرنجة الشاميين ، ذلك فى الوقت الذى أخذ فيه الغرب الاوربى ينشغل يوما بعد يوم بمشاكله المحلية مثل الصراع بين البابوية والقوى العلمانية وخاصة الامبراطورية ولاريب أن المشاكل التى عانى منها الفرنجة الشاميون فى علاقتهم مع الفرنجة الغربيين ، كانت لها آثارها فى تشكيل سياسة الاولين مع المسلمين .

(11) Conrad's Letters, R.H. g. F. LV. 534-535.

AUB LIBRARY

الفصــــل الرابـــع

المصــالح الاقتصــادية وآثارها فى قيام العــــلاقات الدبلوماســية

AUB LIBRARY

اسهمت المصالح الاقتصادية اسهاما قويا . الى جانب ما أسهمت به العوامل السياسية ، فى دفع كل من المسلمين والفرنجة للدخول فى اتصالات دبلوماسية متبادلة وعقد معاهدات واتفاقيات لتحقيق مصالحهم الاقتصادية التى كانوا حريصين أشد الحرص عليها وخاصة ما كان منها متعلقا بالعلاقات التجـــارية .

وسوف نوضح فيما يلى الظروف التى أدت الى قيام النشاط التجارى وتطوره ، ثم نبين مدى اهتمام كل من الجانبين الاسلامى والفـرنجى بالتعامل التجارى المتبادل ، ثم نتناول بعد ذلك أبعاد هذا التعامل وأهميته بالنسبة للجانبين .

النشاط التجارى وتطوره :

عرف عن العرب منذ القدم اهتمامهم بالتجارة التى ظلت مظهـرا أساسيا من مظاهر النشاط الاقتصادى فى منطقة الشرق الأدنى—الليفانت— بعد ظهور الاسلام . ولا شـك أن موقع هذه المنطقـة الاستراتيجى وسيطرتها على عدد من أهم طرق التجارة العالمية بين الشرق والغرب كان من العوامل التى تفسر نشاط تجارة العبور « الترانسيت » . كما أن الشريعة الاسلامية سمحت للمسلمين بالاتجار مع البلاد غير الاسلامية ولم تفرض على الاتجار معها الا بعض القيود فى تصدير واستيراد سلع معينة [1] هذا وكان على التجار الاجانب دفع رسوم على بضائعهم عرفها المسلمون باسم

---

(١) كان محظورا على دار الاسلام اذا كانت فى حالة حرب مع دار الحرب أن تصدر اليها مواد حربية تساعد الاعداء ضد المسلمين — كما خطرت الشريعة الاسلامية على التجار الاجانب احضار وبيع السلع المحرمة على المسلمين كلحم الخنزير والخمور . أنظر : كتاب الخـراج لابى يوسف ص ١٨٨ ، ص ١٩٠ ، خدورى ص ٣٠٠ — ص ٣٠٣ .

AUB LIBRARY

العشور • وعلى أية حال فهذه الرسوم أو القيود السالفة الذكر لم تحـل دون تدفق التجارة ونموها • ومنذ مرحلة مبكرة من العصر الاسلامى ، قام التبادل التجارى بين المسلمين وأوربا المسيحية ، وان كان هذا التبـادل فى أول الامر ، مقصورا على التعامل بين المسلمين وشرق أوروبا أو الدولة البيزنطية • أما غرب أوروبا الكاثوليكى فقد ظلل لعدة قرون وهو يغلب عليه الاقتصاد الزراعى الذى ساد فى ظل النظام الاقطاعى الذى سـاد البـــلاد •

ولكن مالبثت أن استجدت عوامل وظروف فى غـرب أوربا أدت الى قيام نهضة تجارية هامة امتدت آثارها لتصل الى الشرق الادنى وقد تزايد مع مرور الوقت اهتمام الغرب الاوربى بالتبادل التجارى مع المسلمين وذلك للحصول على السلع الشرقية وتصدير ما يحتاج اليه المسلمون من السلع الاوربيـــة •

وتبرز فى مجال النشاط التجارى لغرب أوربا ، وخاصة فى مرحلته الاولى ، مدينة البندقية وغيرها من المدن التجارية الايطالية التى كانت بمثابة طلائع لدول أوربا فى تجارة البحر المتوسط • وكانت أسبقية هذه المـدن نتيجة لموقعها الجغرافى فهى كانت أقرب الموانى الغربية المواجهة للشرق كما ترجع لتفوقها على غيرها من الدول الاوروبية فيما يتعلق باقتصاديات نظام المدن والتجارة ، وكذلك لحاجة هذه المدن التجارية للبحث خـارج حدودها عن موارد اقتصادية اضافية تعتمد عليها الى جانب مواردها المحلية التى لا تغطى متطلباتها •

ومن أهم العوامل التى أسهمت فى نمو التعامل التجارى بين الشرق والغرب ، كان المد الفرنجى أو تزايد نفوذ الاوروبيين الغربيين فى البحـر

المتوسط فى اعقاب ما قاموا به من التوسع السياسى على حساب كل من البيزنطيين والمسلمين ، بعد أن كانت للاخرين السيطرة على هذا البحـر لسنوات عديدة • ومع أخريات القرن الحادى عشر للميلاد ، وقيام حـركة الاسترداد أخذ الاوروبيون يستردون اسبانيا خطوة بعد خطوة من المسلمين كما تمكنوا من فرض سيطرتهم على جزر كورسيكا وسردينا وصقلية وكذلك على جنوب ايطاليا • وأخذت أساطيل الغرب التجارية تتوافد الى الموانى الاسلامية فى مصر والشام ، ومن بينها كانت سفن البنادقة وجنوة وأمالفى كما ظهرت سفن مرسيليا ، وكان كل ذلك قبل قيام الحركة الصليبية • ثم وصل المد الغربى الى شرق البحر المتوسط على اثر نجاح الصليبيين فى اقامة اماراتهم فى الشام تلك الامارات التى قدر لها أن تبقى من اخريات القـرن الحادى عشر الى أخريات القرن الثالث عشر للميلاد • وأمام هذا المـد الفرنجى وانتشار الاساطيل الفرنجية ، لم يصبح البحـر المتوسط تحت سيطرة المسلمين كما كان الحال سابقا •

وسجل بعض المؤرخين ملاحظاتهم على هذا التحول فى السيطرة على البحر المتوسط • وقد علق ابن خلدون على ذلك لما كان يعرض لعهـد صلاح الدين الايوبى وجهوده لاسترجاع ثغور الشام من يد الفرنجة بقـوله : « ••• تتابعث أساطيلهم الكفرية بالمدد لتلك الثغور من كل ناحية ، فأمدهم بالعدد والاقوات ، ولم تقاوم أساطيل الاسكندرية لاستمرار الغلب لهم فى ذلك الجانب الشرقى من البحر وتعدد أساطيلهم فيه ، وضعف المسلمين منذ زمن طويل عن ممانعتهم هناك ، ولم يكن سلطان الفرنج على غرب البحر المتوسط بأقل منه على شرقه ، فلقد ملكوا الجزائر التى بالجانب الغربى من البحر الرومى ، وقويت تجارتهم فى وسط هذا البحر وأشتدت شوكتهم وكثرت فيه أساطيلهم وتراجعت قوة المسلمين فيه الى المساواه معهم ثم

AUB LIBRARY

تراجعت بعد ذلك قوة المسلمين فى الاساطيل لضعف الدول ونسيان عوائد البحر ، ورجع النصارى فيه الى ديدنهم المعروف من الدربة فيه والمران عليه والبصر بأحواله وغلب الامم فى لجته وعلى أعواده ، وصار المسلمون فيه كالاجانب الا قليلا من أهل البلاد الساحلية » (٢) .

وكانت الحركة الصليبية عاملا مساعدا له أهميته فى زيادة التعامل التجارى بين المسلمين والفرنجة . فعلى أثر اقامة الافرنج فى الشام أتيحت لهم الفرصة لتزداد معرفتهم بمنتجات الشرق وسلعه ، مما أدى الى تزايد ملحوظ فى اقبالهم عليها . وتطلع كثيرون من الغربيين للحصول على هذه السلع وتأتى على رأسها التوابل والبهارات المختلفة اللازمة لاعداد المأكولات أمثال القرفة والحبهان والقرنفل وجوز الطيب والزنجبيل ، وكذلك سلع أخرى مثل الاعشاب اللازمة لصناعة العقاقير ، وأخشاب البخور والعطور ، والحرير والاحجار الكريمة والخزف ، هذا فضلا عن السلع التى كانت تنتجها البلاد الاسلامية المتاخمة للامارات الصليبية فى الشرق الادنى — وكان الشرق الاسلامى فى حاجة لاستيراد سلع معينة من الغرب مثل الاخشاب التى كان يفتقر اليها وكانت تلزمه لاعداد الاساطيل ولاعمال البناء . كما كان الشرق فى حاجة الى أنواع من المعادن مثل الحديد والنحاس وبعض الاسلحة الى جانب الرقيق الذى كان يزوده به التجار الغربيون .

وان احتياجات كل من الطرفين للسلع التى يحصل عليها عن طريق

---

(٢) تناول ابن خلدون التغير فى القوى البحرية فى البحر المتوسط فى فصل خاص عن قيادة الاساطيل انظر المقدمة ص ٢٠١ — ص ٢٠٢ ، انظر كذلك مختار العبادى ، السيد عبد العزيز سالم . تاريخ البحرية الاسلامية فى مصر والشام بيروت ١٩٧٢ .

الطرف الاخر اقتضت بالضرورة التعامل التجارى بينهما ، خاصة اذا ما أخذنا فى الاعتبار أنه لم يكن فى استطاعة المسلمين او الفرنجة الانفراد بالتجارة واحتكارها دون الطرف الاخر ، حتى أنه يجوز القول بوجود نوع من التكامل فى التبادل التجارى بينهما . فالاساطيل الفرنجية ، التى أصبح لها التفوق فى البحر المتوسط ، استأثرت بمهمة نقل السلع من موانى مصر والشام الى الموانى فى غرب أوروبا كما تولت كذلك نقل البضائع من أوروبا الى الموانى الاسلامية . أما السلع الشرقية فكانت تحت سيطرة المسلمين ، وكانت تنقل من منشئها فى الشرق الاقصى وشرق أفريقيا الى الشرق الادنى الاسلامى الذى أصبح يتحكم فى أهم الطرق العالمية للتجارة .

وتزايدت مع مرور الوقت أهمية الطرق التجارية المارة بمنطقة الشرق الادنى الاسلامى . فالطرق البرى الممتد من الصين الى آسيا الصغرى وموانى البحر الاسود ، كثيرا ما عانى من عدم استقرار الاوضاع فى البلاد التى يمر بها واعتداءات قطاع الطرق وغيرهم . وأصبح الجزء الاكبر من التجارة الشرقية ينقل بطريق البحر . وقد أخذ التجار ينصرفون عن الطريق المار بالخليج العربى لاسباب تتعلق بتأمين بضائعهم ، واجتذبهم الطريق الدولى الممتد من المحيط الهندى الى مصر بعد أن تبين للتجار مميزات هذا الطريق وتفوقه على غير فى نقل البضائع . وكانت السفن تتجة من المحيط الهندى الى اليمن وخاصة ميناء عدن لتواصل مسيرتها الى البحر الاحمر ومنه كانت تنتقل البضائع الى الموانى المصرية الواقعة على البحر المتوسط وخاصة مدينة الاسكندرية ، التى أصبحت لها مكانة تجارية خاصة . ومن الموانى المصرية والشامية كانت السفن الاوروبية تنقل البضائع الى موانى الغرب الاوروبى فى ايطاليا وفرنسا واسبانيا وغيرها .

AUB LIBRARY

وقد أدرك المؤرخ الصليبى المعاصر وليام الصورى مميزات الطريق التجارى المار بالبحر الاحمر والبلاد المصرية (٣) • ومن بعده جاء الرحالة الاوروبى المعروف ماركو بولو الذى قال ان طريق البحر الاحمر ومصر هو أقصر طرق تجارة الشرق وأقلها عناء فى نقل التجارة وأنه هو الذى يمد الاسكندرية بما تتطلبه الاسواق الاوروبية من التوابل • كما يؤكد من بعده الرحالة بيجوليتى الذى عاصر المرحلة المتأخرة من الحركة الصليبية ، وكان خبيرا بشئون تجارة الشرق ، وذكر أن طريق مصر كان أهم الطرق لنقل الفلفل وغيره من السلع الثقيلة الحمل (٤) • وهكذا تزايدت أهمية البحر الاحمر ومصر كطريق للتجارة الدولية ونشطت بها تجارة العبور « الترانسيت » •

ومع ادراك الغربيين للاهمية البالغة للطريق التجارى المار بالبحر الاحمر ، كان من الطبيعى أن يفكروا فى النفاذ اليه والسيطرة عليه • ولاريب أن هذا الهدف كان من أهم العوامل التى أدت الى توجيه عدد من الحملات الصليبية الى مصر بغرض الاستيلاء عليها والتحكم فى هذا الطريق • كما يمكننا اعتبار محاولة الامير الفرنجى رينودى شاتيون — ارناط — والصليبيين للاستيلاء على ميناء أيله — العقبة — على البحر الاحمر مؤشرا واضحا يشير الى غرض الفرنجة فى اختراق احتكار المسلمين لطريق البحر الاحمر وهدفهم للتوسع فى هذه الاتجاه ، أكثر منه مجرد محاولة لتهديد الاراضى الاسلامية المقدسة فى الحجاز (٥٧٨هـ / ١١٨٢م) • وكان

(٤) عمر كمال توفيق : « الجاليات الاوروبية فى الاسكندرية » فصل فى كتاب مجتمع الاسكندرية عبر العصور • مطبوعات جامعة الاسكندرية ، ١٩٧٥! ص ٢٨٤ •

حرص المسلمين شديدا للحيولة دون نفاذ الصليبيين الى البحر الاحمر والتحكم فيه • ولاعجب أن يقف السلطان صلاح الدين من هذه المحاولة موقفا حاسما للضرب بشدة على أيديهم ووصلنا من تصريحات هذا السلطان ما يشير الى شدة تمسكه بسياسة منع الفرنجة من النفاذ الى البحر الاحمر وذلك فى الرسالة التى بعث بها الى أخيه الملك العادل نائبه فى البحر الاحمر ، والتى يأمره فيها باعدام كافة الفرنجة الذين وقعوا فى الاسر أثناء قيامهم بتلك المغامرة ومما جاء فى الرسالة . « وقطع أسبابهم بحيث لا يبقى منهم عين تطرف ولا أحد يخبر بطريق ذلك البحر أو يعرف »(٥) • وقد التزم المسلمون سياسة منع الفرنجة من الوصول الى البحر الاحمر حتى أواخر العصور الوسطى • ولهذا فقد تمركز نشاط التجار الاوروبين فى الموانى المصر والشامية الواقعة على سواحل البحر المتوسط ، وذلك لمواصلة نشاطهم التجارى ، وكان عليهم أن يرتبوا مصالحهم التجارية على هذا الاساس •

وهكذا ، فبناء على سيطرة المسلمين على طرق التجارة العالمية المارة بمنطقة الشرق الادنى ، وتحكم الاساطيل الاوربية فى نقل السلع من الموانى الاسلامية فى شرق البحر المتوسط الى الموانى الاوروبية فى الغرب ، كان لابد من التعامل التجارى بين الطرفين • والباحث المدقق لا تخفى عليه هذه الشواهد التى تدل على مدى حرص كل من المسلمين والفرنجة على تحقيق هذا التعامل بينهما ، بالرغم مما وجد من اختلافات دينية وعنصرية وعداء سياسى وحروب • فالارباح الوفيرة التى كان يحصل عليها كل من الطرفين كانت سببا أساسيا دفعهم للتوافق والتعامل التجارى • ونعرض

(٥) أبو شامه : الروضتين : أحداث ٥٧٨ هـ (١١٨٢م) ج ٢ ص٣٥ص٣٧ •

AUB LIBRARY

فيما يلى الشواهد التى تدل على اهتمام كل من المسلمين والفرنجة بما كان بينهما من نشاط تجارى .

شواهد على اهتمام المسلمين بالتعامل التجارى مع الفرنجة :

وهناك من الشواهد ما يقطع باهتمام المسلمين بالاتجار مع الفرنجة ومن أحسن ما يصور تفهم المسلمين لمصالحهم الاقتصادية وفائدة الاتجار مع الصليبيين فى الوقت الذى كان عليهم فيه مواجهتهم فى ميدان القتال ، كانت تلك الرسالة أو التذكرة التى بعث بها السلطان صلاح الدين الايوبى الى الخليفة العباسى المستعين بالله وذكر فيها كيف أنه مع اعتباره البنادقة والبيازنة والجنوية كأعداء خطرين على الاسلام ، فانه يقدر ما للتجارة معهم من أهمية . ومما جاء فى هذه التذكره :

« كل هؤلاء تارة لا نطاق ضرورة ضرهم ، ولا تطفأ شرارة شرهم ، وتارة يجهزون سفارا يحتكمون على الاسلام فى الاموال المجلوبة وتقصر عنهم يد الاحكام المرهوبه ، وما بينهم الان الا من يجلب الى بلدنا آله قتاله وجهاده ، ويتقرب الينا باهداء طرائف أعماله وبلاده ، وكلهم قد تقررت معه المواصفه وانتظمت معه المسالمه ، على ما نريد ويكرهون ونؤثر ولا يؤثرون » (٦) .

ومن الشواهد على اهتمام المسلمين كانت تلك الوثائق المعاصرة التى حفظها لنا القلقشندى فى كتاب صبح الاعشى . فاننا نجد بها من المعلومات ما يقطع بحرص المسئولين المسلمين على تشجيع التجارة بتوفير الرعاية والحماية للتجار الاجانب لما كان يرى فيه هؤلاء المسلمون من خير وفير يعود على البلاد .

---

(٦) صبح الاعشى ج ١٣ ص ٨٨ .

ومن هذه الوثائق كانت الرسالة التى بعث بها السلطان المنصور قلاوون حوالى سنة ٦٧٨هـ / ١٢٨٠م للقاضى جمال الدين بن بصاصة ، ناظر ثغر الاسكندرية ، يوصيه فيها بالحرص على حسن معاملة التجار الواردين اليه . ومما جاء فى هذه الوثيقة فى مجال توجيه هذا المسئول فى عمله وما يتحصل من التجار الافرنج من مكاسب ما يلى :

« ... ويجتهد فى تحصيل امواله ... وتنمية متاجره ومعاملة التجار الواردين اليه بالعدل الذى كانوا ألفوه منه والرفق الذى نقلوا أخباره السارة عنه ، فانهم هدايا البحور ، وذو انبه الثغور ، ومن ألسنتهم يطلع على ما تجنه الصدور ، واذا بذل لهم حب الاحسان نشروا له أجنحة مراكبهم كالطيور ، وليعتمد معهم على ما تضمنته المراسم الشريفة المستمرة الحكم الى آخر وقت ، وليواصل بالحمول الى بيت المال المعمور ، وليملأ الخزائن السلطانية من مستعملات الثغر وأمتعته وأصنافه بكل ما تستغنى به عن الواصل فى البرور والبحور ، وليصرف همته العالية الى تدبير أحوال المتاجر بهذا الثغر بحيث ترتفع به رءوس أموالها وتنمى ونجود سحائب فوائدها ... » (٧) .

ويجب ألا يغفل المرء عن الشواهد التى تتضح فى المواد والشروط التى تكرر النص عليها فى المعاهدات والهدن التى عقدت بين المسلمين والفرنج ، والتى تظهر الحرص على تأمين التجار من الافرنج سواء اكانوا ممن يقمون فى الشام أو الذين يصلون من الغرب الاوروبى وتأمين بضائعهم كما تنص بصفة عامة على حسن معاملتهم (٨) .

---

(٧) المصدر السابق ج ١١ ص ٤١ ص ٤٢ ، ص ٤٢٠ - ص ٤٢١ .

(٨) سوف نتناول مواد المعاهدات الخاصة بالتعامل التجارى بالتفصيل فى الفصل التاسع .

A U B LIBRARY

شواهد على اهتمام الفرنجة بالتبادل التجارى :

لايكون من الصواب أن يحاول الباحث تناول العلاقات بين المسلمين والفرنجة اذا التزم فى ذلك بمجرد ماذكرته المصادر التاريخية عن الحماسة الدينية والرغبة فى شن حرب صليبية ضد المسلمين . ذلك أن الدافع الاقتصادى كان له دوره الاساسى الذى لايجب اغفاله بالرغم من أن فكرة اقامة علاقات سلمية واقتصادية مع المسلمين اعتبرها بعض الفرنجة خيانة كاملة للمثل العليا التى طالبوا بأن يلتزم بها المحارب الصليبى فى مواجهته للمسلمين ، وهى عندهم علاقة لابد وأن تقوم على استعمال السيف والسلاح . الا أن مثل تلك النظرة قاصرة ، ولا تأخذ فى الاعتبار العوامل الاخرى الهامة التى أثرت فى سياسة الفرنجة ومن أهمها العامل الاقتصادى .

ومنذ فترة مبكرة من اقامتهم فى البلاد الشامية ، أدرك الصليبيون أن من أفضل السبل للحصول على موارد مالية لدولتهم ، هو الاتجار مع المسلمين المجاورين وفرض الرسوم الجمركية على قوافلهم وبضائعهم التى تمر بالاراضى الخاضعة للفرنجة وحرص المسئولون الصليبيون على اقامة العلاقات التجارية مع المسلمين وذلك على النحو الذى يتضح من دراسة المصادر والوثائق الخاصة بالمعاهدات التى عقدها معهم ملوك بيت المقدس وأمراءها بل ورؤساء الجماعات الرهبانية العسكرية (٨) .

ومن الطريف فى هذا الصدد ، أن المؤرخ الصليبى وليام الصورى ، الذى كان من كبار رجال الكنيسة وقد وصل الى منصب رئيس أساقفة كنيسة صور ، سجل فى تاريخه انطباعاته وآرائه عن أهمية التجارة بالنسبة للمملكة الصليبية ، وذلك عندما قام تعارض بين شن حرب ضد المسلمين

(٨) أنظر المعاهدات التى الحقناها بكتابنا .

والاتجار معهم ، وكان هذا المؤرخ يتناول تاريخ الحملات التى قام بها الصليبيون ضد مصر . فقد كتب معربا عن أسفه لتهور « المكابرين » من الصليبيين واندفاعهم للاعتداء على مصر قائلة أنهم وهم يريدون الحرب بأى ثمن ، كانوا يجهلون مصلحة الفرنجة ، وأضاف أن اتجارهم مع مصر كان دائما مصدرا للخير والعزة بالنسبة لهم .

أما المدن التجارية الايطالية التى اشتهرت بمهارتها وتفوقها فى النشاط التجارى ، والتى كانت لها صلاتها التجارية مع الشرق الادنى الاسلامى منذ فترة سابقة ، فقد راعها فى أول الامر قيام الحركة الصليبية ووجدت فيها تهديدا لعلاقاتها ومصالحها مع المسلمين . ولهذا أحجمت هذه المدن ، فى بادىء الامر ، عن تقديم مساعدتها العسكرية والاسهام فى الحركة الصليبية ، ولم تبدأ فى عمل ذلك الا بعد أن تبينت نجاح الحملة الصليبية الاولى فى وضع الاساس للامارات الصليبية فى الشام . وحينئذ أدركت هذه المدن امكانية استغلال تلك الامارات كمراكز لمباشرة مصالحها التجارية (٩) .

ولكن ان كان الايطاليون حصلوا على امتيازات عديدة فى الموانى التى فتحها الصليبيون فى الشام ، فالملاحظ أن الحجم الفعلى لما قاموا به من نشاط تجارى فى تلك الموانى كان أقل من نشاطهم فى المدن المصرية ومدينة الاسكندرية خاصة وكان اسهام المدن الايطالية فى الحملات الصليبية التالية بشكل يغلب عليه التحفظ ، وبالقدر الذى يخدم مصالحها التجارية مع عدم تعريضها للخطر . وكان الظاهرة الغالبة فى سياستها مع المسلمين أن تبقى على علاقاتها السلمية والتجارية معهم .

(٩) رنسيمان ج من ص ٥٩٩ — ص ٦٠٠ .

AUB LIBRARY

أما البابوية فقد ساءها هذا الاهتمام الفرنجي بالتعامل التجـــارى مع المسلمين ، وما كان تجنيه دول وامارات الشرق الادنى الاســـلامى من مكاسب مادية من وراء تجارة الترانسيت ، مما كان يساعدها فى بناء قوتها العسكرية والوقوف ضد الصليبيين • ولذا قامت البابوية وأنصارها مـــن دعاة الحركة الصليبية لمعارضة الاتجار مع المسلمين ، بل لقد حرمته على المسيحيين وأصدرت القرارات والمراسيم التي تقضى بذلك ، مهددة من لا يستجيب من تجارهم لامرها بالحرمان من رحمة الكنيسة • الا أن موقف البابوية لم يسفر عنه توقف فى النشاط التجارى ومن أحس ما يصور موقف البندقية وغيرها من المدن التجارية الغربية ، كانت تلك العبارة المأثورة عن البنادقة والتى جاء فيها : « فلنكن بنادقة أولا ومسيحيين ثانية » •

ولم يقتصر الأمر على المدن التجارية الايطالية ، فقد اهتمت بالتجارة مع المسلمين دول وامارات أوربية أخـرى ، بادرت الى التفاوض مـع الحكومات الاسلامية لعقد معاهدات واتفاقيات تجارية معها ، مثال ذلك مملكة أرجون • بل أن هذه المملكة من أجل تحقيق مصالحها التجارية كانت على استعداد لعقد حلف سياسى دائم مع مصر (١٠) •

شواهد على اتساع نطاق التبادل التجارى :

لقد تبلور اهتمام كل من المسلمين والفرنجة بالتجارة ، نظرا لما تحققه من أرباح وفيرة للطرفين ، ليظهر على شكل علاقات تجارية نشطة بينهما على الرغم من الحروب والمعارك التى كانت تدور بينهما • وتمدنا المصادر التاريخية ببعض النصوص الهامة التى توضح لنا أبعاد هذا النشـــاط التجـــــارى •

---

(١٠) ارجع الى الملحق الرابع فى آخر كتابنا .

من أهم ماجاءت به المصادر الاسلامية كان ماكتبه الرحالة ابن جبير ، الذى زار الشرق الادنى فى أواخر القرن الثانى عشر للميلاد ، وقد دون ملاحظاته التاليـــة :

« واختلاف القوافل من مصر الى دمشق على بلاد الافرنج غـير منقطع ، واختلاف المسلمين من دمشق الى عكة كذلك ، وتجار النصـارى لا يمنع احد ولا يعترض • وللنصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها فى بلادهم وهى من الامنة على غاية ، وتجار النصارى أيضا يؤدون فى بـلاد المسلمين ، والاتفاق بينهم والاعتدال فى جميع الاحوال • وأهل الحـرب مشتغلون بحربهم ، والناس فى عافية والدنيا لمن غلب • هذه هى سيرة أهل البلاد فى حربهم وفى الفتنة الواقعة بين أمراء المسلمين وملوكهم كذلك ، ولا تعترض الرعايا ولا التجار ، فالامن لايفارقهم فى جميع الاحـوال سلما وحربا ، وشأن هذه البلاد أعجب من أن يستوفى الحديث عنه »(١١) •

كما يذكر ابن جبير رواية أخرى ، تساعد على توضيح مدى النشاط التجارى ، وهى تتحدث عن اثنين من كبار التجار المسلمين من مدينـــة دمشق وعلاقاتهما بالفرنج ، ومما جاء فى هذه الرواية :

« وقبض الله لهم بدمشق رجلين من مياسر التجار وكبرائهم وأغنيائهم المنغمسين فى الثراء : احدهما يعرف بنصر بن قوام ، والثانى بأبى الدر ياقوت مولى العطاق ، وتجارتهما كلها بهذا الساحل الافرنجى ، ولا ذكر فيه لسواهما ، ولهما الامناء من المقارضين ، فالقوافـل صـادرة وواردة

---

(١١) ابن جبير : الرحلة ، ص ٢٦٠ — ص ٢٦١ .

AUB LIBRARY

ببضائعها ، وشأنهمـــا فى الغنى كبير ، وقدرهما عنـــد أمـــراء المسلمين والافرنجيين خطير ... » (١٢) .

أما المصادر اللاتينية ، فيظهر من بينها المؤرخ وليام الصورى ، الذى كان ، بحكم المناصب التى شغلها واتصالاته مع المسئولين ، فى موضـــع يمكنه من الاطلاع على بواطن الامور فى العلاقات بين الاوروبيين والمسلمين فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر للميلاد . وقد ترك لنا وصفا دقيقا يبين فيه مدى نشاط تجارة الترانسيت التى كانت تمر بمصر الى أن تصل الى ايدى الفرنجة ، جاء فيه :

« ومدينة الاسكندرية موقعها الجغرافى ملائم للغاية لممارسة النشاط التجارى على نطاق واسع . ولها ميناءان ، لا يفصل أحدهما عن الاخر الا لسان ضيق جدا من الارض ... ونهر النيل يحمل اليها من بلاد الصعيـــد فيضا من شتى أنواع المآكل وحشدا يكاد يشمل كل صنف من البضائع . وان ما تحتاج اليه بلادنا من كافة أنواع السلع ، كانت السفن تحمله الى الاسكندرية من كافة البلاد الواقعة عبر البحر بكميات كبيرة تفوق ما يصل أية مدينة ساحلية أخرى . وان كل ما يتطلبه ذلك الجزء من عالمنا الافرنجى — من التوابل واللؤلؤ وسائر السلع الشرقية النفيسة الغريبة ، كان ينقل اليها — الاسكندرية من الهند وسبأ وبلاد العرب والاثيوبيتين وكذلك من بلاد فارس وغيرها من البلاد المجاورة . وكانت هذه البضائع تحمل الى الصعيد عن طريق البحر الاحمر ، وهو الطريق لنقل هذه السلع من مواطنها

(١٢) المصدر السابق ص ٢٨١

الى بلادنا . وكانت البضائع توزع فى ميناء عيذاب على ساحل هذا البحر ، ويحملها النيل الى الاسكندرية ... » (١٣) .

ولم يكن هذا المؤرخ الصليبى مبالغا فى قوله ، فالاسكندرية أصبحت الميناء الاول لمصر على ساحل البحر المتوسط بحكم موقعها الجغـــرافى واتصالها بالنيل . وقد تحدث كذلك عن نشاط التجارة بها القلقشندى فى موسوعته ومما ذكره فى هذا الصدد :

« واليها تهوى ركائب التجار فى البر والبحر ، وتميز من قماشها جميع أقطار الارض ، وهى فرضة بلاد المغرب والاندلس وجزائر الفرنج وبلاد الروم والشـــام » (١٤) .

أما الرحالة اليهودى بنيامين التطيلى الذى كان على شاكلة غيـــره من اليهود ، له نظرة عميقة فى الامور التجارية ، فانه اثناء زيارته للاسكندرية فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر للميلاد ، تعرف على مايبدو الى عدد من ربابنة السفن والتجار الاجانب بها وحصل منهم على معلومات هامـــة فى مجال التجارة ونشاط التجار الاجانب . وان المعـــلومات التى جاء بهـــا لا تحوى الكثير من التفاصيل ، الا أنها تساعد بالتأكيد فى القاء الضوء على جوانب أساسية من التبادل التجارى ونشاطه . فقد ترك لنا ثبتا شـــاملا يحوى أسماء العديد من البلاد الاوروبية التى وفد تجارها الى الاسكندرية ومن تلك البلدان الاوروبية التى ورد ذكرها فى هذا الثبت : البندقيـــة ولومبارديا وتسكانيا وصقلية وأما لفى وورومانيا وهنغاريا ورأجوســـا

(13) William of Tyre.II, 336.

(١٤) صبح الاعشى ج ٣ ص ٤٠٨

AUB LIBRARY

وروسيا والمانيا وسكسونيا والدانمرك ونورمانديا وفريزيا والنرويـج وفرنسا وآنجو وبرجنديا وبروفنس وجنوه وبيزه وأرجون ••• » (١٥) •

وتتضح من هذا الثبت كثرة عدد بلاد الغرب الاوروبى التى تعاملت مع الاسكندرية كمركز من مراكز التبادل التجارى الهامة فى الشرق الاسلامى ومع تنوع أصول هذه الجاليات الاوروبية وانتمائها الى بلاد مختلفـة ، تزايد نشاطها مع تزايد عدد أفرادها فى الاسكندرية •

أما المؤرخ روبرت لوبيز Robert Lopez وهو من أبرز المؤرخين الحديثين المختصين بتجارة البحر المتوسط فى العصور الوسطى ، فيلاحظ أن بالرغم من الامتيازات الكبيرة التى حصل عليها التجار الايطـاليون وغيرهم فى الممتلكات الصليبية فى الاراضى المقدسة ، فان ما عقدوه بهـا من صفقات تجارية ، لا يصل بحال من الاحوال الى ماتم لهم عقدة بمدينة الاسكندرية•وعلى سبيل المثال ، فان اهتمام البنادقة بالتجارة ظل مركزا على مصر وممـا يشير الى ذلـك أن القوانين التجارية التى صدرت فى البندقية فى القرن الثانى عشر للميلاد كثر فيها ذكر مدينة الاسكندريـة بشكل يفوق بمراحل ذكر مدينة عكا التى كانت حينئذ مركزا تجاريا هاما فى الامارات الفرنجية بالشام • كما تدل سجلات سكريبا Scriba رجل القانون الدولى المعروف فى جنوة ، على أن عملائه من التجار ، الذين ارتبطت مصالحهم بالاسكندرية ، فى الفترة الممتدة من سنة ١١٥٦ الى سنة ١١٦٤ م ، كانوا من الكثرة ما يجعل عددهم ضعف عدد التجار الذين كان تعاملهم مع الامارات الصليبية فى الشام (١٦) •

---

(١٥) عمر كمال توفيق : الجاليات الاوروبية فى الاسكندرية فصل كتاب مجتمع الاسكندرية عبر العصور مطبوعات جامعة الاسكندرية ، ١٩٧٥ •ص٢٩٥

(١٦) رنسيمان ج ٣ ص ٦٠٦

ومع كثرة أعداد أفراد الجاليات الاوروبية فى المراكز التجاريـة الاسلامية مثل الاسكندرية ، تكونت نظم خاصة بهم عاشوا فى ظلها • وكان قيام هذه النظم بطبيعة الحال على أساس ماسمحت به الشريعة الاسلامية والقرارات والمراسيم التى أصدرها السلاطين بشأن مواصلة الاجـانب كما ارتبطت بمواد الاتفاقيات التى أبرمت بين المسئولين المسلمين والدول التجارية الاوروبية •

وهكذا فان البلاد المصرية والشامية ظلت بحكم موقعها المـكان الاستراتيجى التجارى الذى يلتقى فيه المشتغلون بتجارة الترانسيت • فان هذا الموقع جعلها حلقة وصل بين الشرق والغرب ، وسوقا للتعامل والتبادل التجارى بين آسيا وأفريقيا من ناحية وبلاد البحر المتوسط ودول غرب أوروبا من ناحية أخرى • واستمر ذلك الوضع سنين عديـدة حتى حركـة الكشوفات الجغرافية فى أواخر العصور الوسطى وطلائع العصر الحديث ، حين انتقل مركز التجارة العالمية من البحر المتوسط الى المحيط الاطلسى، وما ترتب عليه من نتائج خطيرة • وعلى أية حال ، فحتى حدوث ذلك ظل الشرق الادنى الاسلامى هو مركز الثقل للتجارة العالمية •

وكان هذا النشاط التجارى يتطلب نشـاطا مناسـبا فى العلاقات الدبلوماسية لتنظيم المعاملات التجارية ومعالجة ما قد يظهر من مشـاكل وكان من الطبيعى أن يصحب ذلك ما يلزم من التمثيل الدبلوماسى بتبادل السفراء والرسل والمراسلات الرسمية ، وأن تقوم المفاوضات بين الاطراف المعنية ، وأن يسفر ذلك عن عقد العديد من المعاهدات والاتفاقيات ذات الطابع التجارى •

AUB LIBRARY

الفصــــل الخـــامس

التمثيـــــــل الدبلومـــــاسى

A U B LIBRARY

مقدمـــــــة :

هناك عناصر أساسية لابد للباحث من تناولها عند ما يتعرض للحديث عن النظم الدبلوماسية • فعليه أن يبدأ بتناول الاصول التى قامت عليها ، ثم يتعين عليه دراسة التمثيل الدبلوماسى ليوضح نظام السفراء أوالرسل وكل ما يختص بشروط اختيارهم ولياقتهم وعملهم ومعاملتهم•ويقتضى الامر التطرق للمراسلات الرسمية والقواعد المتبعة فيها أما المفاوضات فهى عنصر أساسى لابد من العناية بعرضه وايضاحه • وأخيرا تأتى المعاهدات وما يرتبط بها من شروط وطريقة اعداد وصياغة ، ثم تنفيذها أو فسخها وما شاكل ذلك • والواقع أنه وجد قدر كبير من التشابه بين النظـــم الدبلوماسية الاسلامية والنظم التى تستعملها الدول فى العصر الحـــديث ولكنا نجد كذلك قدرا من الاختلاف بين هذه النظم فى عصرها الحديث وتلك النظم التى عرفها المسلمون فى العصر الذى تتناوله هذه الدراسة • ويرجع هذا الاختلاف للظروف التى قامت فيها النظم الدبلوماسية فى الازمنـــة التاريخية المختلفة وما تعرضت له من مؤثرات • وحرصا منا على ايضاح طبيعة هذه النظم فى الفترة التى نعالجها رأينا أن نبدأ ببيان الفارق الرئيسى، بينها وبين النظم فى العصر الحديث :

فالنظم الدبلوماسية فى المرحلة التى واجه فيها المسلمون الصليبيين قد شابهت غيرها من النظم التى عرفتها الدول والامم منذ القدم حتى أخريات العصور الوسطى ، فهى لم تعرف الاستمرار فى نشاطها بل كانت متقطعة ، ولا تمارس الا كلما اقتضت الظروف ذلك فالدول الاسلاميـــة أو الاوروبية ابان عصر الحروب الصليبية ، لم تعرف ما هو مألوف فى العصر الحديث من حيث اعداد دور دائمة للسفارات فى عواصم البلاد ، كما لم تعرف وجود سفراء يمثلون بلادهم بشكل دائم فى البلاد التى لها اتصالات

A U B LIBRARY

بها . بل كان المتبع فى هذا العصر أن الممثلين الدبلوماسيين من سفراء ورسل كانوا يرسلون فى مناسبات خاصة لمفاوضة المسئولين فى الحكومات الاجنبية فيما يعهد به اليهم من أمور ومصالح أو مشاكل لمحاولة الوصول الى اتفاقيات بشأنها ، حتى اذا ما انتهوا من مهمتهم سواء بالتوفيق أو الفشل ، رجع هؤلاء الممثلون الى أوطانهم . وربما كان من الاسباب التى جعلت النشاط الدبلوماسى متقطعا على هذا النحو التشكك فى نوايا الرسل والتخوف من قيامهم بأعمال التجسس أو اثارة الفتن والتخريب فى البلاد التى يوفدون اليها .

أصول النظم الدبلوماسية الاسلامية :

لاشك أن الكثير من أصول النظم الدبلوماسية الاسلامية وقواعدها يرجع الى الشريعة الاسلامية . فالقرآن الكريم مصدر أساسى لا غنى عنه فى توجيه مسارات العلاقات الخارجية للمسلمين ، سواء أكان ذلك فيما يتعلق بالجهاد وشروطه ، أو العلاقات السلمية بما فى ذلك العلاقات الدبلوماسية . كما أن سنة الرسول (صلعم) حافلة بتفاصيل وعناصر أساسية متعلقة بالعلاقات الخارجية ونشاط المبعوثين والرسل والمراسلات والمعاهدات والهدن . وتشمل السيرة النبوية الشريفة القواعد التى قامت عليها المعاهدات التى عقدها المسلمون مع الدول والامارات غير الاسلامية أو بمعنى آخر دول وامارات دار الحرب .

هذا وترجع أصول هذه النظم كذلك الى أقوال الفقهاء المسلمين وما أدلوا به من فتاو وشروح . وهناك اجتهادات الخلفاء وكبار المسئولين المسلمين التى صرحوا بها فى مجال العلاقات الدبلوماسية ، والتى أوصوا بها ولاتهم وقادتهم العسكريين .

وهناك ما يشير الى أن المسلمين استفادوا من خبرة العرب فى عصر ما قبل الاسلام فى مجال الدبلوماسية ، وذلك على ما يتضح فى كتاب ابن الفراء ، حيث جاء به باب خاص تحت عنوان : « فيما كانت قريش تعمل به اذا أرادت أن ترسل رسولا الى الملوك ، وما كانت توعز به الى الرسول فى جاهليتها » (١) .

وفضلا عن ذلك استفاد المسلمون من خبرات الامم السابقة وتجاربها فى مجال الدبلوماسية . ومثلما أخذ المسلمون من مقومات ومؤثرات الحضارات التى اتصلوا بها فى جوانب شتى من حضارتهم فقد استقوا من هذه الحضارات ليزيدوا فى خبرتهم الدبلوماسية ، وذلك على ما تشير اليه المصادر العربية ، وان كان من الصعب أن نجزم متى بدأ هذا التأثر ومقدار ما أخذه المسلمون وطبقوه . وعلى أية حال ، فهناك شواهد واضحة تدل على معرفة المسلمين بالنظم الدبلوماسية لدى الاغريق والفرس والهنود وتأثرهم بها . ومن هذه الشواهد ما أورده ابن الفراء من معلومات فى موضع متعددة من كتابه . فهو يتحدث عن « تقاليد الفرس فى اختيار الرسول وسنن ملوكهم وتعاليم حكمائهم كأردشير بن بابك ، وينقل معلومات عن كتاب خداى نامه . كما جاء ابن الفراء بنصوص من كتاب السياسة الخاصة وسيرة الاسكندر الاكبر ووصايا أرسطو اليه فى موضوع السفارة وصفات السفير ، كما يجد المرء فى كتاب ابن الفراء معلومات تدل على الماما بخبرة الهنود فيما يتعلق بارسال الرسل (٢) .

---

(١) ابن الفراء : الباب ١٥ ص ٥٨ — ص ٥٩ .

(٢) المصدر السابق ص ٥٤ — ص ٥٧ ، أنظر كذلك صبح الاعشى ج١ ص ١١٧ .

AUB LIBRARY

هذا ولابد أن طبيعة الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية لدى كل من المسلمين والفرنجة قد فرضت خصائص مميزة على النظم الدبلوماسية ، وذلك على النحو الذى سيتضح عند عرض عناصر الموضوع بشكل تفصيلى فى مواضع تالية مع ما نقدمه من أمثلة ايضاحية للنظم الاسلامية من واقع تاريخ العلاقات بين المسلمين والفرنجة •

السفراء والرسل

من أبرز ما اهتم المسلمون كان التمثيل الدبلوماسى عن طريق السفراء أو الرسل وكل ما يتصل بهم وبنشاطهم • وسوف نبدأ بالتعريف بمصطلحى الرسول والسفير وفقا لما كان معروفا لدى المسلمين ، ثم ننتقل للحديث عن الشروط التى تطلبوها انتقائهم للسفراء سواء فى هيئتهم لم وصفاتهم الشخصية ، كما سنعالج تشكيل السفارة وعدد أفرادها وسائر الرسوم والبرتوكول مما يتعلق بها •

التعريف بمصطلحى الرسول والسفير :

عرف المسلمون ، فى نظام المبعوثين الدبلوماسيين ، مصطلحى الرسول والسفير • وكلمة الرسول مشتقة من الارسال والاطلاق والتوجيه ، ويتضمن ايفاد شخصى معتمد للقيام بمهمة معينة حقيقية أنهم استعملوا كلمة الرسول لاسباب دينية ، فالرسول فى الدين له معناه ، وله عند الفقهاء دلالة خاصة الا أنه فى المجال السياسى أو عند الملوك والحكام له دلالته • فالرسول هو من يرسل بين حاكمين لدولتين أو امارتين فى أمور خاصة (٣) •

(٣) أنظر مادة رسول فى كتاب التعريفات للجرجانى ت فلوجل ص ١١٥ ، صبح الاعشى ج ١ ص ١١٦ — ص ١١٨ •

ومثلما استعمل المسلمون مصطلح الرسول استعملوا كذلك مصطلح السفير الذى تكرر ذكره ومشتقاته فى العديد من المصادر العربية • ومن مشتقات هذا المصطلح التى عرفوها السفيرى ، وسفير الامة ، سفير الدولة سفير الممالك وسفير الملوك والسلاطين (٤) •وتعرف المعاجم والمصادر العربية بالسفير فتقول أنه « الرسول المصلح بين القوم » • وقد جاء عن السفير فى مادة سفر فى لسان العرب ما يلى : سفر بينهم يسفر سفرا وسفارة وسفارة ، أصلح • ويقال سفرت بين القوم أى سعيت بينهم فى الصلح •

ولم يرد فى المصادر العربية ما يفيد بوجود تفرقة أو تمييز لدى المسلمين فى استعمال مصطلحى السفير والرسول ،كأن يكون ارسال الرسول من قبل أمير أو وزير وارسال السفير من قبل مسئول أعلى ، فهذه التفرقة غير واردة فى تلك المرحلة من التاريخ وانما كان منشأها المفهوم الحديث (٥) • وفى تلك الدراسة المعاصرة التى وضعها ابن الفراء عن نظام الرسل ، لا يجد القارىء تفرقة بين اللفظين لا فى الاختصاصات او المرتبة •

وقد أطلق على كتابه عنوان : رسل الملوك ومن يصلح للرسالة والسفارة ويتكرر فى متن الكتاب استعمال اللفظين كمترادفين ، وان كان الغالب عليه استعمال لفظ الرسول وليس السفير والسفراء •

وكانت المهام التى يضطلع بها السفراء والرسل فى غالبيتها على قدر كبير من المسئولية ، وكانوا يبعثون لانجاز مهام تتفاوت بتفاوت ظروف الحكام والدول والامارات التى يمثلونهما ، وهنا التفاوض من أجل انهاء

(٤) المصدر السابق ج ١ ص ١٥ ، ج ص ٥٣ ، ص ١٤٧ ، ص ١٥٠ ، ص ١٥١ •

(٥) ابن الفراء ص ١٠٩ — ص ١١٠ •

AUB LIBRARY

القتال وعقد صلح ، أو طلاق سراح من وقعوا فى الاسر ، او تسوية خلافات دولتين أو رعاية المصالح المختلفة ومنها المصالح الاقتصادية وخاصة تنشيط التجارة وتأمينها ، أو التفاوض من أجل عقد حلف عسكرى ضد عدو مشترك وغير ذلك •

شروط انتقاء السفراء :

وأمام هذه المهام الخطيرة التى كان يقوم بها الرسل والسفراء كان من الطبيعى أن يدقق المسئولون فى اختيارهم ويحرصوا على توفر مؤهلات خاصة فى هيئتهم وشخصيتهم وثقافتهم ، وكانوا يفعلون ذلك وفقا لقواعد بالغة الدقة،تذكرنا الى حد بعيد بالشروط المطلوبة فى الدبلوماسيين فى العصر الحديث • ومما كان المسلمون يتطلبونه فى سفرائهم الفصاحة والذكاء والجرأة والامانة فى أداء عملهم والدقة فى تنفيذ ما يكفلون به • وقد اهتم عدد من الكتاب المسلمين المعاصرين بشرح هذه المتطلبات وتسجيلها فيما كتبوه • ففى الباب السادس من كتاب ابن الفراء كان من أبرز ما اورده عن الخصائص فى السفير:

« يكون السفير مذكورا ، وسيما مسيما ، لا تقتحمه العين ولا يزدرى بالخبرة ، عفيفا جيد اللسان ، وحسن البيان ، حاد البصر ، ذكى القلب يفهم الايماء ويناظر الملوك على السواء ••• ويجب أن يجمل بكل ما أمكن الوافد ، والعامة ترمق الزى أكثر مما ترمق الكفاية والسداد •• ويجب أن تزاح علله فيما يحتاج اليه ، حتى لا تشره نفسه الى ما يبذل له ويدفع اليه ، فان الطمع يقطع الحجة ، والرسول أمين لا أمين عليه ، فيجب أن يرهن بالاحسان والافضال عليه ••• » (٦) •

(٦) ابن الفراء ط٢ بيروت ص ٣٥

كما يذكر القلقشندى فى كتابه صبح الاعشى عند تناوله خصائص السفير ما يلى : « فانه يستدل على عقل الرجل بكتابه ورسوله • وقد قيل من الحق على رسول الملك أن يكون صحيح الفكرة والمزاج ذا بيان وعارضة ولين واستحكام منعه ، وأن يكون بصيرا بمخارج الكلام وأجوبته ، مؤديا للالفاظ عن الملك بمعانيها صدوقا برئيا من الطمع •

وعلى مرسله امتحانه قبل توجيهه فى مقاصده ، ولا يرسل للملوك الاجانب الا من اختبره بتكرير الرسائل الى نوابه وأهل مملكته ، فقد كان الملوك فيما سلف من الزمان اذا أثروا ارسال شخص لهم ، قدموا امتحانه بارسال الى بعض خواص الملك ممن فى قرار داره فى شىء من مهماته ، ثم يجعل عليه عينا فيما يرسل به من حيث لا يشعر ، فاذا أدى الرسول رسالته رجع بجوابها ، وسأل الملك عينه ، فان طابق ما قاله الرسول مايأتى به من هو عين عليه وتكرر ذلك منه ، صارت له الميزة والتقدمه عند الملك ووجهه حينئذ فى مهمات أموره » (٧) •

ويكتب القلقشندى عن ضرورة متابعة الحاكم لمسلك رسوله والتدقيق فيما ينقله من أخبار ومعلومات قائلا :

« من الحزم أن الرسول اذا أتاه برسالة أو كتاب خير أو شر ، ان يحكى له كتابه او رسالته حرفا حرفا ومعنى بمعنى ، فان الرسول ربما فاته بعض ما يؤله فافتعل الكتب ، وغير ما نوفه به ، فأفسد ما بين المرسل والمرسل اليه : من ملك أو نائب ونحوهما • وربما أدى الى وقوع

(٧) صبح الاعشى ج ١ ص ١١٦

AUB LIBRARY

ءتنة بين الملكين وخروج السائب عن الطاعة وتفاقم الامر بسبب ذلك وسرى الى مالا يمكن تداركه » (٨) .

ويؤكد صاحب صبح الاعشى على فكرة ضرورة التثبيت من عمل الرسل ومراقبتهم فى موضع آخر من كتابه مستندا فى ذلك الى تجارب الحكام السابقين من غير العرب مثل الفرس والاغريق . فيذكر رواية مأخوذة عن الملك الفارسى أردشير بن بابك جاء فيها :

« حق على الملك الحازم اذا وجه رسولا الى ملك أن يردفه بآخر ، وان وجه برسولين وجه بعدهما باثنين ، وان أمكنه ألا يجمع بين رسله فى طريق فعل ... »(٩) . وان هذه الرواية وما تتضمنه لهى مما يوضح معرفة المسلمين بأفكار الفرس والاغريق والهنود وخبرتهم الدبلوماسية .

الفئات التى يختار من بينها السفراء :

والمعلومات عن الفئات التى اختار المسلمون من بينها سفرائهم غير وافيه . وهنا يتساءل المرء عن وجود جهاز ادارى لدى المسلمين من موظفين مختصين يختار من بينهم السفراء . والواقع أنه ليس من السهل تعميم الاجابة على مثل هذا السؤال . ولكن نستطيع القول بوجود نص يرجع الى صدر العصر العباسى يشير الى وجود نظام من هذا النوع . والنص عبارة عن حديث دار بين سفير للخليفة العباسى المعتصم والامبراطور البيزنطى ، فيه يتضح تعجب الاخير من هيئة السفير وفخامة مظهره ، ومن ضخامة الراتب الشهرى الذى يحصل عليه السفير من الخليفة . ولما تساءل الامبراطور عن العمل الذى يقدمه السفير للخليفة مقابل ذلك ، رد قائلا :

(٨) نفس المصدر ج ١ ص ١١٧ .
(٩) نفس المصدر ج ١ ص ١١٧ .

« ان للخلفاء خدما يتصرفون فى أنحاء الخدم ، لكل طائفة مذهب يجتبون له ويحتملون عليه ، ولا يكفلون سواه ، ولا يراد منهم غيره . فمنهم من يعد للفتوح فهو يلبس السلاح ويقود الجيوش ، ومنهم من يعد للقضاء ، فهو يلبس المبردات والدنيات (١٠) ، ومنهم مثلى من يصلح أن توفده الخلفاء للملوك ويتحمل رسائلهم الى مثلك من أهل الجلالة والقدر والسناء والذكر » (١١) .

ولكن ليس لدينا ما يؤكد استمرار مثل هذا النظام الذى عمل به فى عهد المعتصم فيما يتعلق بايجاد جهاز ادارى مختص ينتقى من افراده السفراء . وعلى العموم فالمصادر تتحدث عن أن اختيار المسئولين المسلمين لسفرائهم كان من بين الامراء وكبار موظفى الدولة مثل الوزراء والقضاة وكبار العلماء والتجار وغيرهم . وبالنسبة لاختيار الامراء كسفراء فهناك مثلا دور الملك العادل سيف الدين ، شقيق السلطان صلاح الدين الايوبى الذى عهد اليه السلطان بمهمة الاتصال بريتشارد ملك انجلترا والتفاوض معه لعقد صلح . وهناك كذلك دور القاضى ابن واصل الحموى ، المعروف كذلك كمؤرخ ، وقد أرسله السلطان بيبرس سفيرا له الى الملك مانفرد النورمانى فى صقلية . (١٢) .

ونحن عندما نعرض للفئات التى يختار من بينها السفراء فيجب أن نذكر تلك الصلة التى ربطت بينهم وبين هيئة العاملين فى ديوان الانشاء .

(١٠) الدنيات واحدتها دنيا وهى القلنسوة وكان يلبسها القضاة والاكابر. تاج العروس .
(١١) ابن الفراء ط ٢ ص ٦٤ — ص ٦٥ .
(١٢) أبو الفداء ج ١٤ ص ٣٨ — ص ٣٩ — ، مقدمة مفرج الكروب ج ١ ص ٤ .

AUB LIBRARY

والمرجح أن هذا الديوان كثيرا ما كان يمد السفارات بأفراد ذوى كفاءات عالية للمشاركة فى أعمالها كما يغذيها بالخبرات التى كانت تحتاج اليها فى المهام التى تضطلع • وليس من المستبعد أن تكون لرئيس هذا الديوان ، مع قرب منزلته من الخليفة أو السلطان واعتماده عليه ، آراؤه ومشوراته فى ارسال البعوث الدبلوماسية واختيار السفراء المناسبين ، ومن يكون بمعيتهم من العارفين بأصول المفاوضات وعقد المعاهدات وهذه أمور تقع فى اختصاص كبار العاملين بديوان الانشاء(١٣) •

الوثائق التى يحملها السفراء :

حرص الحكام المسلمون على تزويد سفرائهم بوثائق عرفت باسم التذاكر (المفرد تذكرة) وكانت تتضمن اسم المرسل وصفته وهى أشبه بالجواز الدبلوماسى وأوراق الاعتماد فى العصر الحديث ، وكان يكتبها كاتب خاص بديوان الانشاء ليتقدم بها السفير الى الحكام الموفد اليهم • وكان الرسول يسافر ومعه هذه التذكرة لتكون حجة له فيما يورده ويصدره كما يرجع اليها ان غفل شيئا منها • ونجد فى صبح الاعشى أمثلة لما كانت عليه هذه التذكرة من صياغة • ويأتى فيها بعد البسملة :

« تذكرة منجحة صدرت على يد فلان بن فلان عند وصوله الى فلان بن فلان — ثم يقول قد استحزنا الله عز وجل وفديناك أو وجهناك الى فلان لايصال ما أودعناك وشافهناك به من كذا وكذا • ويقضى جميع الاغراض التى ألقيت اليه مجملة »(١٤) •

(١٣) سوف نتناول بالتفصيل اسهام ديوان الانشاء فى العلاقات الدبلوماسية وذلك فى الفصل الخاص بالمراسلات والفصل الخاص بالمعاهدات •
(١٤) صبح الاعشى ج ١٣ ص ٨١ ، ٩١ ، ص ٩٩ •

وكانت الدولة الاسلامية تكلف كبار الخطاطين بكتابة هذه التذاكر بخط جميل مع التفنن فى زينتها حتى تليق بمقام المراسلة والمهام التى يتولاها السفراء • وكانت تكتب على الورق البغدادى وهو أفضل الانواع ، وهو ورق ثخين يتميز بالليونة والرقة ، وكان يستعمل عادة لكتابة المصاحف(١٥) •

معاملة المسلمين للسفراء الفرنجة

اذا كان المسلمون قدعرفوا نظام السفارات واستعمال السفراء كممثلين دبلوماسيين لهم ، فقد عرفوا كذلك استقبال الرسل والسفراء الاجانب بما فيهم سفراء الفرنجة ومنحوهم امتيازات ترقى لحد كبير الى المستوى الذى تطبقه الدول الحديثة فى علاقاتها الدبلوماسية سواء أكان مراسم الاستقبال وما يحيط بذلك من قواعد اللياقة والحفاوة المناسبة ، وتقديم أوراق الاعتماد وغير ذلك من الميزات الدبلوماسية التى تتمتع بها السفراء الفرنجة أثناء وجودهم فى البلاد الاسلامية • ونعرض فيما يلى أهم مظاهر معاملة المسلمين لهؤلاء السفراء •

أولا : الامان والحصانة الدبلوماسية :

تقوم فكرة حصانة السفير وحرمته فى العصر الحديث على أساس من العرف الدولى والقانون الدولى والنصوص القانونية الدولية التى وضعت فى شأن التمثيل الدبلوماسى (١٦) • أما فى العصور السابقة على تلك

(١٥) المصدر السابق ج٢ ص ٤٧٦ — وقد وصلتنا التذكرة التى أرسلها الخليفة الفاطمى الحافظ مع رسوله الى ملك صقلية النورمانى — نفس المصدر ج ٦ ص ٤٦٣ •
(١٦) من ذلك لائحة فيينا سنة ١٨١٥ م وبروتوكول اكس لا شابل وما جاء بعده من تشريعات •

AUB LIBRARY

التشريعات الحديثة ، فقد اعتمدت حصانة الرسول الى حد كبير على الاحكام الدينية التى حددت القواعد لمعاملة السفراء ونصت على حمايتهم ، وجعلت لهم امتيازات خاصة ، وكانت الشعوب المتحضرة قديما ، تنادى بضرورة مراعاة هذه الحرمة وترى أن عدم مراعاتها أمر يتسبب فى غضب الاله[١٧] ، وقد جاءت الشريعة الاسلامية بقواعد واضحة فى هذا المجال . ويذكر عن النبى ﷺ أنه قال لمبعوثى مسيلمة الكذاب : « والله لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما » .

وهكذا فمنذ فترة مبكرة من تاريخهم ، كان المسلمون يكفلون لمبعوثى أعدائهم من غير المسلمين نوعا من الحصانة والامان يصل الى حد المحافظة على الارواح وقد سار المسلمون وفقا لهذه الشريعة وطبقها الخلفاء والحكام .

وقامت هذه الحصانة على أساس الامان الذى نصت عليه الشريعة والذى طبقه النبى ﷺ واضع أساس الدولة الاسلامية ، وأصبح هذا الامان بعد الممارسة الطويلة لدى المسلمين ، عرفا وقاعدة وجب الالتزام بها من قبل المسئولين فى الدولة الاسلامية[١٩] .

ويخصنا هنا من أنواع الامان التى عرفها المسلمون ذلك النوع الذى كان عهد أمن وسلام يتمتع الحربى بمقتضاه بحماية السلطة الاسلامية خلال

---

(١٧) انظر أوبنهايم : القانون الدولى العام ص ١٩٤٨ ج ١ ص ٦٨٧ وما بعدها .

(١٩) لمزيد من المعلومات عن الامان وأنواعه يمكن الرجوع الى مجيدخدورى: السلم والحرب فى شرعة الاسلام ص ٢٢٠ — ٢٢٨ .

مدة وجوده فى دار الاسلام . وكان هذا النوع يمنحه الامام أو نائبه لواحد أو لعدد من الحربيين ، يكون بمثابة رسول من قومه ، من أجل التفاوض ، ويستحق الحربيون بمقتضاه حماية السلطات الاسلامية . وعند الانتهاء من مهمتهم كان يخرج المستأمنون ويعودون الى بلادهم[٢٠] .

وأهمية الامان أنه كان يتيح للرسول الاجنبى امكانية التنقل فى بلاد المسلمين ، ويمكنه من الاقامة فيها ، على أن يكون ذلك فى حدود ما تسمح به الشريعة الاسلامية .

واذا أثير موضوع حصانة المقر ، فالرد على ذلك أن هذا النظام لم يكن معروفا عند المسلمين أو الفرنجة ، اذ لم يعهد أحد فى هذا العصر وجود مبان خاصة بالسفارات الاجنبية تكون لها حصانتها ، فان هذا التنظيم من مستحدثات العصر الحديث .

ثانيا : مراسم استقبال المسلمين للسفراء الاجانب :

وفضلا عن الامان الذى منحه المسلمون للسفراء الاجانب ، أعد المسلمون « برتوكولات » أو رسوم خاصة لاستقبالهم واستضافتهم وكانت لهم فى ذلك قواعد خاصة وتقاليد دقيقة يحرصون على اتباعها تحقيقا للفائدة التى ترجوها الدول الاسلامية من ورائها ، وكان المسئولون المسلمون يلجأون الى ما يظهر معالم العظمة والقوة فى مراسم الاستقبال ، وذلك لارهاب أعدائهم والتأثير فى من يتصل بهم . كما كانوا يظهرون الكثير من الحفاوة والكرم مع السفراء لاستمالتهم وكسب ودهم . وعادة ما كان يتولون

---

(٢٠) المرجع السابق ص ٢٢١ — ص ٢٢٢ .

A U B LIBRARY

السفراء بالعناية منذ حلولهم بالبلاد الاسلامية وحتى مغادرتهم لها للعودة الى أوطانهم .

وكان المسئولون المسلمون يعتمدون كل سنة قدرا مناسبا من المال للانفاق على استقبال الرسل واستضافتهم كما عرف المسلمون تكليف موظف خاص لاستقبالهم والعناية بأمرهم[٢١] . وفى العصر الايوبى والمملوكى عرف هذا الموظف باسم المهمندار وهو لفظ فارسى يطلق على من يتصدى لتلقى الرسل ويقوم بأمرهم[٢٢] . وبطبيعة الحال كان التعيين فى هذه الوظيفة يقتضى اختيار من يصلح لها من حيث الشخصية والخبرة واللباقة والمعرفة باللغات بقدر الامكان ويبدو أن عمل المهمندار كان به شبه كبير بعمل مدير ادارة المراسم أو التشريفات فى العصر الحديث .

وهناك نص ورد فى صبح الاعشى يتناول بشىء من التفصيل النظام المتبع فى استقبال الرسل ويوضح الخطوات التى تتخذ فى ذلك . وقد جاء فيه ما يلى :

« ... وقد جرت العادة أنه اذا وصل رسول من ملك من الملوك الى أطراف مملكته ، كاتب نائب تلك الجهة السلطان عرفه بوفوده ، واستأذنه فى أشخاصه اليه ، فتبرز المراسم السلطانية بحضوره فيحضر . فاذا وقع الشعور بحضوره فان كان مرسله ذا مكانة عظيمة من الملوك خرج بعض أكابر الامراء كالنائب وحاجب الحجاب ونحوهما للقائه . وأنزل

---

(٢١) من القاب هؤلاء الموظفين الوظائفى فى الدولة العباسية ، نائب صاحب الدار فى الدولة الفاطمية انظر صلاح الدين المنجد : النظم الدبلوماسية فى الاسلام . ص ١٥٣ .

(٢٢) صبح الاعشى ج٥ ص ٤٥٩ .

بقصور السلطان بالميدان الذى يلعب فيه بالكرة ، وهو أعلى منازل الرسل . وان كان دون ذلك ، تلقاه المهمندار ، واستأذن عليه الدوادار ، وأنزله دار الضيافة ، وبعض الاماكن على قدر رتبته . ثم يرتقب يوم موكب ، فيجلس السلطان بايوانه وتحضر أعيان المملكة شأنهم الحضور من أرباب السيوف والاقلام . ويحضر ذلك الرسول وبصحبته الكتاب الوارد معه ، فيمسحه بوجه الرسول ، ثم يدفعه الى السلطان ، فيفضه ويدفعه الى كاتب السر فيقرؤه على السلطان ويأمر فيه »[٢٣] .

ويتضح من هذا النص دقة البروتوكول الذى وضعه المسلمون لاستقبال السفراء واستضافتهم والتمييز بينهم وفقا لاهمية كل منهم أو لمكانة من أوفده أو الظروف التى جاء فيها . ويبرز هذا التمييز فى أمور أساسية منها تحديد الاماكن التى ينزل بها السفراء كل وفق مكانته . كما أن السفير اذا كان درجة عالية من الاهمية خرج للقائه بعض كبار رجال الدولة ، ولم يكتف فى ذلك باستقبال المهندار له . ونعرض فيما يلى بعض النماذج التى حفظتها المصادر لاستقبال المسلمين للسفراء الصليبيين :

استقبال سفارة الملك الصليبى عمورى فى القاهرة :

ومن أفضل الروايات تفصيلا فى استقبال المسلمين للسفراء الصليبيين كان ذلك الوصف الذى جاء عن استقبال رسل الملك عمورى لما حضروا الى القاهرة لمقابلة الخليفة العاضد (١١٦٠ — ١١٧١م) وهو آخر الخلفاء الفاطميين ، وذلك بناء على دعوة من وزيره شاور . وكان مجىء هذه السفارة فى مرحلة احتضار الخلافة الفاطمية فى مصر ، تلك المرحلة التى شاهدت

---

(٢٣) المصدر السابق ج ٤ ص ٥٨ — ص ٥٩ .

AUB LIBRARY

تنافسا شديدا بين الملك العادل نور الدين محمود والملك عمورى على ضم مصر وممتلكاتها . وكانت العلاقات بين الوزير الفاطمى شاور وشيركوه قائد جيش نور الدين فى مصر تأزمت ، وقد وصل الجيش الصليبى الى مشارف القاهرة حيث عسكر لفترة من الزمان . وحاول شاور الخروج من هذا المأزق الذى وقعت فيه البلاد على أثر وجود قوتين أجنبيتين بها ، بالتفاوض مع عمورى وعقد اتفاقية معه ضد نور الدين [٢٤] .

وصاحب هذا الوصف التفصيلى لاستقبال تلك السفارة الصليبية كان المؤرخ وليام الصورى ، الذى كان معاصرا لاحداث تلك السفارة والاستقبال الذى قوبلت به ومما يزيد فى أهمية ما ذكره أنه استند فى ذلك الى روايات شهود عيان من أعضاء السفارة الذى شاركوا فيها وكان على رأسهم هيو أمير قيسارية Hugh of Caesarea الذى كان محل تقدير وثقة لدى وليام .

وبالنسبة لتاريخ وصول هذه السفارة الى القاهرة ، فالملاحظ ان المؤرخ وليام الصورى لم يحدده ولكن بتحليل الاحداث نستطيع القول بأنها كانت سنة ٥٦٢هـ / ١١٦٧م [٢٥] . ونعرض فيما يلى بعض النصوص التى وردت فى هذا الوصف التفصيلى الدقيق :

« دخل مدينة القاهرة هيو أمير قيسارية ، وهو رئيس السفارة الصليبية التى أرسلت الى مصر ، ومعه جيوفرى فولشير ، وهو أحد فرسان

---

(٢٥) المصدر السابق ج ، ص ٣١٤ ، أبو شامة : الروضتين ج ١ ص ١٣١ ، ص ١٤٢ ،ص ١٤٣ .

جماعة الداوية ، وكان دخولهما بمعية السلطان شاور . وعندما بلغ الوفد قصر الخلافة ... مر أعضاؤه بدهاليز ضيقة يكسوها ظلام حالك ، ويتقدمهم حشد من الحراس المسلمين بالسيوف المسلوله . واعترضتهم فى مسيرتهم بوابات متتالية يتولى حراسة كلمنها جماعة من الزنوج المسلمين ، الذين كانوا يهبون وافقين كلما اقترب السلطان ، احتراما له حتى يقدموا التحية الواجبة .

وبعد أن عبروا البوابتين الاولى والثانية ، اصطحب السلطان الوفد الى فناء فسيح مكشوف تغمره أشعة الشمس وتمتد على جوانبه أروقة ذات عمد متراصة ومحلاة بالنقوش البارزة وكانت للاروقة أسقف مزدانه بزخارف ذهبية . أما أرضها فكانت من الاحجار المختلفة الالوان . وقد سادت المكان كله مظاهر البهاء والابهة . فقد تميز بجمال المواد التى استعملت فى اقامته بمهارة ودقة فائقتين ، وبشكل يثير اعجاب وتقدير كل من يشاهده . وان هذا المشهد مع ما كان له من روعة وطرافة لم يكن أحد يمل من النظر اليه على الاطلاق .

وقد وجدت بوسط الفناء أحواض رخامية تسبح الاسماك فى مياهها الصافية . وبالفناء كذلك طيور متعددة الانواع لا مثيل لها فى عالمنا ، وكانت أكبر حجما من الانواع المعروفة لدينا ، كما تميزت بأشكالها العجيبة وألوانها الطريفة ، وكان طعام كل نوع منها يختلف عن طعام غيره .

وعند الانطلاق من هذا الفناء ، تقدم كبير الخصيان وهو يحشد أعضاء السفارة . وواصل الجميع سيرهم حتى بلغوا مبان أخرى يفوق جمالها وابداعها كل ما سبقت لهم مشاهدته من مبان منذ دخولهم ساحة القصر . وهناك وجدت السفارة أصنافا اخرى من الحيوانات بلغت من الغرابة أنها ظهرت

وكأنما رسمتها ريشة فنان ماهر ، أو كأنها هى صورة من الشعر شكلها خيال شاعر موهوب ، أو كأنما هى رؤيا شاهدها الانسان أثناء نومه ٠ وهذه الحيوانات من الانواع التى تعيش فى بلاد الشرق والجنوب ، ويندر أن يشاهدها المرء أو يسمع عنها فى الغرب ٠٠٠

وبعد أن عبرت لسفارة العديد من الممرات الملتفة والطرق الملتوية وبعد أن شاهدت ما بها من عجائب تثير اعجاب الناس وتجتذب اهتمامهم مهما شغلتهم أعمالهم أو همومهم ، بلغت السفارة أخيرا ذلك المكان من القصر الذى يقيم فيه الخليفة ، ووجدته يعج بأعداد غفيرة من الوصفاء والحراس المدججين بالسلاح ٠ وكانت كثرة عدد هؤلاء مع ما تجهزوا به من سلاح ومعدات مما شهد بعظمة مولاهم ومجده على نحو لا نظير له ، مثلما كان المرء يجد فى مظاهر القصر دليلا قاطعا على مدى رخاء الملك وثرائه بقدر لا يتبارى ٠

ولما اقتربت السفارة من هذا الجزء الداخلى من القصر ، سمح لها بالمثول فى قاعة العرش ٠ وهناك أدى شاور ما اعتاد على ادائه من مظاهر التبجيل والاحترام فى حضرة مولاه الخليفة ٠ وعلى الرغم من أن الخليفة لم يكن قد ظهر بعد ، فان شاور فور دخوله القاعة ، خرسا جدا على الارض فى خشوع واستكانة وكأنه فى حضرة الهية وبعد سجوده للمرة الثالثة ، خلع سيفه المتدلى من كتفه وطرحه أرضا وحينئذ أزيحت الستائر التى تحجب العرش ، وكانت موشاه بالالىء والذهب ٠ وتمت ازاحتها بسرعة كبيرة ٠ وظهر على أثر ذلك الخليفة سافر الوجه وهو يجلس على عرش صنع

من الذهب المرصع [٢٦] وكان يحيط به بعض مستشارية وحراسه من الخصيان ، وله من مظاهر الهيبة مالا يجده المرء فى حضرة أى حاكم آخر ٠

وتقدم عقب ذلك السلطان شاور نحو الخليفة بخشوع واحترام ، وقبل قدمى العاهل الجالس على العرش ٠ وبعدها عرض عليه الغرض الذى جاءت من أجله السفارة ، ومواد المعاهدة كما بين له الاحتياجات الملحة للملكه ٠ وذكر كيف أن قوات الاعداء (جيش نور الدين) بأعدادها الكثيفة تقدمت فى البلاد ونفذت الى قلب الدولة ٠ وذكر باختصار ماكان مطلوبا من الخليفة الموافقة عليه من مواد وكذلك ما كان الملك الصليبى سيقدمه فى مقابلها ٠ وأجاب الخليفة على ذلك بسماحة ، ووجهه منبسط الاسارير ، بأنه على استعداد للتصديق على برتوكول المعاهدة الذى تم اعداده ووافق عليه الجانبان بصفة مبدئية ، كما أبدى استعداده للوفاء بشروطها وتنفيذها بدون أى تحفظ ٠ وذلك لما يكنه من اعزاز وتقدير للملك (الصليبى) ٠

وعندئذ طلب المسيحيون أن يتم تصديق الخليفة على المعاهدة بمد يده لمصافحة أعضاء وفدهم ، مثلما فعل الملك الصليبى من قبل (أى مصافحته لرسل الفاطميين) وذلك للدلالة على صدق عهده ٠ وكان هذا الطلب بمثابة صدمة لافراد حاشية الخليفة ومستشاريه وخواصه المسئولين عن تخطيط سياسة الدولة ، وشعورا بغضب شديد بسبب هذا الطلب الذى اعتبروه خروجا على العرف ولا يمكن قبوله ٠ [٢٧]

ولفترة أحجم الخليفة عن تلبية ما طلب منه أداءه ، وأمعن خلالها فى التفكير الا أن السلطان أخذ يستحثه بشكل متواصل على عمل ذلك ٠

---

(٢٦) كان السلاطين الايوبيون والمماليك يجلسون على سرير الملك يوم قدوم السفراء عليهم ، وكان على شكل منبر من الرخام يكون بصدر الايوان وعلى هيئة المنابر فى الجوامع — صبح الاعشى ج٤ ص٦ — ص ٧ ٠

وأخيرا مد الخليفة يده ، وهو متردد ، لمصافحة أمير قيسارية ، وكانت يده مغطاه بقفاز • ولدهشه المصريين الذين لم يألفوا أن يجترىء أحد على الحديث بحرية فى حضرة مولاهم ، قال هيو أمير قيسارية : يا مولاى ان الحق لاداعى لاخفائه • وعندما يتعاهد الامراء بصدق واخلاص ، يجب أن يكون ذلك بوضوح • وان ما يتم ادراجه ، من مواد فى مشروع أى معاهدة بنية صادقة ، يجب أن تكون الموافقة عليه أو رفضه بصراحة وأمانة • فاذا لم تقدم يدك عارية للتصديق على المعاهدة ، فسوف يدفعنا ذلك للتشكك فى نواياكم والقول بوجود تحفظات من جانبكم •

وأخيرا وبعد كثير من التمنع من جانب الخليفة الذى اعتبر أن هذا العمل يحط من قدر جلالته ، ابتسم ابتسامة واهية ، ووضع يده عارية،وهو على مضض فى يد هيو الامر الذى كدر المصريين غاية الكدر • وقد ردد الخليفة الكلمات التى أقرأها عليه هيو من مشروع المعاهدة،مقطعامقطعابكل جلاء ووضوح ، كما أقسم الخليفة على الالتزام بمواد المعاهدة بأمانه كاملة لا تنال منها أية نية سيئة •

وبعد أن صرف الخليفة السفارة ، أرسل الى أعضائها هدايا قيمة تتناسب مع قدرة السامى • وكانت هذه الهدايا من النفاسة والسخاء ما جعل هذا الامير المنعم موضع تقدير أعضاء السفارة الذين غادروا الحضرة الاميرية وعادوا الى بلادهم وهم فى أتم سعادة (٢٧) •

حفل استقبال سفير الامبراطور فريد ريك الثانى فى بلاط الملك الكامل الايوبى (سنة ٦٢٤هـ / ١٢٢٦ — ١٢٢٧م) :

---

(27) William of Tyre. II. 318 — 321

ونجد مثلا آخر لاستقبال المسئولين للسفارات الصليبية فيما أورده المؤرخ العربى المقريزى عن سفارة الامبراطور فريد ريك الثانى الى الملك الكامل الايوبى بعد أن أدت الظروف السياسية لدى كل منهما الى ايجاد تقارب سياسى بينهما •ومما جاء فى وصف هذه السفارة :

« وفيها وصل رسول ملك الفرنج بهدية سنية وتحف غريبة الى الملك الكامل ، وكان فيها عدة خيول ، منها فرس الملك ، بمركب مرصع بجوهر فاخر • فتلقاه الملك بالاقامات من الاسكندرية الى القاهرة ، وتلقاه بالقرب من القاهرة بنفسه ، وأكرمه اكراما زائدا ، وأنزله فى دار الوزير صفى الدين بن شاكر • واهتم الكامل بتجهيز هدية سنية الى ملك الافرنج فيها من تحف الهند واليمن والعراق والشام ، ومصر والعجم ، ما قيمته أضعاف ما سيره ، وفيها سرج من ذهب ، وفيها جوهر بعشرة آلاف مصرية • وعين الكامل لنسير بهذه الهدية جمال الدين بن منقذ الشيزرى (٢٨) •

ثانيا : امتيازات السفراء الاجانب وما يفرض عليهم من التزامات :

والعنصر الثالث الرئيسى فى معاملة المسلمين للسفراء الاجانب يتعلق بالامتيازات التى كانوا يمحنونها لهم ، وكذلك ما يفرضونه عليهم من التزامات أثناء اقامتهم فى دار الاسلام • فضلا عن حصانة الرسل وسلامة من يرافقهم وأمانهم ، درج المسلمون على منحهم تسهيلات وامتيازات خاصة • ومن هذه الامتيازات الاعفاء من دفع الضرائب والمكوس طالما أن ما معهم لم يأتوا به لغرض الاتجار • ويذكر أبو يوسف فى كتابه الخراج فى الفصل المعنون:«فيمن مر بمسالح الاسلام من أهل العرب •••» بمعلومات

---

(٢٨) المقريزى : السلوك القسم الاول ص ٢٢١ — ص ٢٢٣ •

مفيدة تلقى أضواء ساطعة على معاملة المسلمين للسفراء من غير المسلمين جاء فيه أن الرسول اذا قال : « أنا رسول الملك بعثنى الى ملك العرب ، وهذا كتابه معى ، وما معى من الدواب والمتاع والرقيق فهديه له، فانه مصدق ويقبل قوله اذا كان أمرا معروفا ، فان مثل ما معه لا يكون الا على ماذكر من قوله أنها هدية من الملك الى ملك العرب ، ولا سبيل عليه ، ولا يتعرض له ولا لما معه من المتاع والسلاح والرقيق والمال ، الا أن يكون معه شيء له خاص ، حمله للتجارة فانه اذا مر به على العاشر عشره » (٢٩) ولا يؤخذ من الرسول الذى بعث به ملك الروم ولا من الذى قد أعطى أمانا عشرا الا ما كان معهم من متاع للتجارة ، فأما غير ذلك من متاعهم فلا عشر عليهم فيه » (٣٠) كما أن الرسول عند سفره كانت تعفى أمتعته من كل عشر ولا يتعرض له طالما كان ما يخرجه لا يعود بالضرر على بلاد الاسلام ، أما الثياب والمتاع وما أشبهه فلا يمنعون منه .

هذا وكان السفراء الاجانب يمارسون شعائر دينهم بحرية وفقا للتسامح المأثور عن المسلمين فى معاملتهم لاهل الكتاب .

ومن ناحية أخرى كان من الطبيعى ان يتطلب المسلمون من هؤلاء السفراء احترام معتقدات المسلمين وشعائرهم وتقاليدهم ، وأن يمتنعوا عن اى قول أو فعل قد يفسر بأنه مساس بالأسلام وتعاليمه ، كما كان عليهم ألا يقوموا بأى نشاط يؤذى مصلحة الاسلام . ومن التحفظات التى

---

(٢٩) الاشارة هنا الى ضريبة العشور التى كان المسلمون يفرضونها على التجار الاجانب :

(٣٠) أبو يوسف : كتاب الخراج ص ١٨٨ ، الشيبانى : السير الكبير للشيبانى أنظر خدورى ص ٢٢٠ — ص ٢٢١ .

فرضها المسلمون عليهم ، وفقا لما جاء به أبو يوسف « ولا ينبغى أن يبايع الرسول ولا الداخل معه بأمان بشيء ومن الخمر أو الخنزير ولا الربا وما أشبه ذلك ، لان حكمة حكم الاسلام وأهله ، ولا يحل ان يبايع فى دار الاسلام ما حرمه الله » (٣١) . كما وكان من المحظورات التى منع المسلمون السفراء الصليبيين من اخراجها من دار الاسلام حتى لا يعود عليها الضرر من وراء ذلك ، السلاح أو الرقيق ممن وقعوا فى الاسر من أهل دار الحرب (٣٢) .

وقد عرف المسلمون رد الرسل خاصة عند ما تصدر عنهم أعمال لا يقبلها المسلمون أو عندما لا يطمئنون لتصرف الرسل خاصة فى تلك الفترة التى دار فيها القتال بين الجانبين أو التى تزايدت فيها الخلافات ، وتتضح عملية الرد فى موقف السلطان بيبرس من رسول ملك الافرنج وقد علق المؤرخ ابن واصل على هذا التصرف بقوله « وفى ذلك تأديب وحسن سياسة وردع للمعتدين وحفظ لناموس السلطنه واقامة لحرمة المملكة» (٣٣) .

القناصل الافرنج : دورهم ومعاملة المسلمين لهم :

ويحملنا حديثنا عن السفراء الفرنجة ومبعوثيهم ودورهم فى العلاقات الاسلامية الصليبية لتناول النظام القنصلى ودور القناصل، وذلك لما له فى الاذهان من ارتباط بالعلاقات الدولية ومن الاسباب التى تدفعنا للاهتمام بالقناصل أن النظام القنصلى سبق فى قيامه واستقراره نظام التمثيل الدبلوماسى الدائم ، كما أنه قام بدور له أهميته فى العلاقات السلمية بين المسلمين

---

(٣١) أبو يوسف : كتاب لخراج ص ١٨٨ — ص ١٨٩

(٣٢) المصدر السابق ص ١٨٧ — ص ١٩٠

(٣٣) المقريزى : السلوك حوادث سنة ٦٦٠هـ ، ج ١ ق ٢ ص ٤٦٩ ، ابن واصل : مفرج الكروب أحداث سنة ٦٦٠هـ .

والصليبيين ، بل لقد كان للقناصل مشاركتهم فى بعض مظاهر العلاقات الدبلوماسية فى وقت كان فيه التمثيل الدبلوماسى لا يزال منقطعا •

كان ظهور النظام القنصلى ضرورة اقتضاها تطور التجارة الدولية فالتجارة الخارجية تدفع التجار الى الاسفار والاقامة فى بلاد نائية كثيرا ما تختلف فى قوانينها ونظمها وتقاليدها عما اعتاد عليه التجار فى بلادهم • ويصبح هؤلاء فى حاجة لوجود نظام ملائم يعيشون فى ظله فى البلاد التى ينزلون بها ، ويتضح ذلك بشكل خاص فيما يتعلق بعلاقات أفراد الجالية الواحدة بعضهم ببعض • وقد أدى ذلك الى أن كل جماعة من التجار الذين ينتمون الى بلد واحد يختارون شخصا من بينهم من التجار يتولى شئون جاليتهم ، ويقضى فى المنازعات الداخلية بين أفرادها وفقا لشرائعهم الوطنية الخاصة • وكان من المسميات التى أطلقت على هذا الشخص لقب القنصل الذى قدر له الانتشار أكثر من غيره من الالقاب ، كما كتب له الاستمرار حتى العصر الحديث • ولكن الملاحظ أن اختصاصات القنصل قد اتسعت مع مرور الوقت •

ومع امتداد النشاط التجارى الخارجى لدول غرب أوربا الى الجزء الشرقى من حوض البحر المتوسط انتقل معها هذا النظام القنصلى الاوربى الى تلك الانحاء وجاءوا به الى الدولة البيزنطية والدول والامارات الاسلامية فى الشرق الادنى • ومع زيادة التعامل التجارى بين الغرب الاوروبى والبلاد الاسلامية ، خاصة بعد أن أسهمت الحركة الصليبية فى نموه وازدهاره ، أصبحنا نجد جاليات متعددة من التجار الفرنجة فى تلك البلاد ، وكان من الطبيعى أن يتبع ذلك انتشار القناصل الاوروبيين فيها ونستطيع أن نخرج بانطباع دقيق عن انتشارهم فى المدن الاسلامية

وخاصة فى المدن الساحلية من المعلومات التى سجلها الرحالة **بنيامين التطيلى** الذى زار منطقة الشرق الادنى والاسلامى وترك وصفا يدل على كثرة الجاليات التجارية الاوربية فى الشرق وخاصة فى مدينة الاسكندرية ، وما كان يتبع ذلك من انتشار القناصل بها •

والواقع أننا لازلنا فى حاجة لمزيد من المعلومات للتعرف بشكل واضح على الدور الذى قام به القناصل الاوروبيون فى البلاد الاسلامية فى عصر الحروب الصليبية • وعلى أية حال فمن المعلوم أن المسئولين المسلمين قد سمحوا بوجودهم ومنحوهم مع جالياتهم بعض الامتيازات والتسهيلات رغبة من هؤلاء المسئولين فى ارضائهم والاستفادة من التعامل التجارى معهم وما يحققه ذلك من أرباح • ومن الثابت أيضا أن القناصل ظلوا حتى هذا الحين يختارون محليا بمعرفة تجار من بنى وطنهم ، ولم تكن للقنصل المختار صلة رسمية مباشرة بحكومة بلده الاصلى • فلم تكن له أصلا صفة رسمية لتمثيل دولته أمام السلطات الاسلامية • ومما يوضح الطريقة التى يتم بها تعيين القنصل كان ماذكره المؤرخ الفرنسى المعروف دى كانج Du Cange من أن ملك أرجون قد اصدر سنة ١٢٦٨ م عهدا منح بمقتضاه تجار برشلونه المتنقلين فى البحار ، الحق فى تعيين قناصل لهم يرعون مصالحهم (٣٤) •

ومن الثابت أن القنصل ظل يرعى شئون مواطنيه فى المدينة التى يوجد بها ، كما كان عليه أن ينظم كافة الامور المتعلقة بتجارتهم ومشاكلها • وكان يرأس المحكمة الخاصة بهم ، ويصادق على توقيعات العقود والوصايا والصكوك وغيرها من الوثائق •

---

(٣٤) انظر : Consul in The Oxford English Dictionary

ولكن مالبثت أن دخلت فى اختصاصات القنصل مسائلة أخرى منها أنه أصبح يمثل مواطنه أمام السلطات الاسلامية فى المدينة • وأصبحت هذه السلطات لا تسمح للافرنجى بدخول المدينة الا بعد موافقة قنصل الجالية التى ينتمى اليها ، على أن يتقدم القنصل بمعلومات دقيقة عن كل تاجر قبل السماح له بنزولها • وكان يسمح للقناصل بمتابعة كل ما يتم فى ديوان الخمس فيما يتعلق بأفراد جاليتهم • وكان يعاون القنصل من بنى وطنه بعض المساعدين يرأسهم شخص يدعى الفندقى ، وكان من اختصاصاته الاشراف على الفندق الذى يخصص لكل جالية • وكان يحق للقنصل أن يرفع شكاوى بنى وطنه الى السلطات الاسلامية العليا •

هذا وقد أدت عوامل خاصة أدت الى تطور فى مهام القنصل ومسئولياته فى تنظيم العلاقات بين الدولة التى ينتمى اليها والدولة الاسلامية التى يقيم بها • ففى هذه المرحلة من التاريخ واجهت التجارة بين المسلمين والفرنجة مشاكل وعقبات احتاجت الى من يجد حلولا لها فالحكام المسلمون كثيرا ماكانوا يتشككون فى التجار الاجانب ونوايهم خاصة فى الاوقات التى تشتعل فيها الحروب بين الجانبين ، وكان المسلمون يخافون من أعمال التجسس واثارة الفتن من جانب هذه العناصر • هذا وكانت طرق المواصلات البرية والبحرية بحاجة الى جهود متواصلة يبذلها المسئولون من الفرنجة لتحقيق أمان التجار وسلامة بضائعهم • كما أن المعاهدات التى أبرمت بين الطرفين لم تكن لتضمن استقرار الامان بشكل دائم لهؤلاء التجار • وفضلا عن هذا وذاك فان تلك المرحلة من التاريخ لم تعرف وجود سفراء دائمين أو بعثات دبلوماسية مستقرة تتولى الاشراف على المعاهدات وتعمل على تسوية المشاكل التى يواجهها رعايا دولهم •

وفى مثل تلك الاوضاع وما اكتنفها من مشاكل واحتياجات ، كان من الطبيعى أن تتجه الانظار الى القناصل ليقوموا بدور أكبر فى العلاقات بين الدول التى ينتمون اليها وبين السلطات الاسلامية • وليس من المستبعد ان يكون هؤلاء القناصل اسهموا بشكل مباشر أو غير مباشر فى العلاقات الدبلوماسية ، بما فى ذلك المفاوضات والتمهيد لعقد المعاهدات الى جانب ما قاموا به فى رعاية شئون مواطنيهم فى الشرق • وهناك ما يؤكد مشاركتهم كشهود على عقود المعاهدات ، مثل تلك المعاهدة التى أبرمت بين السلطان قلاون والجنوية فى ، جمادى الاول سنة ٦٨٩ هـ (مايو ١٢٩٠م) [٣٥] •

ولاعجب اذن أن أسهمت تلك الاوضاع فى جعل الحكومات الاوروبية تتولى مسئولية تعيين القناصل مما أدى الى اكتساب هؤلاء صفة رسمية بعد أن أصبحوا ممثلين لدولهم ، وأخذ النظام القنصلى يتحول الى نظام تتعهده الدولة وتضفى عليه الطابع الرسمى ، وكان ذلك التحول مع أواخر التاريخ العصور الوسطى وبداية العصر الحديث [٣٦] •

---

(٣٥) محيى الدين عبد الظاهر : تشريف الايام والعصور ص ١٦٨ •

(٣٦) انظـر :
Consul, Encyclopedia Britannica
أبو هيف : القانون الدبلوماسى والقنصلى ص ٢٩٥ — ص ٣٠١ ، عمر كمال « الجاليات الاوروبية فى الاسكندرية » فصل فى كتاب مجتمع الاسكندرية عبر العصور — ص ٢٩٧ ، ص ٣٠٣ •

الفصـــــل الســـــادس

المراســـلات الدبلوماســـية

كانت للمراسلات أو المكاتبات أهميتها ومكانتها بين النظم الدبلوماسية الاسلامية • وكثيرا ما أسهمت بدورها الى جانب ما يقوم به السفراء من مهام ، ويمكننا القول أن نظامى السفراء والمراسلات الدبلوماسية كانا مكملان لبعضهما • ولم تكن هذه المراسلات بالامر المستحدث على عهد الحروب الصليبية ، بل لقد عرفها المسلمون منذ عهد النبى (صلعم) واستعملها من بعده الخلفاء والحكام والامراء المسلمون •

الغرض من المراسلات :

وغالبا ما قصد المسلمون من وراء ما بعثوا به من رسائل رسمية التأكيد على الامور التى يكفلون بها سفرائهم وتدعيم موقفهم فى المهام التى يقومون بها لدى المسئولين من الفرنجة • وكانت هذه الامور والمهام تتراوح ما بين محاولة تسوية خلافات مع الفرنجة وعقد هدنة أو معاهدة معهم ، أو رعاية المصالح المختلفة وخاصة المصالح الاقتصادية • كما هدفت بعض هذه المراسلات لتكوين أحلاف سياسية أو عسكرية •و منها كانت مراسلات بعث بها الحكام المسلمون للرد على اتهمات وجهها الفرنجة لهم تنقض هدنة من الهدن ، أو مراسلات لايجاد التفسير المناسب لبعض التصرفات السياسية أو العسكرية أو الاقتصادية الى يقوم بها المسلمون • ومن تلك الرسائل كان ذلك النوع الذى بعث به الحكام المسلمون لترهيب أعدائهم والنيل من معنوياتهم وتعديدهم بشن الحرب ضدهم [١] •

وقد عرف المسلمون ماللمراسلات الدبلوماسية من أهمية فى العلاقات الدولية ، ولذا أولوها اهتماما بالغا وعناية كبيرة • ولا يخفى على الباحث

---

(١) سوف نعرض بعض نماذج لتلك المراسلات فى موضع تال من هذا الفصل .

المدقق ما يتميز به تلك المراسلات من خصائص • فهى الى جانب تميزها بأسلوب رفيع فى المخاطبة ودقة فى التعبير وبراعة فى البيان ، كانت لها قواعد وقوانين خاصة تحكمها وتحدد مسارها وفقا لما تقتضيه لاحوال والظروف التى يبعث فيها بكل رسالة •

وقد عهد المسئولون المسلمون الى جهاز ادارى خاص للاضطلاع بمسئولية اعداد تلك الرسائل وكتابتها والرد على ما يرد اليه من مراسلات من الخارج •

ديوان الانشاء والمراسلات الدبلوماسية :

كان ديوان الانشاء هو الجهاز الادارى المختص الذى تولى مهمة المراسلات الرسمية للدولة بما فى ذلك مراسلاتها الدبلوماسية • والواقع أنه كان جهازا محكم التنظيم يعمل فيه موظفون أكفاء مدربون ، كان عليهم تحرى الدقة فى كل مرحلة من مراحل عملهم •

ومما يدل على شدة الاهتمام بنظم العمل فى هذا الديوان وما يصدر عنه منه مكاتبات رسمية ، كانت تلك المؤلفات العديدة التى وضعها بعض كبار المسئولين بديوان الانشاء ، والتى كانت بمثابة دساتير دقيقة هدفت لتنظيم العمل به وضبط ما يصدر عنه من الرسائل • ومن أبرز هذه الدساتير بالنسبة للفترة التى قامت فيها العلاقات بين المسلمين والفرنجة ، كان كتاب التعريف بالمصطلح الشريف لشهاب الدين بن فضل الله العمرى (ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٩م) وكتابه التثقيف • وبطبيعة الحال فان كتاب صبح الاعشى للقلشندى له أهمية خاصة فى هذا المجال ، فهو يتميز على امثاله من الكتب التى وضعت عن العمل فى ديوان الانشاء ، بشموليته ووفرة المعلومات التى يقدمها وتحريه الدقة فى عرض ما تناوله •

ووحرصت هذه الدساتير بصفة عامة على الخوص فى كل ما يتعلق بسير العمل فى الديوان ، وقام بعضها بتناول أدق التفاصيل المتعلقة به ، فتعرضت لبيان المؤهلات المطلوبة فى الكتاب الذين يعملون به ، والتنظيمات الادارية لهذا الجهاز وسير العمل فيه ، وكذلك القواعد والرسوم التى يجب اتباعها فى المكاتبات واختلافها وفقا لمكانة وظروف من توجه اليهم وكذلك وفقا للموضوعات والاغراض التى ترسل من أجلها •

وكان الكتاب المسئولون عن الانشاء ، أو الكتابة الرسمية بما فيهم رئيس الديوان ، هم أهم العناصر العاملة به نظرا لوهلاتهم وما يقومون به من أعمال • وكان يشترط فيهم مستوى رفيع من الكفاءة والثقافة والدراية السياسة • وقد أفاضت بعض الدساتير فى بيان الصفات الشخصية والعلوم المتعددة التى كان على هؤلاء الكتاب أن يلموا بها • وتناولت المسلك الذى يجب على الكاتب أن يسلكه فى تصرفه ، وطرق معاملته لمن يتصلوا به ، والاداب التى لابد وأن يتحلى بها • كما كان يشترط فى الكاتب أن يتقن العربية وعلومها ، فضلا عن معرفته بأحوال الامم وتقاليدها • وكان يتوقع منه أن يكون خبيرا بما تحتويه المكتبات الرئيسية أو خزائن الكتب من مؤلفات وأن يكون مطلعا على أنواع مختلفة من العلوم المتداولة سواء أكانت من العلوم الشرعية أو العلوم الطبيعية ، وكذلك علم الاخلاق والسياسة والاحكام السلطانية • وأن هذه المتطلبات فى الكتاب المنشئين ، تعطينا فكرة واضحة عن المستوى الفكرى والادارى الرفيع الذى كان عليهم أن يصلوا اليه حتى يتمكنوا من أداء عملهم أداء حسنا (٢) •

(٢) تناول القلقشندى المؤهلات المطلوبة فى كتاب الانشاء وفى رئيسهم وبشكل مفصل فى صفحات عديدة من موسوعته ، وافاض فى ذلك فى المقالة الاولى وفى جزء من المقالة الثانية وبلغ عدد الصفحات التى تناولت هذا الموضوع ٥٦٢ صفحة انظر : صبح الاعشى ج ١ ص ٦١ ، ص ١٠١ ، ص ١٠٤ ، ص ١٤٨ — ص٤٦٦ وغيرها من الصفحات .

ولتشعب العمل وكثرته بالديوان ، وجدت به طبقتان أساسيتان من الكتاب : الطبقة الاولى وهى طبقة كتاب الدست ، وهم الذين يجلسون مع رئيس الديوان بمجلس السلطان أو هم الملمون بقواعد المراسلة والكتـابة وصياغة الرسائل التى ترسل للملوك والامراء ، وكذلك صيغ المعاهـدات والهدن • والثانية وهى طبقة كتاب الدرج وكتبون ما يوقع به كاتب السر أو كتاب الدست ، فى دروج من الورقه • والدرج هو الورق المستطيل المركب من عدة أوصال متلاصقة • [٣]

كما كان هناك من كتاب الديوان من يقومون بالمراجعة وتصفح مايكتب تجنبا لما قد يحدث من سهو أو زلل أو خطأ أو لحن وعثرات • [٤] ومـن خصائص التنظيم الادارى فى الديوان كان عمل دفتر خاص لتسجيل الاحداث الكبرى الداخلية منها والخارجية حتى يمكن الرجوع الى هذا السجل عند الضرورة [٥] • وعرف العمل فى الديوان تصنيف الموضوعات والرسـائل الصادر منها والوارد وترتيبها ووضعها فى أضابير مع جعل علامات على رؤوس الاوراق واشارات الى مضمون ما جاء فيها ، وعمل نسخ كاملة لها اذا دعت الحاجة ، وذلك حتى يسهل الرجوع اليها عندما يتطلب الامر ذلك • وبعد تلك الاجراءات كان الموظفون المختصون يسلمونها الى الخازن ليتولى الاحتفاظ بها فى قسم خاص بالمحفوظات فى الديوان [٦] •

---

(٣) المصدر السابق ج ١ ص ١٣٧ — ص ١٣٨ •
(٤) المصدر السابق ج ١ ص ١٣٣ •
(٥) المصدر السابق ج ١ ص ١٣٥ •
(٦) المصدر السابق ج ١ ص ١٣٥

وكانت هناك شروط خاصة مطلوبة فى الخازن لابد مراعاتها عند تعيينه نظرا لخطورة المسئوليات التى يتحملها • وقد جاء فى تحديد هذه الشروط وطبيعة عمل الخازن ما يلى : يختار لهذه المهمة رجل ذكى عاقل مأمون بالغ الامانة والثقة ونزاهة النفس وقلة الطمع الى الحد الذى لا يزيد عليه • فان زمام جميع الديوان بيده • فمتى كان قليل الامانة ربما أمالته الرشـوة الى اخراج شىء من المكاتبات من الديوان وافساد سر من الاسرار ، فيضر الدولة ضررا كبيرا [٧] • وكان يتعين على الخازن الحضور بين يدى كتاب الديوان • فكان الكاتب المنشىء يقوم بعمله ثم يسلمه للمتصدى للنسخ، فينسخه بدقة ويكتب أعلى نسخه كتاب كذا ، ويذكر التاريخ بيومه وشهره وسنته ، ثم يسلمه للخازن ، وكذلك يفعل بالنسبة للكتب الواردة ، ويجعـل عليها بطاقة ، ثم يجمع الاضابير ويجعل اضباره واحدة لمراسلات الشهر وهكذا كان على هذا الخازن مسئولية حفظ جميع ما فى هذا الديوان من نسخ من الكتب الصادرة والكتب الواردة ، والا يفرط فى ذلك بأى شكل •

ولم يفت المهتمون بديوان الانشاء والمراسلات أن يتطرقوا لتحديد أنواع الورق الذى يستعملونه فى المكاتبات الدبلوماسية ، ونصـوا على استعمال الورق الفاخر المعروف بالورق البغدادى وأن يكون أبيض اللون، أما كتب التعزية فتكون فى العادة صفراء [٨] كما تحدثوا عن أنواع الدوى والاقلام التى تستعمل فى الكتابة والخطوط التى تكتب بها الرسائل ومقدار البياض فيها والبعد بين السطور [٩] •

وكانت اللغة العربية هى اللغة التى استعملها المسلمون فى مراسلاتهم

---

(٧) المصدر السابق ج ١ ص ١٣٥ — ص ١٣٦ •
(٨) وأحيانا تكون كتب التعزية فى ورق أزرق ، المصدر السابق ج٧ ص٣٥٧
(٩) المصدر السابق ج ٦ ص ١٨٩ — ص ١٩١

مع الفرنجة ، كما كانت المكاتبات الواردة من هؤلاء عادة مكتوبة باللسان الافرنجى • وعلى أية حال كان للمسلمين وسائلهم للتغلب على الاختلاف اللغوى فى مراسلاتهم الدبلوماسية •

كان المسلمون يدركون منذ أمد بعيد مدى احتياج الكاتب الى معرفة اللغات الاعجمية • وهناك من الروايات ما يدل على اهتمام النبى (صلعم) بذلك وحثه لكتابه على تعلمها • ويسجل القلقشندى استمرار اهتمام المسلمين بأن يعرف كتابهم المختصين اللغات الاجنبية لاهمية ذلك فى المراسلات الدولية ، وقد قال فى ذلك : « ولا يخفى أن الكتاب يحتاج فى كمانه الى معرفه لغة الكتب التى ترد عليه لملكه أو أميرة ، لفهمها ويجيب عنها من غير اطلاع ترجمان عليها ، فانه أصون لسر ملكه وأبلغ فى قصده »•(١٠)

وهناك ما يفيد بوجود موظفين مختصين بالترجمة يعملون فى الديوان ويصف القلقشندى اجراءات الترجمة فى الديوان قائلا أن عقب ورود الرسائل من الفرنجة ، كان المسئولون بالديوان يتسلمونها ويفحصون ختمها ثم يفكونها • ويترجمها بعد ذلك الترجمان بالابواب السلطانية • ولو أن المصادر لا تلقى ما يكفى من الاضواء على طبيعة هؤلاء التراجمة وطريقة اعدادهم • وكان الترجمان يكتب الترجمة فى ورقة مفردة ويلصقها بالكتاب الوارد ، ثم يكتب الرد من واقع النص المعرب • (١١) وكان المسلمون يحرصون على حفظ هذه المراسلات الافرنجية الواردة على الديوان ، ويعملون لها فهرستا خاصا للاحتفاظ بها وبترجمتها الى العربية فى قسم المحفوظات المعهود به الى الخازن (١٢) •

(١٠) المصدر السابق ج ١ ص ١٦٥ — ص ١٦٦ •
(١١) المصدر السابق ج٨ ص ١٢٣ •
(١٢) المصدر السابق ج١ ص ١٣٥ •

وفضلا عن كل ما سبق ذكره ، كان المسئولين عن انشاء الرسائل الدبلوماسية على دراية كاملة بالمناصب الرئيسية لدى الفرنجة والالقاب التى يحملها شاغلوها ، سواء أكانوا من رجال الدين أو العلمانيين • وقد وضع بعض أصحاب الدساتير ديوان الانشاء الرسوم الخاصة لمخاطبة كل منهم • وبلغت الدقة لدى المسلمين فى الالتزام بالقوانين والرسوم الخاصة بالمراسلات أن أعدوا سجلا أو دفترا خاصا فى الديوان احتوى على ألقاب كبار موظفى الدولة كما احتوى جميع ما يخص ألقاب رؤساء الدولة الاجنبية بما فيهم الفرنجة (١٣) • وكان هذا الدفتر يضم ألقاب الملوك الاباعد والمكاتبين من البلاد المختلفة مع ترتيب صيغ الدعاء لهم ومقدارها • وكان هذا الدفتر حاضرا لدى كتاب الانشاء ليرجعوا ليه فى مكاتباتهم وينقلون عنه ما يحتاجون اليه • ويحذر القلقشندى ، كمسئول كبير فى الانشاء يدرك أهمية مراعاة الدقة فى رسم المكاتبات الدبلوماسية من خطورة عدم الالتزام بذلك فيقول : « ولا يتغافل عن ذلك فانه متى أهمل شىء من ذلك زل بزلله الكتاب وصاحب الديوان والسلطان نفسه »(١٤)

ويؤكد هذا المؤرخ على نفس الفكرة فى ضرورة مراعاة الدقة فى التمسك بهذه القواعد والرسوم ، وخطورة الخروج عليها فى موضع آخر من كتابه حيث يقول : « اذا اعتمدها الكاتب ومشى على نهجها ونسج على منوالها ، أصاب سواء الثغره من الصناعة وطبق المفصل بالمفصل فى الاتيان بالمقصد ومتى أهملها وفرط فى مراعاتها ضل سواء السبيل وخرج عن جادة الصواب (ومن يضلل الله فماله من هاد) » (١٥) •

(١٣) المصدر السابق ج ١ ص ١٣٤
(١٤) المصدر السابق ج ١ ص ١٣٤ •
(١٥) المصدر السابق ج٦ص١٨١

هذا وقد حرص القلقشندى على تقديم مزيد من المعلومات عــن الرسوم المتبعة فى مخاطبة المسئولين من الفرنجة وغيرهم من الشــعوب غير الاسلامية التى كان المسلمون على اتصال بهم وذلك حين خصص لذلك فصلا فى موسوعته عنوانه : رسم مكاتبه أهل الكفر المتعارف عليه بديوان الانشاء بمصر » [١٦] الذى جمع فيه خلاصة ما توصل اليه واضعو دساتير ديوان الانشاء فى هذا العمل •

وهكذا كان للمسلمين قواعدهم الدقيقة وأسلوبهم الدبلوماسى الرفيع فى مخاطبة كبار المسئولين من الفرنجة مثل بابا روما وملوكهم وملكاتهم ونوابهم وقناصلهم والمسئولين عن المدن التجارية الايطالية مثل دوك — البندقية — والبودشطا — والكبطان فى جنوة ، ومقدمى الجماعات الرهبانية المحاربة مثل الاسبتارية والداوية وغيرهم من أعيان الافرنج • ونقدم فيما يلى نماذج المراسلات المسلمين وسوف نقسم هذه النماذج الى قسمين : الاول وهو خاص بالبروتوكول الذى اتبعوه فى مكاتباتهم مع عدد من أصحاب المناصب الكبرى من الفرنج ، والقسم الثانى وهو عبارة عن رسائل مختارة من التى بعث بها المسلمون اليهم فى مناسبات مختلفة ، مع التعليق اللازم عليهـــــا •

---

(١٦) المصدر السابق ج ٦ ص ١٧٣ — ص ١٨١

القســم الاول مــن النمـــاذج

بروتوكول مكاتبــة المسلمين للافرنج

رسم مكاتبه بابا (باب) رومــا : [١٧]

« ضاعف الله تعالى بهجة الحضرة السامية ، الباب الجليل ، القديس، الروحانى ، الخاشع ، العامل بابا روميه ، عظيم المــلة المسيحيه ، قــدوة الطائفة العيسوية ، مملك ملوك النصرانية ، حافظ الجسور والخلجان ، ملاذ البطاركة والاساقفة والقسوس والرهبان ، تالى الانجيل ، معرف طائفته التحريم والتحليل ، صديق الملوك والسلاطين » •

رسم مكاتبة ملوك الفرنجة : [١٨]

« ••• الملك الاجل الاعز الكبير المؤيد الخطير ، العالم العامــل الظهير العادل الاوحــد المجتبى ، شمس الملة النصرانية ، جــلال الطائفة الصليبية ، عضد الامة الفرنجية ، فخر أبناء المعمودية، عمــدة الممالك ضابط العساكر المسيحية ••• ثبت الله نعمه معزز موارد جــوده وديمه ••• »

ومن الرسوم الواردة المستعملة فى مخاطبة ملوك الفرنج :

« الحضرة السامية ، الملك الجليل الهمام ، الاسد الباسل الضرغام الغضنفر ••• بطل النصرانية ، عماد بنى المعمودية ، حامل راية المسيحية وارث التيجان ، شبيه مريحنا المعمدان ، محب المسلمين صديق الملــوك والســلاطين •»

---

(١٧) نقلا عن التثقيف أنظر صبح الاعشى ج ٦ ص ١٧٣ ، ج ٨ ص ٤٣ •

(١٨) المصدر السابق ج ٦ ص ١٧٦ ، ج٧ ص ١١٨ •

رسم مكتابة الملكة الافرنجية : (١٩)

« الملكة الجليلة المكرمة المبجلة الموقرة المفخمة المعززة فلانة العالمة فى ملتها العادلة فى مملكتها ، كبيرة دين النصرانية ، نصيرة الملة العيسوية ، حامية الثغور ، صديقة الملوك والاسلاطين » ٠

رسم مكاتبه النواب ٠ والقناصل : (٢٠)

« القومص الجليل المبجل المعزز الهام الاسلام الضرغام ٠٠٠ فخر الامة المسيحية رئيس الطائفة الصليبية ، كبير الامة العيسوية ٠٠٠ »

رسم مكاتبة المسئولين عن المدن التجارية الايطالية :

دوك (Doge) البندقيـــة : (٢١)

« الدوك الجليل المكرم المبجل الموقر البطل الهمام الضرغام الغضنفر الخطير مجد الملة النصرانية ، فخر العيسوية ، عماد بنى المعمودية ، معز بابا روميه ، صديق الملوك والسلاطين » ٠

حكام جنـــوة : (٢٢)

(وهم البودشطا والكبطان والمشايخ)

« حضرة البودشطا والكبطان الجليلين ، المكرمين الموقرين المبجلين الخطيرين ، فلان وفلان ، والمشايخ الاكابر المحترمين ، أصحاب الرأى

(١٩) المصدر السابق ج ٦ ص ١٧٩ ، ج١٤ ص ٤٠ ٠
(٢٠ من رسالة بيبرس الى أمير انطاكية وطرابلس ٠ ملاحق السلوك للمقريزى ج ١ ص ٩٦٦ ٠
(٢١) صبح الاعشى ج ٦ ص ١٧٩ ، ج ٨ ص ٤٧ ٠
(٢٢) المصدر السابق ج ٨ ص ٤٦

والمشورة ، الكمنون (القومون) بجنوة ، أمجاد الامة المسيحية ، أكابر دين النصرانية ، أصدقاء الملوك والسلاطين ٠

الدعـــاء : (٢٣)

(ويدرج فى الرسائل فى الحالات المناسبة لتحقيق التقارب والتفاهم)

« ٠٠٠ وجعل له من السلامة يدا لا تزعزعه من أوطانه ، ولا تنزعه من سلطانه ، ولا توجد له الا استقرارا لتيجانه ، واستمرارا بملكه على مادارت على حصونه مناطق خلجانه ولا برحت ثمار الود تدنو من أفنانه ٠٠٠ »

القسم الثانى من النمـــاذج

الرســـائل

الوثيقة الاولى

رسالة تعزية وتهنئة من السلطان صلاح الدين الايوبى الى الملك الفرنجى بردويل « بولدوين الرابع » :

تعليـــق :

أمدتنا المصادر بعدد من المراسلات الاسلامية الى الفرنجة التى تعرفنا بذلك النمط الدبلوماسى الرفيع الذى استعمله المسلمون فى مراسلاتهم ٠ ومن أفضل ما يستطيع الباحث أن يقدمه من نماذج تلك المراسلات كانت الرسالة التى بعث بها صلاح الدين الى ملك الفرنجى بردويل « بولدوين الرابع » فى بيت المقدس ٠ وهى من الرسائل الطريفة الهامة ، حيث أنها صدرت من سلطان عظيم الشأن عرف عنه اهتمامه ببناء الوحدة الاسلامية ومجاهدة

(٢٣) المصدر السابق ج ٨ ص ٥١ ٠

الصليبيين ، الا أن هذا ام يوقفه دون مراسلة الملك بردويل للتعزية فى موت ابيه وتهنئة الملك الجديد باعتلاء العرش .

وقد حفظ لنا هذه الوثيقة التاريخية الهامة القلقشندى ولم يبلغنا ورودها فى أى من المصادر الاخرى التى اهتمت بالتاريخ لعصر صلاح الدين مثل ما كتبه ابن شداد والعماد الكاتب وكانا من معاصريه . والرسالة من انشاء القاضى الفاضل الذى كان رئيسا لديوان الانشاء فى دولة صلاح الدين ، وكان انشاؤها بناء على طلب السلطان .

ومن الملاحظ على الرسالة أنه لم يرد فيها ما يحدد السنة التى أرسلت فيها ، ولكن يفهم من مضمونها أنها أرسلت قبل استرجاع صلاح الدين لبيت المقدس ، حيث ورد فيها أن بردويل كان يومئذ مسئولا عن بيت المقدس وما يتبعها من بلاد .

وعند تحقيق شخصية بردويل وتحديدها ، فمن الواضح أن بردويل انما هو تحريف لاسم بولدوين . ويلاحظ أن ابان عهد صلاح الدين الممتد من ١١٧٤ الى ١١٩٣م جلس على عرش المملكة الصليبية كل من بولدوين الرابع (الابرص) (حكم من ١١٧٤ الى ١١٨٥م) والذى له من العمر ثلاث عشرة سنة عندما اعتلى العرش وفاة أبيه أملريك (عمورى الاول) (٢٤) . كما جلس على العرش الصليبى بولدوين الخامس (١١٨٥ — ١١٨٦م) الذى كان صبيا صغيرا وهو ابن سيبيلا أخت الملك بولدوين الرابع من أمير يعرف باسم وليام مونتفرات ، وقد خلف خاله فى حكم المملكة (٢٥) . واذا أخذنا بقول القلقشندى وما ذكرته الرسالة بأن العزاء

(٢٥) المرجع السابق ص ٣١ .

كان موجها للملك الابن عند وفاة والده الملك الراحل ، فيكون بردويل المذكور هو بولدوين الرابع الذى كان اعتلاؤه لعرش بيت المقدس فى باكور حكم صلاح الدين ويكون ذلك فى سنة ١١٧٤م اى فى الفترة التى أعقبت موت نور الدين (مايو ١١٧٤م) حين كان على صلاح الدين أن يواجه المشاكل الداخلية التى أعقبت وفات مولاه نور الدين ، وكان فى حاجة حينئذ لمهادنة الصليبيين .

هذا ويذكر القلقشندى أن السلطان بعث الرسالة مع سفارة خاصة يرأسها أحد أمرائه وهو الرئيس العميد مختار الدين .

نص الرسالة : (٢٦)

« ... خص الله الملك المعظم حافظ بيت المقدس بالجد الصاعد ، والسعد الساعد ، والحظ الزائد والتوفيق الوارد ... فان كتابنا صادر اليه عند ورود الخبر بما ساء قلوب الاصادق ، والنعى الذى وددنا أن قائله غير صادق بالملك العادل الاغر الذى لقاه الله خير ما لقى مثله ... معز بما يجب فيه العزاء ، ومتأسف لفقد الذى عظمت به الارزاء . الا أن الله سبحانه قد هون الحادث ، بأن جعل ولده الوارث ... فهنيئا له ما حاز ، رسقيا لقبر والده الذى حق له الفداء لو جاز ... ومما جاء فى الرسالة ... وليعلم أنا له كما كنا لابيه : مودة صافية ، وعقيدة وافية ، ومحبة ثبت عقدها فى الحياة والوفاة ... » .

(٢٦) صبح الاعشى ج٧ ص ١١٥ — ص ١١٦ — ومما يسترعى الانتباه فى هذه الرسالة الرسمية أن السلطان صلاح الدين فى مخاطبته للملك الصليبى لقبه حافظ بيت المقدس ، وليس ملك بين المقدس . وهذا على مايبدو يرجع الى تحفظ من جانب المسلمين نظرا لاهمية هذه المدينة بالنسبة لهم ، وعدم استعدادهم للتنازل عن حقهم فى حكمها .

الوثيقـــــــة الثانيـــة

رسالة الملك الجواد الايوبى الى الامبراطور فريديريك الثانى (فرانك حاكم صقلية (شعبان ٦٣٠هـ / مايو ١٢٣٣م) :

هذه الرسالة من انشاء أحد كتاب الدولة الايوبية عن لسان الملـك الجواد ، وكان ذلك فى عهد الملك الكامل الذى فرضت عليه مشاكله مـع المسلمين أن يدخل فى علاقات دبلوماسية مع الامبراطور فريديريك الثانى انتهت بعقد المعاهدة المعروفة بينهما فى سنة ٦٢٦هـ – ١٨ فبراير ١٢٢٩م .

وقد بعث الملك الجواد هذا الخطاب بعد سنوات قليلة من عقـد هذه المعاهدة . وكان هذا الملك أحد الامراء المسئولين فى دولة الملك الكامل. والرسالة جاءت للتأكيد على استمرار الاتفاقية من جانب المسلمين ودوام العلاقات الودية مع الامبراطور .

ويفهم من هذه الرسالة أنها كانت ردا على رسالة بعث بها فريديريك الثانى الى الملك الجواد . وفى هذا اشارة الى تبادل الرسائل بين الطرفين والحرص على استمرار العلاقات بينهما . ومن ابرز العبارات التى وردت فى الرسالة والتى تؤكد علاقات المودة الصداقة كانت تلك العبارة التى جاء فيها أنه « لا فرق بين المملكتين » ويقصد بذلك المملكة الايوبية ومملكة فريديريك الثانى .

نص الرســـــالة : (٢٧)

« ... وردت المكاتبة الكريمة الصادرة عن المجلس العالى ، المولى

(٢٧) المصدر السابق ج٧ ص ١١٧ – ص ١١٨ .

الملك ، الاجل ، الاعز الكبير ، المؤيد ، الخطير ، العالم العامل ، الظهيـر العادل ، الاوحد ، المجتبى ، شمس الملة النصرانية ، جلال الطائفة الصليبية، عضد الامة الفرنجية ، فخر أنباء المعمودية ، عمدة الممالك ضابط العساكر المسيحية ، قيصر المعظم فلان معز امام روميه ، ثبت الله لديه نعمه ، وعزز موارد جوده وديمه ، وأمضى صوارم عزائمه وأعلى هممه ، ولا برحت أنوار سعده ، تتلالا ، وأخبار مجده ، تبسط وتتعالى وسحائب الالسنة الناطقة بحمده تستهل وتتولى ، الى أن يتحلى جيد الضحى بعقود الليل ، وتطلع الشعرى من مطالع سهيل – فجدد الثناء على جلاله ، وأكد المديح لاحسانه وافضاله ، وأنفس أسباب المودة والمصافة ، وشدد أواخى الاخلاص والموافاة فاستبشرت النفوس بوروده وسرت القلوب بوفوده ، ووقف منه على الاحسان الذى نعرفه ، ووجد عقده مشتملا على جواهر الوداد الذى نألفه ، فشكر الله على هذه الالفة المنتظمة والمحبة الصادقة المـكرمة . والمجلس العالى الملك الاجل أعلى الله قدره ، ونشر بالخير ذكره ، أولى من أهدى المسرات ، بورود المراسم والحاجات ، ووصل الانس بـكريم المكاتبات ، مضمنة السوانح والمهمات .

فأما ما ذكره المقام العالى السلطانى الملكى الكاملى الناصرى – زاده الله شرفا وعلوا – من أنه لا فرق بين المملكتين ، فهذا هو المعتقد فى صدق عهده ، وخالص وده ، ولازال ملكه عاليا ، وشرفه ناميا ، ان شاء اللهتعالى .

الوثيقـــــة الثالثــــة

مراسلات متبادلة بين السلطان بيبرس ومقدم الاسبتارية لتحـديد مسئولية خرق لهدنة : (٦٦١هـ / ١٢٦٣م)

اعتلى الظاهر بيبرس العرش فى مرحلة لها أهميتها حيث أنها أعقبت انتصار المماليك على المغول فى موقعة عين جالوت سنة ١٢٦٠ م ، التى قام بيبرس بعدها بشن سلسلة من الهجمات على المراكز الصليبية التى أخذت تتساقط الوحدة تلو الاخرى فى يديه • وكان من أشد ضرباته تلك التى وجهها الى الجماعتين الداوية والاسبتارية اللتين اعتصم أعضاؤها فى عدد من الحصون الرئيسية ونشطت هجمات بيبرس مراحل عقدت فيها الهدن بين الطرفين •

وهذا النص الذى نعرضه عبارة عن مراسلات دارت بينه وبين مقدم الاسبتارية حول تحديد الطرف المسئول عن خرق هدنة التى عقدت بينهما • والملاحظ مما ورد فى هذه المراسلات أن كلا من الطرفين يحمل الاخر المسئولية عن ذلك • كما ان السلطان فى مراسلاته يتحدث من مركز قوة ويهدد الاسبتارية باستعمال القوة العسكرية ضدهم ، وذلك على سبيل الضغط عليهم •

نص المراسلات : (٢٨)

« ••• وكان مقدم (٢٩) الاسبتار قد كتب عدة كتب ، منها جواب عن مشافهة على لسان كمندو (٣٠) الداوية ، مضمونها : انكم نقضتم العهد بأمور منها سوف تسمعونها ، يعنى بأخبار التتار • فكتب السلطان اليهم : ان شرط الهدنة التى كانت بيننا لا تجدد بناء ، وقد شرع بيت الاسبتار فى

(٢٨) من ملاحق كتاب السلوك للمقريزى ج ١ ص ٩٦٥ نقل من ابن واصل مفرج الكروب (أحداث ٦٦١هـ)

(٢٩) كان مقدم الاسبتارية ورئيسها تلك السنة F. Hugh Revel

(٣٠) هذا اللفظ تعريب حرفى لكلمة Commander ، وهو احد المناصب الكبرى فى نظام الاسبتارية والداوية ،ويلى الرئيس العام للجماعة فى ترتيب الوظائف الكبرى •

بناء ربض على أرسوف وغير ذلك ، وهذا من بعض ما ينقض العهد • فردوا الى السلطان : انا لم نبن هذا الربض الا لحماية الصعاليك من متجرمة المسلمين ، الى غير ذلك مما يشبه هذا الكلام • فكان جواب الملك الظاهر : أما تجديد الربض لحفظ الصعاليك ، فالبلاد ما تحفظ بالاسوار ، ولا تحفظ الرعية ولا (كذا) بالخنادق ، ولا تحفظ الا بأحد أمرين ، اما بالسيوف والعزائم ، واما باحسان الجيرة وكف الاذى • ومن يخاف من اللصوص لم لا يخاف من غيرهم ؟ وأما أمر التتار ، فقد علم كل أحد أنا عندما تحصنتم بالاسوار والخنادق خرجنا نحن الى التتار ، وما جعلنا حصوننا الا خيولنا ولا خنادقنا الا اسيوفنا ، ولا أسوارنا الا رجالنا • وأما قولكم ان قلاعكم ما تخاف الا الله ، ولا يجسر أحد أن يصل اليها • فسوف ترون كيف يكون الوصول اليها ، ان شاء الله تعالى • وما يفزع من أخبار التتار الا مثلكم ، والا هذه عساكرى أولها فى الفرات وآخرها فى عيذاب ، وهاهى متواصلة »•

الوثيقة الرابعة

رسالة السلطان بيبرس الى بوهيموند السادس أمير أنطاكية وطرابلس

(سنة ٦٦٧هـ / ١٢٦٨م)

بعث بيبرس بهذه الرسالة فى أعقاب نجاحه فى الاستيلاء على مدينة أنطاكية (١٤ رمضان ٦٦٧هـ — ١٢٦٨م) وكان هذا حدثا بالغ الاهمية فأنطاكية كانت احدى الامارات الكبرى التى تكونت منها المملكة الصليبية فى الشام ، كما كانت ثانى هذه الامارات من حيث تاريخ تأسيسها ، وتعتبر من أغنى مراكزها اذ تكدست بها الاموال بشكل يثير الدهشة • ولذا كان سقوط هذه المدينة مؤشرا لتداعى الكيان الصليبى فى الشام ومشجعا للمسلمين على مواصلة الجهاد •

وعند سقوط المدينة أعمل السيف فى رقاب عدد كبير من الفرنجـة كما وقع كثيرون منهم فى الاسر مما أدى الى انخفاض سعر الرقيق ، ولكثرة المغانم التى حصل عليها الفاتحون صارت النقود توزع على الجنـــود بالطاســـات •

ولا عجب بعد احراز هذا النصر الكبير ، أن يكتب السلطان الى الامير بوهيموند هذه الرسالة من أجل ترهيبه وترهيب غيره من الصليبيين حتى يضعف من عزيمتهم ويمهد للاستيلاء على ما تبقى من الممتلكات الصليبية •

والرسالة تظهر تهكم بيبرس لما آل اليه أمر بوهيموند بعد ضياع أنطاكية • ومن الطريف أن نلاحظ أن بيبرس فى سخريته منه والاقلال من شأنه ، خاطبه فى الرسالة على أنه قومص Oomes أو كونت فى العربية وليس على أنه من مرتبة الامراء أو البرنسية المعربة من اللفظ اللاتينى Princespes أو الامير ، اذا يقول بيبرس فى مخاطبته لبوهيموند : المنتقلة مخاطبته بأخذ أنطاكية منه من البرنسية الى القومصية •

وكان اشتداد بيبرس على بوهيموند والصليبيين فى حملاته ومراسلاته انما يرجع لما قام به بعضهم فى المرحلة السابقة من الاتصال بالمغول ومحاولة التحالف معهم ضد المسلمين •

نص الرســالة : (٣١)

« ••• قد علم القومص الجليل المبجل ، المعزز الهمام الاسد الضرغام، بيمند فخر الامة المسيحية ، رئيس الطائفة الصليبية ، كبير الامة العيسوية،

---

(٣١) من ملاحق السلوك للمقريزى ج ١ ص ٩٦٦ — ص ٩٦٩ نقلا عن النويرى : نهاية الارب محفوظ بدار الكتب ، العينى : عقد الجمان ص ٢٢٩ فى Recueil Hist Or, II, P 229.

المنتقلة مخاطبته بأخذ أنطاكية (منه) من البرنسية الى القومصية ، ألهمه الله رشده ، وقرن بالخير قصده وجعل النصيحة محفوظة عليه • ماكان من قصدنا طرابلس وغزونا له فى عقر الدار ، وما شاهده بعد رحيلنا من اخراب العمائر وهدم الا عمار • وكيف كنست تلك الكنائس من بساط الارض ، ودارت الدوائر على كل دار ، وكيف جعلت تلك الجـزائر من الاجسـاد على ساحل البحر كالجزائر ، وكيف قتلت الرجال واستخـدمت الاولاد وتملكت الحرائر ، وكيف قطعت الاشجار ولم يترك الا ما يصلح لاعواد المجانيق ان شاء الله والستائر ، وكيف نهبت لك ولرعيتك الاموال والحريم والاولاد والمواشى ، وكيف استغنى الفقير وتأهل العازب ، واستخـدم الخديم وركب المـاشى •••

••• فلو رأيت خيالتك وهم صرعى تحت أرجل الخيول ، وديارك والنهابة فيها تصول ، والكسابة (٣٢) فيها تجـول ، وأمـوالك وهى توزن بالقنطار ، وداماتك (٣٣) وكل أربع منهن تباع فتشترى من مالك بدينار — ولو رأيت كنائسك وصلبانها قد كسرت ونشرت ، وصحفها من الاناجيل المزورة قد نثرت ، وقبور البطارقة قد بعثرت ، ولو رأيت عدوك المسلم وقد داس مكان القداس والمذابح ، وقد ذبح فيه الراهب والقسيس والشماس، والبطارقة وقد دهموا بطارقة ، وأبناء المملكة قد دخلوا فى المملكة ، ولو شاهدت النيران وهى فى قصورك تخترق ، والقتلى بنار الدنيـا قبل نار الاخرة تحترق ، وقصورك وأحوالها قد حالت ، وكنيسة بولص وكنيسـة القسيان وقد زلت وزالت — ، لكنت تقول : ياليتنى ترابا ! وياليتنى لم أوت بهذا الخبر كتابا ! » ، ولكانت نفسك تذهب من حسرتك ، ولكنت تطفىء

---

(٣٢) الذين همهم الحصول على المكاسب •

(٣٣) بدو أنه تعريب لكلمة Dames أي النساء

تلك النيران بماء عبرتك ، ولو رأيت مغانيك وقد أقفرت من معانيك ، ومراكبك وقد أخذت فى السويدية بمراكبك ، فصارت شوانيك من شوانيك ، لتيقنت أن الاله الذى أعطاك أنطاكية منك استرجعها ، فالرب الذى أعطاك قلعتها منك قلعها ، ومن الارض اقتلعها .

ولتعلم أنا قد أخذنا بحمد الله منك ما كنت أخذته من حصون الاسلام: وهو دير كوش وشقيف كفر دنين ، وجمية ما كان فى بلادأنطاكية،واستنزلنا أصحابك من الصياصى ، وفرقناهم فى الدانى والقاصى ، ولم يبق شىء يطلق عليه اسم العصيان الا النهر ، فلو استطاع لما سمى بالعاصى (٣٤) ، وقد أجرى دموعه ندما ، وكان يذرفها عبرة صافية ، فما أجراها بما سفكناه فيــه دمــا .

وكتابنا هذا يتضمن البشرى لك بما وهبك الله من السلامة ، وطول العمر بكونك لم يكن لك فى أنطاكية فى هذه المدة اقامة ، وكونك ما كنت بهــا فتكون اما قتيلا واما أسيرا ، واما جريحا واما كسيرا ، وسلامة النفس هى التى يفرح بها الحى اذا شاهد الاموات ، ولعل الله ما أخرك الا لان تستدرك من الطاعة والخدمه ما فات . ولما لم يسلم أحد يخبرك بما جرى خبرناك ، ولما يقدر أحد يباشرك بالبشرى بسلامة نفسك وهلاك ما سواها باشرناك بهذه المفاوضة وبشرناك ، لتتحقق الامر على ما جرى .

وبعد هذه المكاتبة لا ينبغى لك أن تكذب لنا خبرا ، كما أن بعد هذه المخاطبة يجب أن لا تسأل غيرها مخبرا » .

---

(٣٤) الاشارة هنا الى نهر العاصى الذى يرجع المسلمون تسميته هــذه لان مجراه يسير فى اتجاه معاكس لاتجاه مجارى الانهار التى عرفوها ، فلهذا اطلقوا عليه العاصى او الذى يعصى الله .

الفصــــل الســــابع

المفــــاوضات

جاء فى التعريف بالدبلوماسية « أنها ادارة العلاقات الدولية عن طريق المفاوضات » • وان هـذه العبارة التى يأخـذ بهـا كثير من البـاحثين والدبلوماسيين ، تشير بشكل مباشر وبوضوح الى أهمية المفاوضات كعنصر أساسى فى الدبلوماسية والى الارتباط الوثيق بينهما •

فالمفاوضات لها أهميتها فى تسوية المشاكل والخلافات القائمة وتهدئتها والعمل على وضع حد لـمـا يقوم من حروب ، كما أنها تؤدى دورا أساسيا فى التمهيد لعقد المعاهدات والتصديق عليها ، هذا وتعمل المفاوضات كذلك على رسم المسار بالنسبة لمستقبل العلاقات الدولية •

وتتطلب المفاوضة الحرص واللباقة ومراعاة انتهاج الوسـائل التى تلائم الظروف المحيطة وتوافق أمزجة المخاطبين والتأثير عليهم ، كما تحاول أن توحى اليهم بما يتطلب عمله واقناعهم به ، هذا مع تجنب الاصـطدام بالطرف المتفاوض الاخر مما قد يؤدى الى توقف المفاوضات أو قطعها • هذا وتشمل المفاوضات الكثير من الحوار والاخـذ والرد ، كما تتـأثر فى مسارها بما يحيط بها من ظروف سياسية وعسكرية واقتصادية • ومع كل هذا ، فان المفاوضات ، فى ذاتها ، لا تضمن بالضرورة ايجاد حلول نهائيـة للصراعات والمشاكل القائمة بين الدول[1] •

ومع كثرة المناسبات التى قامت فيها المفاوضات بين المسلمين والفرنجة على مدى قرنين من الزمان ، فان المصادر التاريخية لا تزودنا بمعلومات تفصيلية ونحن اذا وجدنا وصفا تفصيليا لحالات معدودة من المفاوضات فان ذلك يكون على سبيل الاستثناء وربما كان من أسباب ندرة المعلومات

---

(١) عمر الخطيب : «الدبلوماسية والمفاوضة فى الصراعات الدولية » المجلة العربية للعلوم الانسانية — الكويت — العدد ١٧ — المجلد الخامس (١٨٥) — ص ٦٧

عن المفاوضات بأنها فى غالبية الاحيان كانت تحاط بالسرية والكتمان على النحو الذى اقتضته الظروف • وعلى أية حال فمن واقع ما وصلنا من معلومات نستطيع أن نكون صورة عامة للمسار الذى اتبعه المسلمون فى تفاوضهم •

كانت مهمة التفاوض تقع عادة على عاتق المبعوثين الرسميين او السفراء الذين يمثلون السلاطين والملوك والامراء الذين يعهدون اليهم بهذا العمل • وكان على المتفاوضين من الجانبين الاسلامــى والصليبى أن يتحركوا أثناء أداء مهامهم داخل الحدود التى رسمتها الشريعة الاسلامية من ناحية وقوانين الافرنج وعاداتهم من ناحية أخرى • كما أن ما قام من مفاوضات بينهم كان يتأثر بالاحوال الداخلية والخارجية لكل من الطرفين •

وكانت المفاوضات تجرى بطريقة شفوية ، وان كان هناك ما يشير أيضا الى ارفاقها بمكاتبات ومراسلات تحريرية فى بعض الحالات ، وهكذا كان يتم الجمع بين الطريقتين الشفوية والتحريرية أحيانا • ومن الناحية الزمنية قد تستغرق المفاوضة جلسة واحدة وقد تمتد الى عدة جلسات ، وذلك حسب المشاكل التى تتناولها المفاوضات ، مما قد يدعـو الى تكرار اللقاءات مع استغراق الوقت اللازم لدراسة ومراجعة المفاوض للسلطات العليا فى بلده لعرض الاتفاقيات المبدئية وكان من المعتاد الرجوع الى السلطات العليا لاعتماد ما يعقد من معاهدات والتصديق عليها • ولكن حتى فى هذه المرحلة كان المفاوضون يشاركون بحضورهم وما يقدمونه من مشورة ، وأحيانا كانوا يقومون بمزيد من التفاوض فى المرحلة الاخيرة لعقد المعاهدة اذا تطلب الامر •

ومما يوضح لنا المراحل التى يمر بها المتفاوضون حتى يصلوا الى تشكيل « بروتوكول » المعاهدة أو الاتفاق المبدئى عليها ورجوعهم الى

أصحاب السلطة العليا فى بلادهم للتصديق عليها ، كان ذلك الوصف الذى أورد القلقشندى حيث قــال : « ••• الفرنج كانوا مجاورين للمسلمين يومئذ ببلاد الشام ، فيقع الاتفاق والتراضى بين الجهتين على فصــل ، فيكتبه كاتب من كل جهة من جهتى المسلمين والفرنج بألفاظ مبتذلة غير رائقة ، طلبا للسرعة ، الى أن ينتهى بهم الحال فى الاتفاق والتراضى الى آخر فصول الهدنة ، فيكتبها كاتب الملك على صورة ما جرى فى المسودة ليطابق ما كتب به كاتب الافرنج ، اذ لو عدل فيها كاتب السلطان الى الترتيب وتحسين الالفاظ وبلاغة التركيب ، لاختل الحال فيها عما وافق عليه كاتب الفرنج أولاد فينكرونه حينئذ ويرون أنه غير ما وقع عليه الاتفاق لقصورهم فى اللغة العربية ، فيحتاج الكاتب الى ابقاء الحال على ما توافق عليــه الكاتبان فى المسودة » (٢) •ومما يلاحظ هنا أن القلقشندى ، وهو الحريص على سلامة صياغة المعاهدات ، ينتقد رداءة الاسلوب الذى كتب به بعض المعاهدات ، الا أنه يرجع ذلك الى طبيعة الظروف التى أعدت فيها والتى عرضناها فيما سبق •

المفاوضات بين صلاح الدين الايوبى وريتشارد قلب الاسد ملك انجلترا

ونحن نكاد ألا نجد من المعلومات التفصيلية الوافية عن المفاوضــات بين المسلمين والفرنجة فى أى مرحلة من مراحل علاقاتهم ، مثل تلك المعلومات القيمة التى وصلتنا عما قام من مفاوضات بين السلطان صلاح الدين وريتشارد ملك انجلترا أبان وجود الحملة الصليبية الثالثة فى الشرق (من ربيع ١١٩١ حتى خريف ١١٩٢م (٥٨٧ ــ ٥٨٨هـ) أى فى تلك الفترة التى الى جانب ماشهدته من معارك عسكرية بين الجانبين والتى حرص

---

(٢) صبح الاعشى ج ١٤ ص ٧٠ ــ ص ٧١

المهتمون بالتاريخ العسكرى على التاريخ لها ، فانها تميزت بشكل خاص بما واكبها من نشاط دبلوماسى يتمثل بشكل خاص فيما دار من مفاوضات وتبادل المراسلات الى أن انتهت بعقد تلك المعاهدة التى تعرف باسم صلح الرملة فى ٢ سبتمبر ١١٩٢ (٢٢ شعبان ٥٨٨هـ) • ويرجع الفضل فى تزويدنا بمعلومات أساسية عن هذه المفاوضات الى المؤرخ بهاء الدين بن شداد ، كما ساعد فى ذلك العماد الكاتب •

والواقع أنه كان من حسن الحظ أن اهتم المؤرخ بهاء الدين بن شداد بأخبار هذه المفاوضات وزودنا بوصف تفصيلى مسهب لها نكاد الا نجد له نظيرا فى المصادر الاخرى التى تناولت تاريخ العصور الوسطى • كما ترجع أهمية ما تركه ابن شداد الى أنه كان معاصرا للاحداث كما كان فى موقع يمكنه من التعرف على مجرياتها بفضل صلته الوثيقة بصلاح الدين بل ومشاركه ابن شداد نفسه فى بعض الاحداث • فقد دخل ابن شداد فى خدمة صلاح الدين فى جمادى الاول سنة ٥٨٨هـ (يوليو ١١٨٨م) وعينه قاضيا للعسكر وللقدس الشريف وصار ملازما للسلطان حتى وفاته ، ولهذا فان الاحداث التى تناولها ابن شداد فى تاريخه « النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية أو سيرة صلاح الدين » شاهدها بنفسه وشارك فيها أو اعتمد على مصادر ثقة فى كتابته عنها وعلى حد قوله : « ومن هذا التاريخ أى منذ التحاقه بخدمة السلطان — ما أسطر الا ما شاهدته أو اخبرنى به من أثق به خبرا يقارب العيان » (٣) •

كما تناول تلك الاحداث مؤرخ معاصر آخر وهو العماد الكاتب الذى كان كذلك من رجال صلاح الدين المقربين والمشاركين فى الاحداث ،

(٣) ابن شداد ص ٨٣

ويزودنا كتابه « الفتح القسى فى الفتح القدسى » بمعلومات وان جاءت مقتضبة ، الا أنها تساعد فى القاء أضواء نافعة على النشاط الدبلوماسى ، وذلك بفضل الملاحظات والتعليقات الدقيقة التى دونها مؤلف الكتاب •

وعندما نتحدث عن دبلوماسية صلاح الدين وقبوله للمفاوضة فى هذه المرحلة فليس معنى ذلك أنه كان يفضل انهاء القتال مع الفرنجة عقب وصول الحملة الصليبية الثالثة الى الشرق بعقد صلح معهم ، بل كان يفضل مواصلة الجهاد لو سمحت له الظروف بذلك ، الأمر الذى يتضح فيما أسر به السلطان الى ابن شداد بقوله : « متى صالحناهم لم نؤمن غائلتهم ، فانى لو حدث لى حادث الموت ما تكاد تجتمع هذه العساكر ، ويقوى الفرنج والمصلحة ألا نزال على الجهاد حتى نخرجهم من الساحل أو يأتينا الموت » (٤) •

وعلى أية حال ، فأمام تزايد الخطر الصليبى عقب وصول الحملة الثالثة والى جانب ما قام به من أعمال عسكرية ، قرر صلاح الدين الالتجاء الى الدبلوماسية للاستعانة بها فى مواجهة ما استجد من مخاطر صليبية • وكان الملك ريتشارد وغيره من الفرنجة حريصين كذلك على الدخول فى مفاوضات مع السلطان •

ومما يلاحظ على هذه المفاوضات كثرة تردد الرسل بين الجانبين وتعدد ما تبادله الجانبان من مراسلات ، والتجائهما الى ما هو معهود فى المفاوضات من ترغيب وترهيب ، وقد أبدى كل منهما مهارة فى المفاوضة والمساومة وفقا للظروف التى أحاطت بكل مرحلة من مراحل المفاوضات • كما يلاحظ أن صلاح الدين لم يقصر اتصالاته الدبلوماسية على الملك ريتشارد ، بل سمح لبعض الامراء الصليبيين الاخرين مثل كونراد أمير

(٤) المصدر السابق ص ٢٠٢ — ص ٢٠٣

صور بالاتصال به • وكان هدفه فى ذلك ايجاد توازن دبلوماسى يعود على المسلمين بالفائدة ، مما يؤدى الى اضعاف مركز ريتشارد عند المفاوضة معه، هذا وفى عدة مناسبات تبادل الطرفان الهدايا • ومما يلزم التنويه به أن السلطان صلاح الدين لم ينفرد باتخاذ القرارات أثناء المفاوضات بل كان يلجأ فى المواقف الدقيقة الى عرض الامور على كبار أمرائه ورجال دولته لاستشارتهم وذلك قبل أن يقرر المسار الذى تسير فيه المفاوضات •

مفاوضـــات أولى :

ولقد بدأت المراسلات والمفاوضات بين صلاح الدين وريتشارد عقب وصول الاخيرالى الشرق ،واستمرت أثناءالقتال الذى دار عند مدينة عكا• وعلى أثر اشتداد المقاومة الاسلامية فى عكا ضد الصليبيين ، وصل رسول من ريتشارد طالبا الاعداد لعقد جلسة خاصة — مؤتمر قمة — يجتمع فيه صلاح الدين بالملك الانجليزى ، بدون تحديد مسبق للاساس الذى تقوم عليه المفاوضات بينهما • وكان صلاح الدين فطنا كما كان دبلوماسيا فى رده، فقد اعتذر عن عقد مثل هذا الاجتماع مطالبا بضرورة تحديد القـــاعدة وجاء فى رده على هذا الطلب الملوك لا يجتمعون الا عن قاعدة ، وما يحسن الحرب منهم بعد الاجتماع والمؤاكلة ••• [٥] ويبدو أن الهدف من الاتصالات الاولى كان أن يحاول كل طرف التعرف على قوة النفس وضعفها عـــند الطرف الاخر ومدى استعداده للمواجهـــة • ومن الطريف أن نذكـــر ان أثناء هذه الاتصالات أهدى ريتشارد السلطان بعض الطيور الجارحة

---

(٥) المصدر السابق ص ١٦٣ — ذكر العماد الكاتب ، أنه لـــا طلب ريتشارد الاجتماع بالسلطان ، رد الملك العادل والافضل على رسول ملـــك انجلترا قائلين : « لايمن لقاء السلطان لكل من يرسل ، وماكل مقصود عليه يعرض ، ليعلم فى الاول هل هو ممايقبل أو عنه يعرض » أنظـــر الفتح القسى ص ٥٠١ — ص ٥٠٢

التى أحضرها معه الى الشام ، كما أن صلاح الدين كان يرسل له تباعا ما يحبه من الفاكهة والثلج لتبريد شرابه •

المفاوضات بعد سقوط عـــكا :

وبعد هذه المرحلة الاولى من المفاوضات نجح الصليبيون فى الاستيلاء على عكا بعد مقاومة عنيفة قامت بها حاميتها وكان تسلم المدينة فى ١٧ جمادى الاخرى سنة ٥٨٧هـ (١٢ يوليو ١١٩١م) وأعقبت ذلك تلك المذبحـــة التى نعرض لها المسلمون على أيدى أعدائهم ، بالرغم من الاتفاقية التى كانوا عقدوها معهم والتى كانت تنص على أمانهم • ولكن الملاحظ أن هذه الاحداث لم تؤد الى انقطـــاع المفاوضات والمراسلات بين السلطان والفرنجة وذلك لاسباب تطلبت استمرارها •

وبالنسبة لصلاح الدين • فانه فى أعقاب موقعة عكا ، فضل عـــدم الاسراع بالدخول فى معركة فاصلة مع العدو ، وأخذ يترقب تطور الاحداث ليتخذ القرار الذى يعـــود على دولته بالنفع ، كما أنه أراد أن يجنب جيشه أيه مخاطر جديدة وأخذت الانباء تصله عن المنازعات السياسية التى شرعت فى تمزيق قوى الصليبيين • فجيوشهم كانت تتكون من جنسيات خليط ساد بينها التنافس والتصارع على المصالح الخاصة • وان وجود ريتشارد ملك انجلترا وفيليب الثانى ملك فرنسا وأتباع كل منهما فى معسكر واحد كان لابد وأن يؤكد هذا الخلاف • وبالرغم من عودة فيليب الثانى الى فرنسا فى أعقاب موقعة عكا ، فان من تبقى من أمرائه فى الشام لم تكن علاقاتهم بريتشارد بالتى تبشر بالتضامن وحسن التعاون • كما وجد مصدر آخر للتمزق السياسى بين الفرنجة ممثلا فى الصراع بين جى لوسنيان وكونراد مونتفرات على عرش المملكة الصليبية وكان مما زاد فى تعقيد

هذا الصراع ، اتخاذ ملك فرنسا جانب كونراد فى الوقت الذى ناصر فيه الملك ريتشارد جى لوسنيان ، مما أسفر عن اتخاذ كونراد موقفا معاديا أو سلبيا على أقل تقدير ازاء ريتشارد أثناء اقامته فى الشرق .ولم تكن تلك الخلافات والتيارات بالخافية على السلطان الذى ظل يتابع الاحداث وينتظر الظروف الملائمة للتحرك .

هذا وقد أدرك ريتشارد حقيقة التمزق بين الفرنجة ، كما شعر هذا الملك بالصعاب التى لابد وأن يواجهها اذا ما خاطر بمحاولة استرجاع بيت المقدس والقيام بمواجهة شاملة للمسلمين ، مع ترجيح وصول امدادات لهم من البلاد المجاورة . والى جانب كل هذا كان ريتشارد مهتما بمصالحه فى انجلترا ، ولابد أن عودة ملك فرنسا الى بلاده كانت مبعث قلق لريتشارد بالنسبة لاقطاعاته فى اقليم نورماندية .

وليس من المستغرب اذن أن يواصل كل من صلاح الدين والفرنجة المفاوضات وأن تتجدد اللقاءات بينهم ومن أبرز حلقات المفاوضات كانت تلك التى اشترك فيها الملك العادل سيف الدين شقيق السلطان الذى اكتسب خبرة فى غزواته وفى ادارة أقاليم الدولة ، وأخذ نجمه فى الصعود بين المسلمين بعد موت أبيه نجم الدين سنة ٥٧٨هـ — ١١٨٣م ، وقد عرف عنه الدهاء والمهارة فى المفاوضات . واجتمع العادل مع ريتشارد قلب الاسد فى ١٢ شعبان ٥٨٧ (٤ سبتمبر ١١٩١م) وكان يترجم بينهما همفرى أمير تبنين (ابن الهنفرى) وكان من أحسن من يجيد العربية بين الفرنجة كما كان مقربا من ريتشارد .وفى بداية الاجتماع دار الحديث فى عموميات حول مضار الحرب وفوائد السلم ، الا أن العادل لم يقنع بهذا القول واعتبره نوعا من المراوغة والمحاورة من جانب ريتشارد وطلب منه أن يكون أكثر وضوحا وتحديدا لمطالبه ، فكان رد الاخير : « القاعدة أن تعود البلاد

كلها الينا ، وتنصرفون الى بلادكم »[٦] . وعقب ما قام بينهما من خلاف ومنافرة انفض اجتماعها .

وقد كان فى أعقاب ذلك أن خاض ريتشارد معركة ضد المسلمين عند أرسوف (١٤ شعبان ٥٨٧هـ — ٦ سبتمبر ١١٩١م) أحرز فيها نصرا جديدا على المسلمين واتجه بعده الى مدينة عسقلان .

المفاوضات مع كونراد مونتفرات (المركيس) :

وقد دخل صلاح الدين فى مفاوضات مع طرف آخر من الفرنجة ونقصد بذلك كونراد مونتفرات المركيس الذى تجمع حوله عدد من كبار الامراء الفرنجة الشاميين ممن لم يكونوا على علاقات حسنة مع ريتشارد وكان كونراد موضع تقدير لدى المسلمين ويقول عنه ابن شداد : « فانه كان من أشدهم — الفرنجة — بأسا وأعظمهم للحرب مراسا ، وأثبتهم فى التدبير أساسا »[٧] .

ولا شك أن السلطان أراد أن يستفيد من النزاع بين ريتشارد وكونراد مونتفرات وتطلع كل منهما لعقد صلح منفرد معه . وقد وصل رسول كونراد فى ١٢ رمضان سنة ٥٨٧هـ (٣ أكتوبر ١١٩١م) ليفاتح السلطان فى عقد صلح معه . وطلب الرسول أن يعطى المركيس (كونراد) بيروت وصيدا مقابل الاتفاق مع صلاح الدين ضد الفريق الاخر من الفرنجة . الا أن السلطان اشترط أن يبادر كونراد ويجاهر بموقفه ضد هذا الفريق وأن يهاجم مدينة عكا ويأخذها منهم ، وأن يطلق من بها ومن بمدينة صور من الاسرى المسلمين . ولكن كونراد لم يبد استعدادا لاتخاذ هذه الخطوات

---

(٦) ابن شداد ص ١٨٢ ع العماد الكاتب ص ٥٤٢
(٧) ابن شداد ص ١٩٩

أما ما أسفرت عنه هذه الاتصالات من نتائج مباشرة ، هو أن ملك انجلترا ، وقد انتابه القلق بسببها ، فانه أسرع بتوجيه رسله الى السلطان لتحريك الحديث فى الصلح [٨] .

ملك انجلترا يحـــدد مطالبه :

وقد أخذ ريتشارد يتقدم بعد ذلك بمطالب محددة ، منها استرجاع القدس « وصليب الصلبوت » واسترجاع البلاد التى استولى عليها صلاح الدين . وكذلك اقتسام بعض المراكز بين المسلمين والفرنجة . وأخــذ كل جانب يعرض وجهة نظره على الجانب الاخر ، وكان مضمون الرسالة التى بلغها ريتشارد لرسول الملك العادل فى رمضان ٥٨٧هـ أكتوبر ١١٩١م، لنقلها الى السلطان والتى كتبها الرسول فى رقعة خاصة على النحو التالى:

« انك تسلم عليه ، وتقول له : أن المسلمين والفرنج قد هلكوا وخربت البلاد ، وخرجت من أيدى الطائفتين ، وقد أخذ هذا الأمر حقه ، وليس هناك حديث سوى القدس والصليب والبلاد وأما القدس فمتعبدنا ما ننزل عنه ، ولو لم يبق منا واحد . وأما البلاد فيعاد الينا منها ما هو قاطع الاردن، وأما الصليب فهو خشبه لا مقدار له عندكم ، وهو عندنا عظيم ، فيمن به السلطان علينا ، ونصطلح ونستريح من هذا العناء الدائم » .

وبعد اطلاع السلطان على الرسالة وعقب عرضها على أرباب المشورة، رد على الفرنج برسالة أخرى جاء فيها :

« القدس لنا كما هو لكم ، وهو عندنا أعظم مما هو عندكم ، فانه مسرى نبينا ومجتمع الملائكة ، فلا يتصور أن ننزل عنه ولا نقــدر على

(٨) المصدر السابق ص ١٩٠

التلفظ بذلك بين المسلمين ، وأما البلاد فهى أيضا لنا فى الاصل ، واستيلائكم كان طارئا عليها ، لضعف من كان بها من المسلمين فى ذلك الوقت وما أقدركم الله على عمارة حجر واحد منها ما دام الحرب قائما ، وما فى أيدينا نحن منها نأكل بحمد الله مغله وننتفع به ، وأما الصليب فهلاكه عندنا قربــة عظيمة ، ولا يجوز لنا أن نفرط فيها الا لمصلحة راجعة الى الاسلام هى أوفى منها » [٩]

مشروع الزواج السياسى (رمضان ٥٨٧ ــ أكتوبر ١١٩١) :

كان المشروع الجديد الذى تقدم به ريتشارد للصلح عن طريق رسوله غريبا وأمرا غير مألوف ، حتى أنه أثار عجب المعاصــرين ، مثلما أثار التساؤلات لدى المؤرخين الحديثين . فقد اقترح هذا الملك زواج العادل سيف الدين من جوان أخت ريتشارد ــ وكانت أرمله ــ على أن يؤول اليهما حكم البلاد الساحلية الواقعة غرب نهر الاردن ويحكمانها حكما مشتركا، كما جاء هذا المشروع أن يسلم المسلمون الصليبيين القدس للفــرنجة . ويطلق سراح جميع الاسرى من الجانبين .

ومن الصعب تفهم حقيقة ما قصده ريتشارد عندما تقدم بهذا العرض، ومدى جديته فيه ، نظرا للعقبات والمشاكل التى كانت تقف فى سبيل تنفيذه، وأهمها معارضة رجال الكنيسة والمسيحيين لزواج أمرأة كاثوليكية من رجل من المسلمين . واذا سلمنا بحسن نية ريتشارد عندما تقدم بمشروعه المذكور ، فلابد وأنه فعل ذلك فى نوبة من مشاعر « رومانسية » .

وعلى أية حال فالسلطان ، بالرغم من اعتقاده بعدم جدية ريتشارد واعتبار مشروعه نوعا من المكر والخديعة ، فقد أكد موافقته عليه وذلك أمام

(٩) المصدر السابق ص ١٩٤

عدد من الحاضرين من المسلمين [١٠] ، واستمر فى التفاوض مع ريتشارد • وربما أمكن تفسير هذا التصرف من جانب السلطان بحرصه على الاستفادة من النزاع بين ريتشارد وكونراد مونتفرات وتسابقهما على الاتفاق مع المسلمين •

مؤثرات جديدة وتطور فى المفاوضات :

وفى مرحلتها التالية ، تأثرت المفاوضات بما استجد من أحداث سياسية ومعارك عسكرية : اتجه ريتشارد فى ٢٠ يناير ١١٩٢م نحو مدينة عسقلان لاعادة عمارتها وانشغل فى ذلك العمل حتى يونيو ١١٩٢م ، الا أنه لم يجد تعاونا فى ذلك من جانب كونراد الذى رفض أن يحضر بقواته للاسهام فى العمليات العسكرية ضد المسلمين • كما بلغت ملك انجلترا ، فى ١٥ ابريل من نفس السنة ، أنباء سيئة من بلاده عن محاولة أخيه يوحنا للاستيلاء على البلاد ، وأنباء أخرى عن تحركات من جانب فيليب الثانى ملك فرنسا ضد ممتلكات ريتشارد فى نورمانديه • هذا وقد تم اغتيال كونراد مونتفرات فى ٢٨ ابريل ١١٩٦ على يد اثنين من الفدائية الاسماعيلية ، وتذكر المصادر العربية أن ذلك كان بايعاز من ريتشارد ، وبالتأكيد فان موت كونراد أزاح عقبة كانت تعترض طريقه لعقد صلح مع السلطان • وتم اختيار هنرى أمير شامبين الذى عرفه المسلمون باسم الكندهرى خلفا لكونراد • وكان هنرى أقوى أمير اقطاعى فى فرنسا وقد تزوج أرمله كونراد ، ونادى به الفرنجة ملكا لبيت المقدس •

وكان لزاما على الملك هنرى الاتصال بصلاح الدين لاجراء محادثات

(١٠) المصدر السابق ص ١٩٥ — ص ١٩٦ ، العماد الكاتب ص ٥٥٥

معه لتحديد نوع العلاقات بينهما ، وشرع فى عمل ذلك فى يوليو ١١٩٢ •

ويبدو أن رسول هنرى كان متشددا فى محادثاته مع صلاح الدين الامر الذى أثار غضبه ، وقبل أن يصرفه من حضرته حدد السلطان شروطه للصلح مع هنرى ، على أساس ما كان متبعا فى عهد سلفه كونراد «وأن يكون الحديث بيننا فى صور وعكا ما كان مع المركيس » •

وحاول ريتشارد فى مراسلاته أن يسوى العلاقات بين صلاح الدين والملك الجديد • ومن أهم ما يلاحظ على المراسلات فى هذه المرحلة استعمال ريتشارد الملاينة مع السلطان ، فضلا عن توقفه عن المطالبة بيت المقدس والاكتفاء بالمطالبة بكنيسة القيامة • وقد جاء فى احدى رسائلة للسلطان ما يلى :

« ان جماعة من الرهبان والمنقطعين طلبوا كنائس فما بخلت عليهم بها ، وأنا أطلب منك كنيسة ، وتلك الامور التى كانت تضيق صدرك بما كانت تجرى المراسلة مع الملك العادل قد قلت بتركها وأعرضت عنها ، ولو أعطيتنى مقرعة أو قربة قبلتها وقبلتها • »

وأمام هذا الموقف الجديد الذى اتخذه ريتشارد ، استطلع السلطان رأى مستشاريه ووافقوا على عقد صلح ، وكان مما دفعهم لاتخاذ هذا القرار ، ما شعر به المسلمون من الضجر والتعب بسبب طول القتال • وقد جاء رد صلاح الدين على النحو التالى :

انك اذا دخلت معنا هذا الدخول فما جزاء الاحسان الا الاحسان ، ابن أختك — الكندهرى — يكون عنده كبعض أولاده ، وسيبلغك ما أفعل فى حقه من الخير ، وأنا أعطيك أكبر الكنائس وهى القمامة — القيامة — وبقية البلاد نقسمها ، فالساحلية التى بيدك تكون بيدك ، والتى بأيدينا

من القلاع الجبلية تكون لنا ، وما بين العملين تكون منا صفة • وعسقلان وما وراءها تكون خرابا لا لنا ولا لكم ، وان أردتم قراها تكون لكم والذى كنت أكرهه حديث عسقلان » (١١) •

والواقع أن الاتفاق على مصير مدينة عسقلان لم يكن بالامر السهل نظرا لاهميتها الكبرى بالنسبة لكل من الجانبين • فان بقاءها كمركز حصين فى أيدى الفرنجة كان يمكنهم من اتخاذها قاعدة ينطلقون منها الى بيت المقدس ، كما كان فى مقدور المسيطر عليها أن يتحكم فى طريق المسلمين من الشام الى مصر • ومن هنا جاءت شدة تمسك الصليبيين بها ، واصرار صلاح الدين على خروجهم منها وتخريبها حتى لا تبقى تحت نفوذهم •

وقد زامنت المفاوضات فى الفترة التالية بعض العمليات العسكرية فى فلسطين كانت أهمها معركة يافا (٢٧ يوليو — ٥ أغسطس ١١٩٢) • وكان صلاح الدين قد بلغه أن حشدا من الفرنجة انسحب من الجنوب واتجه شمالا الى انطاكية ، ولذا قرر أن يضرب ضربة سريعة ضدهم عند يافا التى سبق لهم احتلالها فى الخريف السابق ، وكان أمله أن يحرز نصرا يستغله فى مفاوضاته معهم • الا أن نتيجة المعركة كانت على عكس ما ينتظر اذ كان النصر من نصيب ريتشارد وكانت هذه هى آخر المعارك بينه وبين السـلطان •

وبعد موقعة يافا أخذ كل من الطرفين يقيم الموقف بالنسبة للطرف الاخر ، ليتخذ قراره فيما يجب عليه عمله • ولفترة ظل ريتشارد ممانعا فى تسليم عسقلان للسلطان • ولكن بلغته أنباء عن استعداد صلاح الدين لشن هجوم جديد على يافا • كما شعر ريتشارد بقلق متزايد ازاء الاخبار السيئة

(١١) ابن شداد ص ٢١٩ — ص ٢٢٠

التى وردت من غرب أوربا وما بات يتهدد مصالحه من جانب أخيه وملك فرنسا • ولابد أنه ادرك كذلك صعوبة القضاء على قوة صلاح الدين الذى كان فى امكانه الحصول على المزيد من الامدادات من البلاد الاسلامية • هذا ووقع الملك الانجليزى فريسة للمرض عقب موقعة يافا • وهكذا تجمع من العوامل ماجعله أميل للتصالح مع السلطان •

وليس من المستبعد أن تكون علاقات ريتشارد مع عدد من الامراء المسلمين وسماحة صلاح الدين وكرمه ، مما أثر تأثيرا ايجابيا على ملك انجلترا ليتخذ قرارا بالصلح • فالمعروف أنه ربطته ببعض الامراء المسلمين علاقات تقارب ومودة ، يذكر ابن شداد ان ريتشارد قد صادق عددا منهم وأنه كان يجتمع بهم فى أوقات متعددة (١٢) • أما عن علاقاته مع الحاجب أبى بكر العادلى فيقول عنها :«وكان له معه انبساط عظيم» •وهذاوكانت صلته مع ملك العادل سيف الدين وثيقة ، أما السلطان فكان اهتمامه بريتشارد أثناء اشتداد مرضه واضحا ، وظل السلطان يرسل له ما يحتاجه من الثلج لتبريد أشربته والفاكهة وخاصة الكمثرى والخوخ حيث كان ريتشارد يفضلهما عن غيرهما من أنواع الفاكهة •

وقد أدرك صلاح الدين مدى التعب الذى أصاب جنوده بسبب طول فترة القتال منذ أن انبرى لمحاربة الفرنجة بدءا من حطين حتى مجىء الحملة الصليبية الثالثة ، وصبح يخشى من هذا التعب وقوع تمرد بداخل جيشه • ومما يدل على ذلك ماورد فى المصادر العربية ، ويقول ابن شداد ، على سبيل المثال ، أن السلطان وجد فى التفاوض والاتفاق مع الفرنجة مصلحة: « لما غشى الناس من الضعف وقلة النفقات والشوق الى الاوطان ، ولما

(١٢) المصدر السابق ص ٢٢٧ — ص ٢٢٨

شاهده من تقاعدهم على يافا يوم أمرهم بالحملة فلم يحملوا ، فخاف أن يحتاج اليهم فلا يجدهم » • كما يقول نفس المؤرخ فى موضع آخر ان السلطان فضل الصلح « لسآمة العسكر ومظاهرتهم بالمخالفة » (١٣) •

ويبدو أن صلاح الدين أدرك أنه ، فى مثل تلك الظروف ، سيكون من الصعب عليه احراز نتائج حاسمة فى محاربة الفرنجة مجتمعين وربما فكر أنه فى حالة عقد صلح مع ريتشارد وعودته ورجاله الى بلاده ، سوف يتمكن السلطان من مواجهة الفرنجة الشاميين والتغلب عليهم •

وقد أدت الاوضاع السالفة الذكر فى كل من الجانبين الاسلامى والفرنجى الى تكثيف واضح فى المراسلات والمفاوضات فى أواخر شهر أغسطس ١١٩٢م حتى انتهى الامر بعقد المعاهدة أو الصلح الذى عرف باسم صلح الرملة (٢٢ شعبان ٥٨٨هـ — ٢ سبتمبر ١١٩٢م) •

وبشأن مدينة عسقلان التى كانت بمثابة العقبة الكؤود فى المفاوضات السابقة ، فقد وصل وفد من قبل ريتشارد (١٧شعبان ٥٨٨هـ — ٢٨أغسطس ١١٩٢م) أبلغ السلطان بموافقة ملك انجلترا من حيث المبدأ على النزول عن المدينة المذكورة (١٤) • وحيث أن المفاوضات بدت وكأنها دخلت فى مرحلتها الاخيرة ، فقد أمر السلطان ديوانه باعداد ورقة أوثبت يعين فيه الحدود وأسماء البلاد التى تم الاتفاق عليها • وفى الايام القليلة التالية تطلب الامر مزيدا من التراسل لعمل بعض التعديلات على مشروع الصلح • ذلك أن ريتشارد طالب فى اللحظات الاخيرة بالرملة ولد كتعويض يقابل تنازله عن عسقلان • وهناك ما يفيد بأن السلطان أوصى رسوله القائم

(١٣) المصدر السابق ص ٢٣٣ — ص ٢٣٥
(١٤) المصدر السابق ص ٢٣٢

بالمفاوضة قائلا : « ان قدرت أن ترضيهم بأحد الموضعين — الرملة ولد — أو بمناصفتهما فافعل ولا يكون لهم حدبث فى الجبليات » (١٥) وانتهى الامر بأن تكون المدينتان مناصفة •

ويذكر العماد الكاتب أنه كلف بانشاء الصيغة النهائية للمعاهدة ، ولابد أنها وجدت منجانبه من العناية والاهتمام ما اعتاد المسلمون القيام به عند عقد معاهداتهم مع الفرنجة خاصة وأن هذه المعاهدة ارتبطت بمرحلة هامة فى تاريخ العلاقات بين المسلمين والفرنجة •

وللاسف لم تصلنا صورة كاملة لنصوص المعاهدة وما وصلنا عنها كان عبارة عن وصف لبعض بنودها وعلى أية حال ، فالعماد الكاتب يصفها بانها كانت هدنة عامة فى البر والبحر والسهل والوعر والبدو والحضر (١٦) • كما ان ريتشارد لم يجعل المعاهدة قاصرة عليه ، بل تصرف من موقع المسئولية عن الفرنجة بصفة عامة ، وحرص على أشراك الملك هنرى معه فى المفاوضات وفى عقد المعاهدة • وفضلا عن ذلك فقد اشترط دخول صاحب انطاكية وطرابلس فى الصلح ، كل ذلك مما يوضح صفة العموم فى المعاهدة،

التصديق على مشروع المعـــاهدة :

بعد الانتهاء من صياغة مشروع المعاهدة ، كان لابد من عمل الاجراءات الاخيرة التى تطلبت تصديق كل من الطرفين عليها • وعندما مثل العدل رسول السلطان عند ريتشارد ، وكان الاخير لا يزال يعانى من مرضه ،فانه أبدى فى الحال موافقته عليها قائلا :« لا طاقةلى بالوقوف عليها ، وأنا قد

(١٥) المصدر السابق ص ٢٣٣
(١٦) العماد الكاتب ص ٦٠٤ — ص ٦٠٥

صالحت وهذه يدى • وكان ذلك يوم ٢١ شعبان • وفى اليوم التالى ٢٢ شعبان ٢ سبتمبر عقدت جلسة أخيرة حضرها ملك انجلترا كما حضرها العدل رسول صلاح الدين والوفد المصاحب له ، وذلك لاتمام اجراءات التصديق على المعاهدة من الجانب الفرنجى وكان ذلك يتضمن تحليفهم واشهاد الشهود منهم • ولم يحلف ريتشارد اليمين باحترام المعاهدة ، واعتذر عن ذلك بأن الملوك لا يحلفون ، ووافق على الا يطلب ذلك من السلطان • وحلف على احترام المعاهدة هنرى شامبين ملك المقدس ، وباليان بن بارزان (باليان دى ابلين) أمير طبرية • كما تم اشهاد مقدمى الاسبتارية والداوية وعدد من كبار امراء الافرنج •

وجاء بعد ذلك دور السلطان ليصدق على المعاهدة • وقد انتقل الوفدان الاسلامى والفرنجى ، للاجتماع بالسلطان فى مخيم جيشه • وكان على رأس الوفد الفرنجى الملك هنرى شامبين وباليان وجماعة من الامراء • وأمر السلطان باعداد استقبال مناسب لهم وضربت خيمة خاصة بهم • ثم استقبل السلطان الوفد ، مد يده مصافحا اعضاءه كرمز لتصديقه على المعاهدة ، وتم اشهاد عدد من الامراء المسلمين وتحليفهم لاحترام ما جاء فيها وفقا لما جرى عليه العرف عند عقد المعاهدات بين المسلمين والفرنجة [١٧] •

ان هذا العرض للمفاوضات التى قامت بين صلاح الدين وريتشارد انما يقدم فكرة تفصيلية عن طبيعة ما قام من المفاوضات بين المسلمين والصليبيين فى علاقاتهم التى دامت نحو قرنين من الزمان • ومن واقع هذا العرض يستطيع المرء أن يخرج بانطباع عن طبيعة الاشخاص الذين

---

(١٧) ابن شداد ص ٢٣٤ — ص ٢٣٥

يقومون بالمفاوضات ، والموضوعات التى يخوضون فيها وكيفية معالجتها وأثر العوامل الداخلية والخارجية فى سيرها • وفضلا عن هذا وذاك يمكن للمرء ملاحظة ما تطلبته المفاوضات من مهارة وحذر مع الالتجاء الى التشدد والترهيب عند الضرورة واستعمال اللباقة حتى يتيسر الوصول الى حلول للخلافات والمنازعات وعلى أية حال فالمفاوضات انما كانت السبيل المؤدى لعقد الهدن والمعاهدات •

الفصـــل الثــامن

المعـــــاهدات

مصطلح المعاهدة والتعريف به :

تأتى المعاهدة كمرحلة ختامية للمفاوضات التى يقوم بها السفراء من أجل تسوية الخلافات والمشاكل التى بين الدول المتنازعه • وفى العصر الحديث يعرف المشتغلون بالعلاقات الدبلوماسية والقانون الدولى المعاهدات بأنها العقود الدولية التى لها صفة تشريعية ونصوصها وأحكامها بالنسبة للدول التى تعقدها بمثابة قوانين واجبة التطبيق • وفى المقارنة بين المعاهدة والاتفاقية يقول بعضهم أن مصطلح المعاهدة يطلق على العقود الدولية التى لها أهمية خاصة بالنسبة لاهدافها أو لموضوعها أو لمكانة الدول المشتركة فيها ، فى حين أن الاتفاقيات تتضمن تعهدات ثانوية محدودة ، قد تخص مسائل ثقافية أو تجارية أو اقتصادية ، ولو أنهم يسلمون بما يوجد من تشابه بين المعاهدة والاتفاقية من حيث الموضوع والنص والشكل فى بعض الاحيان لدرجة يصعب التميز بينهما [١] •

والواقع أن نظام العهود والمواثيق ، واقامة قواعد وأسس للتعامل مع المجتمعات السياسية غير الاسلامية ، لم تكن بالامور المستحدثة بالنسبة للمسلمين فى عصر الحروب الصليبية ، فانهم عرفوها منذ فجر الاسلام من الناحية الشرعية واللغوية فهم استعملوا كلمة عهد وما يشتق منها ، وجاءت فى المعاجم العربية كلمات المعاهدة والتعاهد والتعهد والاعتهاد كأمر واحد ، وهو احداث العهد بما عهدته • والعهد هو كل ما عوهد الله عليه ، وكل ما بين العباد من المواثيق فهو عهد • كما جاء عن المعاهد من كان بينك وبينه عهد ، وأكثر ما يطلق فى الحديث على أهل الذمة ، وقد يطلق على الكفار

---

(١) فاضل زكى : البلوماسية ص ٢١٤ — ص ٢١٥ ،

اذا صولحوا على ترك الحرب مدة ما [٢] والعهد فى الشريعة الاسلامية أوسع من معناه فى القانون الغربى . هذا وورد فى القرآن الكريم: «وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم » [٣] وهناك أيضا من الايات التى تتحدث عن العهد وتنفيذه مثل قوله تعالى « الا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظهروا عليكم أحدا فأتموا اليهم عهدهم الى مدتهم ان الله يحب المتقين » [٤] .

وفى المعاهدات التى عقدها المسلمون مع المجتمعات السياسية ، الاسلامية منها وغير الاسلامية ، كانت لهم مصطلحات خاصة شاعت بينهم فقد عرفوا المعاهدات باسم عقود صلح اذا كانت بين الدول والامارات المستقلة الاسلامية بعضها وبعض . أما اذا كانت معاهداتهم مع دول وامارات غير اسلامية بما فى ذلك دول الفرنجة فكان المسلمون يطلقون عليها المهادنة أو الموادعه أو المسالمة أو المقاضاة أو المواصفة ، وهذه كلها أنواع أو مسيمات مختلفة للمعاهدات التى عرفها المسلمون .

والمهادنة فى اللغة هى المصالحة ، والاسم هدنة . كما استعمل المسلمون كلمة الموادعة على أساس أن بمقتضاها تحل الراحة من تعب الحرب ومسئولياته . وهناك المسالمة لان بتحقيقها يسلم كل من أهل الجهتين من الاخر والمقاضاة بمعنى الفصل والحكم ، وكذلك المواصفة لان الاتفاقية تصف ما يوقع عليه الصلح [٥] .

---

(٢) السرخسى : شرح السير الكبير للشيبانى ج٥ باب ٦٠ ص ١٦٨٩، انظر مادة «عهد» فى لسان العرب لابن منظور ، مجيد خدورى ص٢٧١—٢٧٢

(٣) النحل من الآية ٩١

(٤) التوبة آية ٤

(٥) صبح الاعشى ج ١٤ ص ٢—٣

أما فى الشرع ، فالمهادنة وما يرادفها وفقا لما جاء فى التعريف بها فهى عبارة عن صلح يقع بين زعيمين فى زمن معلوم بشروط مخصوصة ، والاصل فيها أن تكون بين ملكين مسلم وكافر أو بين نائبيهما أو بين أحدهما ونائب الاخر ، وهى نوع من العقود ويحتمل فى معناه الاتفاق على عمن هدفه الوصول الى نتائج شرعية [٦] . أما تعريف الهدنة عند القانونين الدوليين فهو : الهدنة هى كل اتفاق له أهمية سياسية أساسية بين قوات المتحاربين لوقف القتال بصفة مؤقتة [٧] .

والملاحظ هنا أن الكثير من المعاهدات التى عرفها المسلمون بالهدنة وما يرادفها ، فى علاقاتهم مع الصليبيين لم تكن مجرد اتفاق على ايقاف الحرب لفترة من الزمان ، بل كثيرا ما شملت الهدن أمورا أخرى تتناول تنظيم مظاهر مختلفة للعلاقات السلمية بين الجانبين وخاصة ما يتعلق منها بالعلاقات التجارية التى أبدى كل منها اهتماما بالغا بها . كما تضمنت بعض تلك الهدن اتفاقيات سياسية ، والموافقة على تشكيل أحلاف بين بعض القوى الاسلامية وبعض القوى الصليبية .

ونظرا لتشعب نظام المعاهدات وتفرع عناصره ، وحرصا على عرض هذا الموضوع الهام عرضا واضحا ، رأينا أن نفسمه الى ثلاثة أقسام : القسم الاول ويشمل أصل نظام المعاهدات لدى المسلمين والشروط الشرعية لعقدها ويتناول القسم الثانى طريقة أنشائها أو صياغتها وأركانها ومعاقدها (الاشهاد والتحليف) ونختتم هذا القسم بالاشارة الى مصير ما يعقد من معاهدات وتراوحه بين التنفيذ والنقض . وسوف نعالج هذين القسمين فى هذا الفصل (الثامن) .

---

(٦) المصدر السابق ج ١٤ ص ٣ ، السير الكبير للشيبانى ، شرح السرخسى ج ٥ باب ٦٠ « الموادعة » ص ١٦٨٩

(٧) مصطفى صادق أبو هيف : القانون الدولى ص ٦٩٤ ، ط ١٩٥٩

أما القسم الثالث فسوف نخصص له فصلا آخر نتناول فيه المواد والشروط التى وردت فى المعاهدات والتى وضعت لتنظيم شتى مظاهر التعامل السلمى بين المسلمين والفرنجة [٨] وسوف نقدم بعد ذلك نماذج مختارة ادرجناها على شكل ملاحق بكتابنا مع ما يلزمها من تعليق وتوضيح ٠

أصل نظـــام المعاهدات لدى المسلمين

سمحت الشريعة الاسلامية للمسلمين بعقد معاهدات مع أعدائهم الحربيين على أن يكون ذلك بمقتضى شروط محدده [٩] ومما جاء فى القرآن الكريم بشأن السماح بتلك المعاهدات : « كيف يكون للمشركين عهد عند الله ورسوله ، الا الذين عاهدتهم عند المسجد الحرام ، فما استقاموا لكم استقيموا لهم ان الله يحب المتقين » [١٠] كما جاء قوله تعالى : « وان جنحوا للسلم فاجنح لها » [١١] هذا وقد عقد الرسول (ﷺ) هدنة الحديبية مع قريش لمدة عشر سنوات التى وضع بها قواعد لسلام مؤقت بين المسلمين ومشركى مكة وهم الدأعدائه [١٢] ٠ وكانت هذه الهدنة سابقه اقتدى بها المسلمون وقد نهج المسلمون المنهج الذى بدأه الرسول (ﷺ) فى عقد المعاهدات مع غير المسلمين عندما دعتهم الاحوال الى ذلك ٠ هذا وجرت العادة لدى الحكام المسلمين على أن تكون معاهداتهم مع الحربيين مؤقته

---

(٨) سوف يعالج القسم الثالث من دراسة المعاهدات فى الفصل التالى (التاسع) ٠

(٩) أبو يوسف : كتاب الخراج ص ٢٠٧ ، كتاب الام للشافعى ج٤ ص ١١٠ ، كتاب الجهاد للطبــرى ص ١٤ ، ص ١٥ ، مجيــد خدورى ص٢٦٩ ، وهبه الزحيلى : العلاقات الدولية فى الاسلام ص ١٣٠ — ص ١٣١

(١٠) التوبة الاية ٧

(١١) الانفال من الاية ٦١

(١٢) نص المعاهدة فى ابن هشام ج٣ ص ٧٨١ — ص ٧٨٣

ومحدودة زمنيا ، وألا تكون مطلقة مثل عهودهم مع الذميين المقيمين بدار الاسلام ، أو مثل صلح المسلمين مع غيرهم من الحكام المسلمين ٠

وهكذا فعندما جاء الصليبيون الى الشرق الادنى كان نظام المعاهدات مع الحربيين مطبقا ومعمولا به لدى المسلمين ، وذلك فى نطاق حـدود وقواعد شرعية كان عليهم الالتزام بها ، والانطباع الذى يخرج به الباحث هو أن عقد المعاهدات بين المسلمين والفرنجة كان أمرا كثير الحدوث ، ويستطيع أن يجد عددا كبيرا منها خلال اقامة الفرنجة فى الشـرق التى استمرت نحو قرنين من الزمان ٠

الشروط الشـــرعية لعقـد المعاهدات

كان عقد المعاهدات عند المسلمين مسئولية كبرى تطلبت منهم اهتماما كبيرا وأدركوا ضرورة الالتزام بالدقة والحذر فى اعدادها وصياغتهـا والتصديق عليها ٠ ومما يشهد على ذلك تلك الدساتير أو الموســوعات وضعت عن العمل فى ديوان الانشاء الذى كان لكتابه المنشئين دور هام فى عقد المعاهدات وصياغتها ٠ ومما يشير الى تقدير المسلمين لتلك المسئولية ما جاء فى كتاب مواد البيان وهو من أهم الدساتير التى تناولت الموضوع: «وهذا الفن من المكاتبات له من الدول محل خطير ، ومن الملكة وضع كبير، ويتعين على الكاتب أن يخلى له فكرة ويعمل منه نظرة ، ويتوفر عليه توفرا يحكم مبانيه ويهذب معانية » [١٣] ٠ كما يطلب القلقشندى كذلك التدقيق والحيطه من جانب القائمين على عقد المعاهدة فيقول : « أن يتحفظ من سقط يدخل على الشريعه نقيضة ان كانت المعاهدة مع أهل الكفر ٠٠٠ ، ويتحذر

---

(١٣) صبح الاعشى ج ١٤ ص ٧

كل الحذر من خلل يتطرق اليه من اهمال شىء من الشروط ، أو ذكر لفظ مشترك أو معنى ملتبس يوقع شبهة توجب السبيل الى التأويل ... [١٤].

ويتناول القلقشندى ، وهو ذلك المسئول الخبير بأصول دساتير ديوان الانشاء ، الشروط الشرعية الواجب توفرها عند عقد المعاهدات مع غير لمسلمين ، ونجد صورة تفصيلية لذلك فيما كتبه . وهو عندما يفعل ذلك فانه يسجل تلك الشروط الشرعية للاراء التى تعارف عليها الفقهاء المسلمون فى هذا العصر ، تلك الشروط التى كان عدم الالتزام بها لابد وأن يسبب للحكام حرجا شديدا وقد يجعلهم موضعا للوم والمؤاخذة سواء بداخل امارتهم او خارجها فى الدول والامارات الاسلامية الاخرى .

وقد تركزت هذه الشروط الشرعية فيما يلى من العناصر : أولا : تحديد العاقدين — ثانيا . أن تكون الاتفاقية فى مصلحة المسلمين — ثالثا : ألا يكون فى العقد شرط يأباه الاسلام — رابعا : تحديد مدة الهدنة .

أولا : تحديد العاقدين :

والعاقدان هما المسئولان اللذان يتوليان أمور الطرفين ، أو من ينوب عن كل منهما ويمثله . وبالنسبة للمسلمين كان الرسول (صلى الله عليه وسلم هو الذى يتولى مهمة عقد المعاهدات ، ومن بعده قام بذلك الخلفاء على أساس أن هذا العمل كان من الامور الكلية التى تحتاج الى نظر واجتهاد . ولكن مع مرور الوقت أصبحنا نجد الى جانبهم غيرهم من المسئولين المسلمين ممن أضطلعوا بالمهمة ، مما جعل القلقشندى يصف هذا التطور بالنسبة للعاقد المسلم فى قوله : « والاصل فيها أن تكون بين ملكين مسلم وكافر ، ، أو بين نائبيهما أو بين أحدهما ونائب الاخر ، وعلى

---

(١٤) المصدر السابق ج ٤ ص ١٣

ذلك رتب الفقهاء رحمهم الله باب الهدنة فى كتبهم » [١٥] .

ويأتى القلقشندى بمزيد من التفصيل فى بيان اختلاف العاقد باختلاف المعقود عليه أو أهمية الامور الواردة فى المعاهدة ، فيقول عن العاقد : « ويختلف الحال فيه باختلاف المعقود عليه ، فان كان المعقود عليه اقليما ، كالهند والروم وغيرهما ، أو مهادنة الكفار مطلقا ، فلا يصح العقد فيه الا من الامام الاعظم أو من نائبه العام المفوض اليه التحدث فى جميع أمور الملكة . وان كان على بعض القرى والاطراف ، فلا حاد الولاة المجاورين لهم عقد الصلح معهم » [١٦] .

ونستطيع أن ندرك طبيعة التغيير الذى حدث بالنسبة للعاقدين اذا أخذنا فى الاعتبار ما وجد من النظام والاوضاع السياسية التى عاش فى ظلها المسلمون والفرنجة فى تلك الفترة .

وفيما يتعلق بالعاقد المسلم ، فان تفكك دار الاسلام الى عدة دول وامارات نتج عنه وجود وحدات سياسية مختلفة منها الممالك ومنها الامارات وأصبح فى استطاعة السلطان أو الملك أو الامير أن يعقد المعاهدات دون الرجوع الى الخلافة ، اذ أن هؤلاء الامراء عندما يتحقق لهم نوع من الكيان والاستقلال السياسى ، ويجمعون بين أيديهم كل ما يتصل بالسلم والحرب يصبحون أصحاب السلطة الفعلية فى الامور الداخلية والخارجية فى دولهم أو أمارتهم .

ولكن اذا كان سير المفاوضات وعقد المعاهدات يرتبطان بمشيئة الحكام وسياستهم ، فقد وجد ما يحد من سلطتهم فى هذا المجال . اذ كان

---

(١٥) المصدر السابق ج ١٤ ص ٣

(١٦) المصدر السابق ج ١٤ ص ٧

عليهم الالتزام بما تفرضه عليهم الشريعة ، ومراعاة ذلك فى علاقتهم بربهم وكذلك فى ظهورهم أمام رعاياهم المسلمين بمظهر الاتقياء الملتزمين بأمر الدين وكثيرا ما كان هؤلاء الحكام يستشرون أمرائهم وأهل الرأى لديهم فى المفاوضات والمعاهدات • وتتضح هذه الاعتبارات المذكورة فى تلك المادة التى اعتاد المسلمون ادراجها فى معاهداتهم والتى تقول : « ان الهدنة وقعت بعد استخارة الله تعالى وتروية النظر فى ذلك وظهور الخير فيه ، ومشاورة ذوى الرأى وأهل الحجى على ذلك » [١٧] •

والمعتاد أثناء المفاوضات والأعداد للمعاهدات أن الحكام المسلمين ، لاعتبارات خاصة داخلية وخارجية غالبا ما كانوا يعهدون بذلك الى من ينيبونهم من السفراء ليقوموا بالاتصال والتعاقد مع ممثلى الدول الاخرى على أن يكون الرجوع فى نهاية الامر الى الحكام المسلمين كأصحاب السلطة العليا ، للتصديق على هذه المعاهدات • وهناك أمثلة كثيرة تدل على ذلك ، منها ما حدث عند الاتفاق بين الوزير الفاطمى شاور مع الملك الصليبى عمورى ، اذ يذكر المؤرخ وليام الصورى ، كيف نصت شروط الاتفاقية بينهما على أن يعتمدها عمورى بمصافحته ممثلى الخليفة الفاطمى العاضد ، على أن يصدق الاخير عليها بمصافحته هيو أمير قيسارية كنائب للملك الصليبى [١٨] •

هذا وقد اقتضى التصديق على صلح الرملة (٥٨٨هـ — ١١٩٢م) الرجوع الى السلطان صلاح الدين الايوبى وريتشارد قلب الاسد [١٩] •

---

(١٧) المصدر السابق ج ١٤ ص ١٣

(١٨) Wiiliam of Tyre, II, 218 - 21

(١٩) ابن شداد ص ٢٣٤ — ص ٢٣٥

أما المعاهدة التى عقدت بين مصر ومملكة أرجون سنة ٦٨٩هـ — ١٢٨٩م فقد اقتضت الرجوع الى السلطان قلاون والملك الفونس الثالث لاعتمادها [٢٠] •

وبالنسبة العاقد الفرنجى ، فان عقد المعاهدات لم يكن امتيازامقصورا على الملك وحده ، وهذا يرجع لطبيعة النظم السياسية فى الممتلكات الفرنجية فى الشام ، اذ كانت نظما اقطاعية • وفى حالات عديدة نسمع عن قيام الامراء الصليبيين بعقد اتفاقيات مع المسلمين ، وخاصة أمراؤهم المسئولين عن الامارات الصليبية الرئيسية مثل امارة أنطاكية والرها وطرابلس • كما نسمع عن قيام المسئولين من الجماعتين الرهبانيتين العسكريتين الداوية والاسبتارية بعقد معاهدات مع المسلمين • وفضلا عن هذا وذاك ، فعند مجىء حملات صليبية رئيسية جديدة من الغرب الاوروبى ، كثيرا ما كان رؤساء تلك الحملات مثل ريتشارد قلب الاسد أو الامبراطور فريد ريك الثانى أو لويس التاسع يمارسون سلطة عقد المعاهدات مع المسلمين •

ثانيا : أن تكون المعاهدة فى مصلحة المسلمين :

وفى تفسير الفقهاء لهذا الشرط قالوا أن المعاهدة تكون فى صالح المسلمين اذا كانوا فى حالة ضعف لا يستطيعون معه مواصلة الجهاد ، أو يعانون من نقص فى مواردهم المدلية،أو يكون هناك احتمال لاعتناق الحربيين للاسلام على أثر اتصالهم بالمسلمين أو أن يقوم الحربيون بدفع الجزية • وان المعاهدة فى مثل تلك الاحوال ترفع عن المسلمين عناء الجهاد وانفاق الاموال عليه • وذهب الفقهاء الى القول بأن المعاهدة اذا لم تكن فى مصلحة المسلمين فلا يهادنون بل يقاتلون حتى يسلم الحربيون أو يؤدوا الجزية [٢١]

---

(٢٠) تشريف الايام والعصور ص ١٥٦

(٢١) صبح الاعشى ج ١٤ ص ٧

ثالثا : ألا يكون فى العقد شرط يأباه الاسلام :

اشترط الفقهاء أن تكون المعاهدة متفقة مع أحكام الشريعة عملا بقول النبى ﷺ : « كل شرط ليس فى كتاب الله باطل » وقوله كذلك : « المسلمون على شروطهم الا شرط حرم حلالا أو أحل حراما » • ومن الشروط المرفوضة أن يترك بأيدى الحربيين مال مسلم أو يرد عليهم أسر مسلم انفلت منهم ، أو اذا شرط للحربيين على المسلمين مال أو جزية من غير خوف على المسلمين ، أوشرط رد مسلمه اليه م• وقد نادى الفقهاء بعدم شرعية التسليم بأى من هذه الشروط التى لا يصح معها الدخول فى أى عقد (٢٢) •

ومنذ فترة مبكرة قام الخلاف بين الفقهاء فيما يتعلق بمبدأ دفع الجزية للحربيين ولهم فى ذلك آراء متعددة • وبصفة عامة عارض الفقهاء فى دفعها الا عند الضرورة القصوى على أن يكون ذلك لفترة قصيرة (٢٣) • هذا وقد قامت الاختلافات بين الحكام المسلمين حول تقدير الظروف التى تجيز دفع الجزية ، وكانت لهم فى ذلك أحكامهم الخاصة • ومن الامثلة على ذلك كان النقد الشديد الذى وجهه الملك العادل نور الدين محمود لامير دمشق لقيامه بدفع جزية سنوية لملك بيت المقدس الصليبى الا أن نور الدين بعد ضمه لامارة دمشق الى حكمه سار على نفس الدرب الذى سار عليه أمير دمشق السابق فعقد هدنة مع الملك الصليبى ووافق على دفع جزية سنوية له (٢٤) •

---

(٢٢) أنظر : وهبة الزحيلى : العلاقات الدولية فى الاسلام ص ١٤٣— ص ١٤٤ ، صبح الاعشى ج١٤ ص ٧— ص ٨

(٢٣) من الحالات المبكرة التى دفع فيها المسلمون الجزية للحربيين كان فى المعاهدة بين الخليفة معاوية مع كونستانز الثانى الامبراطور البيزنطى — بالنسبة لمناقشة آراء الشافعية المالكية وغيرهم بالنسبة لشرط دفع المسلمين الجزية أرجع الى مجيد خدورى ص ٢٨٨

(٢٤) ابن القلانسى ص ٣٠٩ ، ص ٣٣٦ •

رابعا : النص على مدة المعاهدة :

وتتضمن المعاهدات الدولية عادة تحديدا لبدئها وانتهائها ، وكان للفقهاء المسلمين اجتهاداتهم واختلافهم فى الرأى حول مدة المعاهدات التى تعقد مع الدول غير الاسلامية وتراوحت آراؤهم مابين ضرورة النص على مدة الهدنة وتحديد مداها ، أو عدم النص وأن يكون أمر المدة موكولا الى اجتهاد الامام أو من كان مسئولا عن الدولة أو الامارة ، وما يتوصل اليه من رأى وتدبير فى هذا الشأن •

أما أولئك الذين نادوا بضرورة النص على مدة الهدنة ، فقد ذهبوا الى أنه اذا حدث فى ذلك تجاهل أو اغفال ، مقصودا كان أو غير مقصود أصبحت الهدنة باطلة وذلك فى المذهب الشافعى (٢٥) ودخل أصحاب هذا الرأى فى تفصيل ما يجوز أن تكون عليه من طول أو قصر ، وارتكزوا فى تحديد ذلك على ما كان المسلمون عليه من قوة أو ضعف ففى حالة قوة المسلمين وأمنهم ، يجب ألا تزيد على أربعة شهور ، ولا تبلغ سنة بحال • أما فى حالة ضعف المسلمين والخوف عليهم ، فأجازوا المهادنة الى عشرة سنين معتمدين فى ذلك على تلك السابقة التى وضعها الرسول صلى الله عليه وسلم فى معاهدة الحديبية مع أهل مكة لما حددها بعشر سنوات • ثم تطرق هؤلاء الفقهاء لمبدأ جواز تمديد مدة المعاهدة أو عدمه واختلفوا فى ذلك المبدأ فمنهم من لم يجزه ، ومنهم من قال بامكانية التجديد مرة وتليها مرة أخرى • ومما قيل فى ذلك : « فان احتيج الى الزيادة على العشر عقد على عشر ثم على عشر قبل أن تنقضى الاولى » (٢٦) •

---

(٢٥) ارجع ماروآه القلقشندى عن آراء الشافعية فى هذا المجال ج١٤ ص ١٣

(٢٦) المصدر السابق ج ١٤ ص ٨ ، بشأن تحديد مدة المعاهدة هناك عرض لاراء الحنابلة والحنفية والامامية والزيدية حول هذا الموضوع فى وهبه الزحيلى : العلاقات الدولية فى الاسلام ص ١٤٦ — ص ١٤٩ ، شرح السير الكبير ١—٣٢٠ •

هذا وقد سمح الفقهاء المالكية بعدم الزام العاقد المسلم بتحديد مدة دوام المعاهدة ، وأن يكون الامر موكولا الى اجتهاده وحسن تصرفه [٢٧] .
والواقع أننا اذا لاحظنا أن غالبية ما وصلنا من المعاهدات بين المسلمين والفرنجة فى هذه المرحلة قد التزم بالتحديد الزمنى الذى أشرنا اليه سلفا، فهناك كذلك عدد منها لم تحدد فيه المدة بل لقد تركت فيها مطلقة لا تحدها حدود زمنية . ومن الأمثلة على ذلك تلك المعاهدات التى ترجع الى أواخر القرن الثالث عشر الميلادى (أو اخر القرن السابع الهجرى) . ومنها المعاهدة التى عقدت سنة ٦٨٩هـ — ١٢٨٩م بين السلطان قلاون وابنه الملك الاشرف وبين الفونس الثالث ملك أجون الافرنجي ، وقد جاء فيها : وتستمر هذه المودة والمصادقة على حكم هذه الشروط المشروحة أعلاه على الدوام والاستمرار ، وتجرى أحكامها وقواعدها على أجمل الاستقرار، فان الملكتين بها قد صارتا شيئا واحدا ومملكة واحدة لا تنقض بموت أحد من الجانبين ولا بعزل وال وتوليه غيره ، بل تؤكد أحكامها وتدوم أيامها وشهورها وأعوامها ... » [٢٨] . وهناك كذلك الهدنة التى عقدت بين الاشرف خليل بن قلاون وجيمس الثانى ملك أرجون فى صفر ٦٩٢هـ — ١٢٩٣م ، وقد وردتبها عبارات مماثلة لما ورد فى اتفاقية أبيه قلاون مع ملك أرجون وكانت من نصوص معاهدة الاشرف خليل : « تستمر هذه المودة والمصادقة على حكم هذه الشروط المشروحة أعلاه من الجهات على الدوام والاستمرار ... » [٢٩] .

(٢٧) صبح الاعشى ، ج١٤ ص٨ ، لمزيد من المعلومات عمن لم يحددوا للمعاهد مدة معينة ارجع الى وهبة الزحيلي : العلاقات الدولية فى الاسلام ص ١٤٨ حيث يذكر ان المالكية والحنفية والزيدية كانوا من اصحاب هذا الرأى
(٢٨) تشريف الايام والعصور ص ١٦٢
(٢٩) صبح الاعشى ج ١٤ ص ٧٠

انشاء المعاهدة

اذا كان على العاقدين المسلمين ، عند انتقالهم الى مرحلة انشاء وصياغة المعاهدة الاستمرار فى مراعاتهم للشروط الشرعية والالتزام بها فانه كان عليهم كذلك مراعاة القواعد والاركان التى أصبحت دستورا متبعا لدى المسلمين عند انشاء المعاهدات وصياغتها ونعرضها فيما يلى :

الاستهلال :

ومن هذه القواعد ما كان يتعلق بالاستهلال أو مقدمة المعاهدة أو الهدنة . فكان ينص عليها صراحة بتحديد عنوان لها وجرت العادة أن تكتب لها طرة من أعلى الدرج أو الكتاب وتدرج فيها عبارة هذا كتاب هدنة أو هذه موادعة أو هذه مواصفة أو ما يشابه ذلك .

كما كانت توضع فى الاستهلال عبارات مناسبة من حيث تحسين موقع الصلح والحث عليه والفوائد التى تترتب على عقده . ومن امثلة ذلك العبارة التى أوردها القلقشندى فى مقدمة عقد صلح اطلع عليه ، وقد جاء فيها : « هذا عقد صلح انتظمت به عقود المصالح وانفسمت بواسطته سبل المناجح ، وتحدث بحسن مقدمته الغادى ، وترنم بيمن نتيجته الرائح» [٣٠] . كما كان استهلال الهدنة مع الافرنج يتطلب الاشارة الى ما أمر به القرآن الكريم فى الصلح والسلم ، ويحتج كاتب العقد بآيات من الكتاب مثل : « وان جنحوا للسلم فأجنح لها وتوكل على الله » كما كانت تضاف اشارات لما ورد فى سنة الرسول فى هذا الشأن ومصالحته قريشا عام الحديبية ، وكذا ما جرى عليه الخلفاء الراشدون من بعده وكفهم عن القتال [٣١] .

(٣٠) المصدر السابق ج ١٤ ص ١٢
(٣١) المصدر السابق ج ١٤ ص ١٢

أثبات العـــاقدين :

وكان المسلمون حريصين على أثبات العاقدين والتثبت من شخصهما وبيان اذا ما كانت المعاهدة وقعت بين ملكين مسلم وصليبى ، أو بيـــن نائبيهما أو بين أحدهما ونائب الاخر • وفى حالة الانابة كان على النائب أن يأتى بمستند رسمى من مـــولاه الغـــائب يقضى بتفويضه ، وأن يكون هذا المستند مختوما بختمه المتعارف عنه ، أو وكالة عنه ويتعرض الى قيام البينة بها وثبوتها بمجلس الحكم وان كانت المعاهدة بين نائبين ، نص على ذلك وأبرز مستند كل منهما • وفضلا عن ذلك فكان على النائب أن يقر بأنه فى قيامه بمهمته كان يفعل ذلك باختياره وليس عن اكراه واجبار ، وانما كان يفعل ذلك سعيا وراء المصلحة والنفع بالنسبة لنفسه ولمولاه (٣٢) •

أستعمال الاسلوب المناسب :

وعرف المسلمون استعمال الاسلوب المناسب واللهجة اللائقـــة فى اشاراتهم الى كل من العاقدين بما يليق بهما من مكانة التعظيم أو انحطاط الرتبة واستعمال ما يتطلبه كل موقف من ملاينة أو تشدد • فاذا كانت المهادنة بين متكافئين تطلب ذلك المساواة بينهما فى التعظيم ، الا اذا كان أحدهما أسن من الاخر فيراعى ما يجب له على الحدث من التأدب معه ، ويراعى للحدث ما يجب له على الكبير من الحنو والشفقة • وان كانت المعاهدة من قوى الى ضعيف ، أخذ فى الاشتداد ويتعين أن يأتى فى العقد ما يدل على المقدرة والقوة العسكرية ويظهر ذلك بشكل خاص عندما يكون المتعاقد القوى مسلما والمتعاقد الضعيف افرنجيا • ويضاف الى ذلك ذكر مـــا للاسلام من عزة • أما اذا كانت المهادنة فى حالة ضعف أو مشاكل ألمت

---

(٣٢) المصدر السابق ج ١٤ ص ٤٤

بالمسلمين ، فكان ذلك يتطلب الملاينة ولكن فى مثل هذه الحالة كان على العاقد المسلم أن يظهر متماسكا (٣٣) •

وكان من الطبيعى فى انشاء المعاهدة أن تتضمن المسائل والامور التى يريد الطرفان معالجتها والوصول الى اتفاق بشأنها • ومن يطلع على ما عقد من معاهدات بين الجانبين يجد موادا متنوعة منها السياسى والعسكرى والاقتصادى والاجتماعى وذلك على ما سنوضحه فى الفصل التالى •

أثبات تأريخ عقد المعاهدة :

وكان اثبات تاريخ عقد المعاهدة من الامور التى يحرص عليها الطرفان وكان مما يفرض على المسلمين عمل ذلك ، ما ذهب اليه الفقهاء من ضرورة تحديد مدة الهدنة وعدم جعلها مطلقة الدوام • وكان تاريخ المعاهدة يجمع بين التحرير الهجرى والميلادى • واعتاد المسلمون المقابلة بين السنوات الشمسية والسنوات القمرية ودققوا فى ذلك (٣٤) •

كتابة المعاهدة بالعربية والافرنجية :

وكان من الضرورى أن يعمل الطرفان الاسلامى والصليبى للتغلب على مشكلة الاختلاف فى اللغة بينهما عند كتابة المعاهدة وقد فعلوا ذلك بعمل نصين لها أحدهما عربى والاخر افرنجى وذلك بمســاعدة القائمين على عملية الترجمة وكان يكتب النص العربى كاتب المسلمين والنص الافرنجى ويكتبه كاتب الافرنج مع تحرى المطابقة والتدقيق فى ترجمة ما يكتب (٣٥) وكانت تعد نسختان من المعاهدة ليحتفظ المسلمون بواحدة والفرنجة بالاخرى • وهناك ما يفيد بأن كلا من النسختين كان يكتب بالعربية ومعها

---

(٣٣) المصدر السابق ج ١٤ ص ١٣

(٣٤) لمزيد من المعلومات طريقة تحويل السنوات الشمسية لسنوات قمرية عند المسلمين يمكن الرجوع الى صبح الاعشى ج ١٣ ص ٢، ص٥٤ •

(٣٥) المصدر السابق ج ١٤ ص ٧٠ — ص ٧١

النص الافرنجي • ومما يدل على ذلك ماورد بشأن المعاهدة بين السلطان قلاون ورسل ملك أرجون (٦٨٩هـ — ١٢٨٩م) • فقد جاء فى « تشريف الايام والعصور » أن هؤلاء الرسل أقاموا أياما حتى تحررت نسخة هدنة كتب رسله نسختها بأيديهم بالعربى والافرنجي ، واستصحبوها معهم الى مخدومهم ،وكتبوا خطوطهم على النسخة التى بالعربى وتدركوها حتى يتوجهوا الى مخدومهم ... » (٣٦) • كما جاء فى ذات المصدر بشأن هدنة أخرى عقدها السلطان السالف الذكر مع جنوة (١٣ مايو ١٢٩٠م) ما يلى : « وكتبت بين السطور بالفرنجي نسخة ذلك سطرا سطرا وكلمة كلمة وكتب الرسول خطه أعلى هذه الهدنة بالفرنجي بيده » (٣٧) •

الاشهاد والتحليف على المعاهدة

وحرصا منهما على تنفيذ مواد وشروط المعاهدة وما تنص عليه ، حاول الطرفان اتخاذ الاحتياطات والاجراءات التى تطمئنهم وتحقق لهم مصالحهما ، وذلك عن طريق ما فرضوه من شهادة الشهود من الجانبين على الالتزام بها ، وهذه اجراءات عرفها المسلمون باحكام معاقد الهدنة •

وكان على كل من الطرفين العاقدين احضار شهود من الاعيان من جانبه لاشهادهم على عقد المعاهدة • وكثيرا ما كانت شهادتهم تثبت مع كتاب المعاهدة (٣٨) • ويبدو أن القصد من وراء ذلك هو اشراك هؤلاء الاعيان فى تحمل مسئولية تنفيذ المعاهدة كمتضامنين مع ملكهم أو مولاهم فى عقدها •

(٣٦) تشريف الايام والعصور ص ١٥٦
(٣٧) المصدر السابق ص ١٦٧
(٣٨) صبح الاعشى ج ١٤ ص ة١ ، انظر المعاهدة بين قلاون والجنوية سنة ٦٨٩ هـ/١٢٩٠ م التى سجلت فيها أسماء من شهدمن الفرنجه على عقدها — تشريف الايام والعصور ص ١٦١ — ص ١٦٦

وعرف المسلمون والفرنجة قاعدة التحليف عند ابرام المعاهدة ،فكانوا يقسمون اليمين على الوفاء بالعهود وعدم النكث بها ، أو عدم الاخلال بشرط من الشروط أو الخروج عن شيء من الالتزامات أو محاولة التأويل فى شيء من ذلك أو السعى الى نقضه أو نقض شيء منه • وهناك ما يفيد بأن المختصين من كتاب المعاهدات رتبوا صيغا لليمين التى يقسم بها الملك المسلم أو نائبه عند مهادنة الفرنج ، وأخرى يحلف بها الافرنج • ومن الطريف أن نلاحظ أن المسلمين أدركوا ماللمسيحيين من مذاهب دينية مختلفة ، وأنهم جعلوا يمينا خاصا لاتباع كل من هذه المذاهب من اليعاقبة أو الملكانيين أو أتباع الكنيسة الكاثوليكية ، وذلك امعانا من جانب المسلمين فى محاولة الزام كل فريق منهم بالوفاء بالقسم الذى يخصه (٣٩) •

ومن الامثلة على الايمان التى يحلف بها المسلمون كان ذلك اليمين الذى حلف عليها السلطان الملك المنصور قلاون على الهدنة الموقعة بينه وبين الفرنج فى مملكة عكا وتوابعها (ربيع الاول سنة ٦٨٢هـ — مايو ١٢٨٣م) وقد جاء فيها :

« أقول وأنا فلان ، والله والله والله ، وبالله وبالله وبالله ، وتالله وتالله وتالله ، والله العظيم ... أننى أوفى بحفظ هذه الهدنة المباركة ... وان نكثت هذه اليمين ، فليزمنى الحج الى بيت الله الحرام بمكة حافيا حاسرا ثلاثين حجة ، ويلزمنى أن أصوم الدهر كله الا الايام المنهى عنها ... » (٤٠) •

ومما ورد فى اليمين التى حلف عليها العاقدون الافرنج فى نفس الهدنة (سنة ٦٨٢هـ) :

(٣٩) صبح الاعشى ج ١٣ ص ٣١١ ، ص ٣١٧
(٤٠) المصدر السابق ج ١٣ ص ٣١٢

« واللـــه واللـــه واللـــه ، وباللـــه وباللـــه وبالله ، وتاللـــه وتالله وتالله ، وحق المسيح وحق المسيح وحق المسيح ، وحق الصليب وحـق الصليب ، وحق الاقانيم الثلاثة من جـوهر واحد المكنى بهـا عن الاب والابن وروح القدس اله واحد ••• أننى من وقتى هذا وساعتى هذه ، قد أخلصت نيتى وأصفيت طويتى فى الوفاء للسلطان الملك المنصور ولولده الملك الصالح ولاولادهما ، بجميع ما تضمنته هذه الهدنة المباركة التى انعقد الصلح عليها ••• وأعمل بجميع شروطها شـرطا شرطا ، والتزم بالوفاء بكل فصل فى هذه الهدنة المذكورة الى انقضاء مدتها ••• ومتى خالفتها ونقضتها فاكون بريئا من دينى واعتقادى ومعبودى وأكون مخالفا للكنيسة ويكون على الحج الى القدس الشريف ثلاثين حجة حافيا حاسرا ، ويكون على فك ألف أسير مسلم من أسر الفرنج واطلاقهم وأكون برئيا من اللاهوت الحال فى الناسوت ••• والله والمسيح على ما نقول وكيل » [٤١] •

وكانت اليمين تكتب أحيانا منفصلة عن الهدنة وأحيانا أخرى تكتب متصلة بها • ويبدو أنه اذا تيسر حلف اليمين عقب الهدنة لوجود العاقدين كتب معها وجاء متصلا بها ، والا أعد كل من الجانبين نسخة خاصـــة لليمين [٤٢] •

وفضلا عما اعتاده المسلمون والفرنجة من الاشهاد على المعاهدة وحلف اليمين من أجل ضمان تنفيذها ، كانوا يتبادلون الرهائن لتحقيق نفس الغرض • وعند تنفيذ شروط المعاهدة ، كانت الرهائن تعاد الى بلادها دون أن يلحقها أذى أما اذا خرقت المعاهدة ، اعتبر هؤلاء أسرى حرب •

---

(٤١) المصدر السابق ج ١٣ ص ٣١٣ـــص ٣١٤ ـــ أنظر كذلك نسخة من يمين حلف بها الافرنج بالابواب السلطانية بمصر سنة ٧٧٢هـ/١٣٧٠م وقد جاءت بها عبارات أشد وأقوى ، ويرجع هذا على مايبدو الى تشكك المسلمين فى نوايا الافرنج فى تنفيذ عهودهم ومطالبتهم بالتأكيد على ذلك ارجع الى نفس المصدر ج ١٣ ص ٣١٥ـــص ٣١٧ ـــ وهناك كذلك يمين قلاون مع ملك أرجون بشأن معاهدة ٦٨٩هـ • أنظر تشريف الايام والعصور ص ١٦٧ ـــ ص ١٦٨

(٤٢) صبح الاعشى ج ١٣ ص ٣١٤ ـــ ص ٣١٥

المعـــاهدات بين التنفيـــذ والنقض

التنفيـــــــذ :

بعد ابرام المعاهدة بين الطرفين الاسلامى والفرنجى ، يكون المقرر لها أن تدخل مرحلة التنفيذ ، وكثيرا ما التزمت الدول والامارات الاسلامية والفرنجية بتنفيذ المعاهدات ، على الاقل لفترة من الزمان • فالدول والحكام عندما يعقدون المعاهدات انما يفعلون ذلك لتحقيق مصالح يحتاجون اليها أو لمعالجة مشاكل يعانون منها ، مما يجعلهم يحرصون على تنفيذ المعاهدة ، على الاقل طالما كانت المصلحة تتطلب ذلك •

كما أن ما يقسمه العاقدون للمعاهدات من ايمان كان يقتضى تنفيذ المعاهدات • وكان الاسلام سابقا لعصره فى احترام العهد الذى ينص عليه القانون الدولى الحديث • والشريعة الاسلامية واضحة فى تأكيدها على ضرورة الوفاء بالعهد والالتزام به •ووفقا لما ورد بها فان الوفاء بالعهدملازم لصفة الايمان ، ونقض العهد شأن المنافقين لا المـؤمنين • وممـا ورد فى القرآن الكريم فى هذا الشأن : « الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق » [٤٣] • وهناك أيضا : « وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ، ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها ، وقد جعلتم الله عليكم كفيـلا ، ان الله يعلم مـا تفعلون » [٤٤] • وهناك أيضا : « ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما » [٤٥] • أما الاحاديث النبوية الشريفة فما جاء فيها : « لا ايمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا عهد له » • كما أجمع الفقهاء على مبدأ احترام العهـد • وكان للمسلمين مواقف مشهودة فى الوفاء بالعهد واحترامه •

---

(٤٣) الرعد الاية ٢٠
(٤٤) النحل الاية ٩١
(٤٥) الفتح من الاية ١٠

تمديد المعـــاهدة :

فى حالة تنفيذ المعاهدة لمدة قد تطول أو تقصر ، كان لابد وأن تؤول الى مصير من المصائر التالية التى تتفاوت ما بين التمديد أو التعديل لبعض شروطها أو الفسخ أو النقض •

أما التمديد ، فيحدث اذا اقتنع الطرفان بصلاحية المعاهدة لهمـا ومناسبتها لظروفهما ، وبناء على ذلك يتفقان على تمديدها مدة أخرى وكان التجديد عادة يتم قبل نفاذ المدة المنصوص عليها فى المعاهدة • وقد ورد فى المصادر العربية ، أن فى حالة اضطرار المسلمين لعقد هدنة تصـل الى الحد الاقصى الذى نص عليه بعض فقهائهم وهو عشر سنوات ، يمكن أن تجدد عشر ثم عشر سنوات أخرى على المذهب الشافعى [٤٦] •

أما التعديل فيكون عندما يجد الطرفان المشتركان فى المعـاهدة أن الظروف التى أبرمت فيها قد اعتراها تغيير ، وهما مع حرصـهما على الالتزام بالمعاهدة يرون ضرورة اعادة النظر فى بعض شروطها بالحذف أو الاضافة أو التعديل •

انهاء المعاهدة (الفسخ والمفاسخة والنقض) :

وقد يرى أحد طرفى المعاهدة أو الطرفان أن الظروف التى أدت الى عقدها قد تغيرت وأن ما استجد من أوضاع يتطلب انهاءها أو فسخها بطريقة شرعية • وكانت لانهائها اجراءات وتقاليد خاصة وقد وردت فى التعريف نصوص دقيقة وتقاليد عرفها المسلمون ، وأشاروا اليها بمصطلحى الفسخ والمفاسخـة •

وبالنسبة للفسخ فيكون من جانب واحد ، وكان يبعث به شفويا على السنة الرسل ، كما تكتب فيه رسالة يبين فيها الفاسخ الاسباب التى

(٤٦) صبح الاعشى ج ١٤ ص ٨

يراها موجبة للفسخ ، وهذه تنسب لتصرفات قام بها الاخر (المفسوخ عليه) ، من ظهور ، ما يوجد نقض العهد • كما كان على الفاسخ اقامة الحجة على المفسوخ عليه • وحدد « التعريف » نصا رسميا يقتدى به فى الكتابة فى حالة الفسخ جاء فيه :

« هذا ما استخار الله تعالى فيه فلان ، استخارة تبين له فيها غدر الغادر ، وأظهر له بها سر الباطن ما حققه الظاهر ، فسخ فيها على فلان ما كان بينه وبينه من المهادنة التى كان آخر الوقت الفلانى آخر مدتها• » [٤٧]

أما المفاسخة فهى كما يفهم من اللفظ تكون من الجانبين ، وصورة ما يكتب فيها : « هذا ما اختاره فلان وفلان من فسخ ما كان بينهما مـن المهادنة التى هى الى آخر مدة كذا اختارا فسخ بنائها ونسخ أنبائها ، ونقض ما أبرم من عقودها ، وأكد من عهودها ••• وقد أشهدا عليهما بذلك الله وخلقه ومن حضر ، ومن سـمع ومن نظر ، وكان ذلـك فى تاريـخ كذا وكـذا ••• » [٤٨] •

وهناك أيضا خرق المعاهدة أو نقضها بشكل مفاجىء وبدون أنـذار ، وذلك فى غير الاحوال السالفة الذكر ، ويكون ذلك بعدم احترام شروط الهدنة ، ومباغتة أحد الطرفين للاخر بشن الهجوم عليه وعلى ممتلكاته وهو غير ملتزم بالمعاهدة • وأحيانا يقوم خرق الهدنة فى أعقاب مراسلات بين الجانبين يحاول كل طرف فيها أن يحمل الاخر وزر خرق الهدنة ونقضها [٤٩]

(٤٧) المصدر السابق ج ١٤ ص ١٠٨ — ص ١٠٩
(٤٨) المصدر السابق ج ١٤ ص ١٠٩
(٤٩) من الامثلة على هذا النوع من المراسلات ما تبادله السلطان بيبرس ومقدم الاسبتارية — أنظر الفصل السادس الخاص بالمراسلات الدبلوماسية

الفصل التاسع

مواد المعاهدات والعلاقات السلمية

لاشك أن للمعاهدات أهميتها كمصدر أساسى لدراسة التاريخ الدبلوماسى • وللاسف فان الكثير منها فقد ، ولم تصلنا منها الانسبة محدودة ولكنها على قلتها تزود الباحث بمعلومات ذات قيمة علمية بالغة •

وقد تناولنا فى الفصل السابق المعاهدات من حيث شروطها الشرعية وصياغتها وقواعدها والتحليف والاشهاد عليها ومصيرها • وسوف ننتقل هنا لنولى عنايتنا لدراسة المواد التى تضمنتها المعاهدات ، وهى دراسة جديرة بالاهتمام لارتباط هذه المواد بوضع الاسس للتعايش السلمى بين المسلمين والفرنجة • وفى الواقع أن هذه المواد تلقى الاضواء على العلاقات السلمية بين الجانبين ، موضحة للعديد من خصائصها ومظاهرها • ويستطيع المرء أن يقدر مدى أهمية المعلومات التى تزودنا بها تلك المواد ، اذا أدرك أنه لم تأت فى الحوليات والمصادر التاريخية الاخرى الا اشارات موجزة وسريعة عن هذا التعايش السلمى •

وسوف نعرض فيما يلى أهم القواعد والنظم التى توصل اليها المسلمون والفرنجة لتنظيم التعايش السلمى والعلاقات السليمة بين الجانبين وذلك فى ضوء ما تقدمه مواد المعاهدات من المعلومات • وتتمثل هذه القواعد والنظم فيما يلى :

— رسم الحدود بين الدول والامارات الاسلامية والصليبية •
— احترام الحدود وعدم التعرض لممتلكات الطرفين •
— تحفظات على أوضاع الابنية العسكرية على الحدود •
— تسوية مشاكل الاسرى والرهائن •
— عزل الامارات الصليبية فى الشام عن الغرب الاوروبى •
— نظام بلاد المناصفات وادارتها المشتركة •
— الرسوم والضرائب •
— معاملة الفلاحين •

— المـــــراعى .
— نظم رفع الدعاوى والمحاكمات وتنفيذ الاحكام .
— المعاملات التجارية .
— مواد فى العرف الدولى البحرى .
— مواد خاصة بالامور الدينية : زيارة الاماكن المقدسة وتغيير العقيدة

رســـم الحـــدود :

ويظهر الاهتمام واضحا فى كثير من المعاهدات بشأن رسم الحدود بين الدول والامارات الاسلامية وتلك الخاضعة للفرنجة ، وتحديد البلاد التى تتبع لكل من المسلمين والفرنجة وذلك لكثرة ما قام من قتال وحروب بين الجانبين وما ترتب على ذلك من مد وجزر فى الحدود المشتركة ، وتراوح الكثير من البلاد الشامية ما بين الحـكم الاســلامى والمسيحى وتشهـد الكثير من المعاهدات على تحرى الدقة البالغة فى رسم الحدود ، كما تبين معرفة دقيقة بأسماء البلدان والمواقع وفى كثير من الاحيان قدمت المعاهدات حصرا تفصيليا لها [١] .

احترام الحدود وعدم التعرض لممتلكات الطرفين :

تعددت النصوص فى المعاهدات لالزام المسئولين المسلمين والفرنجة باحترام الحدود والحيلولة دون وقوع أى اعتداء عليها سواء أكان ذلك من جانب القوات العسكرية أو من جانب عناصر أخرى مثل اللصوص وقطاع الطرق ، هذا مع تكليف الجانبين بردع هذه العناصر . وقد جاء على سبيل المثـــال :

---

(١) انظر على سبيل المثال الثبت الشامل فى المعاهدة الموقعة بين قلاون وفرنج عكا فى ٣ يوليو ١٢٨٣م فى ملاحق السلوك للمقريزى ، ج ١ ص ٩٨٧— ص ٩٨٨

« ويلزم السلطان وولده حفظ هذه البلاد المشروحة التى انعقـدت عليها الهدنة من نفسهما وعساكرهما وجنودهمـا ومن جميع المتجرمـة والمتلصصين والمفسدين ، ممن هو داخل تحت حكمها وطاعتهما . ويلزم كفيل المملكة بعكا والمقدمين بها حفظ هذه البلاد الاسلامية المشروحة التى انعقدت عليها الهدنة من نفسهم وعساكرهم وجنودهم ومن جميع المتجرمة والمتلصصين والمفسدين ، ممن هو داخل تحت حكمهم وطاعتهم بمملكتهم الساحلية الداخلة فى هذه الهدنة » [٢] .

تحفظات على الابنية العسكرية الواقعة على الحدود :

وفى بعض المعاهدات نجد حرصا على الابقاء على الحصون والقلاع الواقعة على الحدود على حالتها دون أى زيادة فى استحكاماتها أو تعديل فى تحصيناتها ، مما قد يؤثر على التوازن العسكرى ، وذلك حتى لا يعمد الفرنجة الى عمل ما يزيد فى قوتهم بتدعيم حصونهم أو انشاء حصون جديدة ونصت بعض المواد على الا يباشر الفرنجة أى اصلاحات لازمة بها الا بعد معاينة النواب المسلمين وموافقتهم على ذلك ومن المواد التى جاءت فى هذا الشأن:

« وعلى أنهم لا يجددون عمارة قلعة ، ولا فى القلعة عمارة ولا فى ابرجها ولا يعتمدون اصلاح شىء منها الا اذا عاينة نوابنا أو أبصروا أنه يحتاج الى الضرورة فى ترميم يرممونه بعد أن يعاينه نوابنا من هذا التاريخ ، ولا يجددون عمارة فى ربضها ولا فى سورها ولا فى أبراجها ، ولا يجددون حـ وعمارة خندق ، أو تجدد بناية خندق أو قطع جبل ، أو تحصين عمارة ، أو تحصن بقطع جبل منسوبا لتحصين يمنع أو يدفع . ولم نأذن لهم بسوى البناية على أثر التى أحرقت عند دخول العساكر صحبه الملك السعيد . وقد

---

(٢) المعاهدة السابقة فى السلوك للمقريزى ج ١ ص ٩٩٤

أذنا لهم فى عمارة باطن الربض على أثر الاساس القديم »[٣] .

مشاكل الاسرى والرهائن :

وتعكس نصوص المعاهدات اهتماما واضحا بأمور الاسرى والرهائن وطريقة معاملتهم وتنظيم اطلاق سراحهم [٤] ونحن نسمع عن حالات يسمح فيها المسلمون لرسل الافرنج بدخول البلاد الاسلامية لتفقد أحوال أسراهم ولابد أن المسلمين كان يسمح لهم بالمثل . وقد اختلفت الشروط بالنسبة لمعاملة الاسرى وفقا لعوامل متعددة منها مكانة الاسير ومدى أهميته ، وكذلك ما يكون عليه من التزامات للطرف الاخر سواء أكان ذلك على شكل مال أو غلة أو غيرها ، وكان يتطلب أن يكون هناك شهود على على هذا الالتزام ، ويطلق سراحه بعد أن يوفى ما عليه . أما أولئك الذين يحتجزون بدون سبب فيطلق سراحهم وفقا لما ينعق عليه ومما جاء فى معاملة الاسرى والرهائن كانت المادة التالية :

« وعلى أن الرهائن بعكا والبلاد الساحلية الداخلة فى هذه الهدنة ، كل من عليه مبلغ أو غلة ، فيحلف والى ذلك المكان الذى منه الرهينة ، ويحلف المباشر والكاتب فى وقت أخذ هذا الشخص رهينة عليه كذا وكذا من دراهم أو غلة أو بقر أو غيره . فاذا حلف الوالى والمباشر والكاتب قدام نائب السلطان وولده على ذلك يقوم أهل الرهينة عنه بما للفرنج عليه فيطلقونه وأما الرهائن الذين أخذوا منسوبا الى الجفل والاختشاء أنهم لا يهربون

(٣) معاهدة بيبرس مع الاسبتارية ٦٦٩ ه‍/١٢٧١م راجع صبح الاعشى ج ١٤ ص ٤٩

(٤) أنظر على سبيل المثال ماجاء فى ابن شداد ص ١٧٣

الى بلاد الاسلام ، ويمتنع الولاة والمباشرون من اليمين عليهم ، فأولئك يطلقون »[٥] .

عزل الامارات الصليبية فى الشام عن الغرب الاوروبى :

لاشك أن وصول أية قوات افرنجية جديدة من الغرب الاوروبى الى الشام كان خطرا أخذه المسلمون فى اعتبارهم لما قد يترتب على ذلك من زيادة فى قوة الفرنجة بالشام وتغيير فى ميزان القوى العسكرية لغير صالح المسلمين.وقدعمد المسئولون المسلمون لمواجهة هذه المشكلة بفرض مواد معينة فى بعض معاهداتهم مع الفرنجة بالشام أو مع من دخلوا معهم فى معاهدات من حكام دول غرب أوروبا ، وذلك على سبيل التحفظ والاستعداد لما يستجد من تطورات .

واشترط المسلمون فى بعض معاهداتهم مع فرنجة الشام أن يبلغوهم عن أية تحركات من جانب القوى الغربية التى تتجه نحو الشرق لمنازلة المسلمين ، ومن ذلك :

« وعلى أنه متى تحرك أحد من ملوك الفرنجة من جوا البحر (من غرب أوروبا) بقصد الحضور لمضرة السلطان وولده فى بلادهما المنعقد عليها هذه الهدنة ، فيلزم نائب المملكة والمقدمين بعكا أن يعرفوا السلطان وولده بحركتهم قبل وصولهم الى البلاد الاسلامية الداخلة فى الهدنة بمدة شهرين وان وصلوا بعد انقضاء مدة شهرين ، فيكون كفيل المملكة بعكا والمقدمون بريئين من عهدة فى هذا الفصل »[٦] .

(٥) أى الذين آسروا على أثر ماأصابهم من فزع وخوف
هذه المادة وردت فى المعاهدة بين قلاون وفرنج عكا فى ٥ ربيع الاول ه‍/٣ يوليو ١٢٨٣م ، ارجع الى المقريزى : السلوك ج ١ ص ٩٩٣

(٦) معاهدة قلاون مع فرنج عكا ٦٨٢ ه‍/١٢٨٣م ، ارجع الى المقريزى: السلوك ج ١ ص ٩٩٢

ومن ناحية أخرى فان المسلمين فى علاقاتهم مع بعض حكام الغرب الاوروبى وفى المعاهدات التى عقدوها معهم ، عمدوا الى الحيولة دون تجمع القوى الغربية لنصرة الفرنجة فى الشام ، وعدم وصول مساعدات لهم من الغرب وعزلهم . ومما جاء فى ذلك كانت مواد المعاهدة التى عقدت بين السلطان قلاون وولده الاشرف مع الفونس الثالث ملك أرجون (الريد أرغون صاحب برشلونة) فى ١٣ ربيع الاخر سنة ٦٨٩هـ — ٢ ابريل ١٢٨٠م) فقد جاءت نصوص دقيقة واضحة لتحديد موقف هذا الحاكم الافرنجى من القوى الفرنجية فى حالة قيامها للاعتداء على الممتلكات الاسلامية التابعة للسلطان ، سواء أكانت هذه القوى ممثلة فى البابوية أو أى من ملوك وأمراء الافرنج أو المدن التجارية الايطالية أو الجماعتين الداوية والاسبتارية . وقد تعهد ملك أرجون أنه فى هذه الحالة يمتنع عن مساعدتهم فى عدوانهم بأى شكل سواء أكان ذلك سرا أو علانية ، وأن يقف ضدهم بقوته العسكرية ، وأن يعلم السلطان بخبرهم وبالجهة التى ستتعرض لهجومهم . وجاءت فى ذلك المواد التالية من المعاهدة المذكورة :

« ... وأن قصد الباب (البابا) بروميه ، أو ملك من ملوك الفرنج ، متوجا كان أو غير متوج كبيرا كان أو صغيرا ، أومن الجنوية أو من البنادقة أو سائر الاجناس على اختلاف الفرنج والروم . والبيوت بيوت الاخوة الديوية (الداوية) والاسبتارية ، وجميع أجناس النصارى ، مضرة مولانا السلطان بمحاربة أو أذية ، يمنعهم الملك الريد أرغون ، ويردهم ، ويعمر شوانية ومراكبة هو واخوته ، ويصدون بلادهم ويشغلونهم بنفوسهم عن قصد مضرة بلاد مولانا السلطان وموانية وسواحله وثغوره المذكورة وغير المذكورة ، ويقاتلونهم فى البر والبحر بشوانيهم وعمائرهم وفرسانهم وخيالتهم ورجالتهم .

وعلى أنه من خرج أحد من معاهديهم على مولانا السلطان من الفرنج

بعكا وصور وبلاد الساحل وغيرها عن شروط الهدنة المستقرة بينه وبينهم ووقع ما يوجب فسخ الهدنة لا يعينهم الملك الريدراغون ولا اخوته ولاخيالته ولا فرسانه ولا أهل بلاده بخيل ولا خياله ، ولا سلاح ولا مال ولا نجده ولا ميرة ولامراكب ولاشوانى ولا غير ذلك .

وعلى أنه متى طلب الباب برومية ، وملوك الفرنج والروم والتتار وغيرهم من الملوك من الملك الريدراغون أو من احوته ، أو من بلاده انجادا أو معونة أو خياله أو رجالة أو مال أو مراكب أو شوانى أو سلاح ، لا يوافقهم على شىء من ذلك ، لا فى سرولا فى جهر ، ولا يعين أحدا منهم ولا يوافقه على ذلك.ومتى اطلع على أن أحدا منهم يقصد بلاد مولانا السلطان بمحاربة أو بمضرة يسير يعرف مولانا السلطان بخبرهم وبالجهة التى اتفقوا على قصدها فى أقرب وقت قبل حركتهم من بلادهم ، ولا يخفيه شيئا من ذلك ... » (٧) .

نظام بلاد المناصفات وادراتها المشتركة

كان المسلمون عامة فى علاقتهم الخارجية مع الدول غير الاسلامية ، ومنها دولة الفرنجة فى الشام ، يقسمون العالم الى ثلاثة دور هى دار الاسلام ودار الحرب ودار العهد . هذا وكان من التنظيمات التى لجأوا اليها فى علاقاتهم مع الفرنجة بالشام تنظيم يمكن الحاقة بدار العهد ، أشاروا اليه باسم بلاد المناصفات وقد أوجدوا هذا التنظيم كوسيلة من الوسائل التى اعتمدوا عليها فى حل مشاكل الحدود والمناطق المتنازع عليها فى البلاد الشامية . وكان هذا التنظيم ، فى حقيقة أمره بماله من مقومات

(٧) تشريف الايام والعصور ص ١٥٩ — ص ١٦٠ — وهناك مواد مماثلة جاءت فى معاهدة أخرى عقدها السلطان الاشرف خليل مع ملك أراجون سنة ٦٩٢ هـ/١٢٩٣م — أنظر صبح الاعشى ج ١٤ ص٦٦ — ص٦٧

وخصائص ، سابقا على ما توصلت اليه بعض الدول فى العصر الحديث لحل مشاكل مناطق الحدود المتنازع عليها . ونقدم فيما يلى صورة لنظام بلاد المناصفات بقدر ما تسمح به المعلومات التى أوردتها المصادر .

ومن الاشارات الاولى لهذا النظام كان ماذكره المؤرخ ابن شداد أثناء تناوله المفاوضات بين صلاح الدين الايوبى وريتشارد قلب الاسد. تلك المفاوضات التى كان من شروطها أن تصبح الرملة ولد مناصفة بين المسلمين والفرنجة [٨] . أما الرحالة المغربى ابن جبير الذى زار بلاد الشام ابان عهد السلطان صلاح الدين ، فيتحدث عن هذا النظام الذى أشار اليه باسم حد المقاسمة الذى لاحظة مطبقا فى المنطقة الممتدة من مدينة بانياس الى حصن هونين ويقول عنه : « وعمالة تلك البطحاء بين المسلمين والافرنج ، لهم فى ذلك حد يعرف بحد المقاسمة ، فهم يتشاطرون الغلة على استواء ، ومواشيهم مختلطة ، ولا حيف يجرى بينهما ... » [٩] .

ويرجع الفضل الى مواد بعض المعاهدات فى تزويدنا بمعلومات أكثر وضوحا عن بلاد المناصفات ومن أهم هذه المعاهدات معاهدة السلطان بيبرس مع جماعة الاسبتارية فى ٤ رمضان سنة ٦٦٥هـ — مايو ١٢٦٧م ، ومعاهدته مع ملكة بيروت فى ٦ رمضان ٦٦٧هـ — مايو ١٢٦٩م ، ثم معاهدة قلاون مع افرنج عكا فى ٥ ربيع الاول ٦٨٢هـ — يوليو ١٢٨٣م .

والخصائص العامة المميزة لبلاد المناصفات يمكن أن نجملها على النحو الاتى : فانها مناطق محايدة تكون تحت ادارة اسلامية فرنجية مشتركة وتراعى فيها الشريعة الاسلامية فيما يختص بالمسلمين وتطبق القوانين الافرنجية فيما يتعلق بالفرنجة . كما أن نظم ادارتها تشمل شئون متعددة، ومنها ما ينص على تنظيم فرض الرسوم والضرائب ، وكذلك شئون الامن

---

(٨) ابن شداد ص ٢٣٣

(٩) ابن جبير ص ٢٧٤

والمحاكمات ، ومعاملة الفلاحين ورعى الاغنام والماشية ومصائد الاسماك والنشاط التجارى . وادارة بلاد المناصفات فى مجموعها كانت لتنظيم التعايش والتعامل السلمى فى مناطق الاحتكاك التى يتفق الطرفان على تحديدها .

بلاد المناصفات كمنطقة محايدة :

من المواد الواردة فى المعاهدات بشأن اعطاء بلاد المناصفات طابع المنطقة المحايدة ، كانت تلك المواد التى تنص على عدم السماح لاى من الطرفين أو أتباعهما باستعمال تلك البلاد للعبور منها لمهاجمة بلاد الطرف الاخر . ومن هذا النوع من المواد ، تلك المادة التى جاءت فى معاهدة بيبرس مع الاسبتارية وقد جاء فيها :

« وعلى أن لا يدخل أحد من القاطنين فى بلاد المناصفات : من الفلاحين والعرب والتركمان وغيرهم الى بلاد الفرنج والنصارى كافة لاغارة ولا أذية بعلم الملك الظاهر — بيبرس — وبلاد معاهدية — ولا يدخل أحد بلاد المسلمين لاغارة ولا أذية بعلم الاسبتارية ولا رضاهم ولا اذنهم » [١٠].

الادارة المشتركة فى بلاد المناصفات :

وكانت لبلاد المناصفات ادارة مشتركة بين المسلمين والفرنج يرأسها نائبان أحدهما يمثل السلطان والاخر ويمثل الأمير الافرنجى الذى وافق على عقد المعاهدة . واختصاصات وظيفة « النائب » غير واضحة ، ولكن يبدو أن الشئون المالية كانت تحتل مكانة خاصة بين مسئولياته [١١] .

---

(١٠) هدنة بيبرس مع الاسبتارية سنة ٦٦٥هـ، صبح الاعشى ج١٤ص٣٨

(١١) يتحدث الوزير ابن مماتى ، الذى كانت له خبرته فى العمل فى الدواوين فى العصر الايوبى ، عن وظيفة النائب ويقول عنه : « هذا كاتب يستخدم عن الديوان مع المستخدمين وليس يلزمه رفع حسابات ، ولا كتاب عليه ، وان طولب بذلك فلابأس » أنظر كتاب قوانين الدواوين ص ٣٠٤

وكان يعمل تحت امرة كل من النائبين جهاز ادارى يشمل موظفين من أصحاب اختصاصات مختلفة بعضها تتعلق بجمع الرسوم والضرائب من شتى المرافق الاقتصادية ، وكذلك أمور تتعلق بالامن والمحاكمات وتنفيذ الاحكام .

ومن الاداريين المسئولين الذين يعملون تحت امرة النائب فى بلاد المناصفات كان « المشد » وغلامه ، والشاهد وغلامه ، « والكاتب » وغلامه كما تشير بعض المواد الخاصة بنظام بلاد المناصفات الى وجود عشرة أنفار رجاله فى خدمة المشد ، وتكون لهم بيوت خاصة يسكنونها وفقا للعادة المتبعة [١٢] .

ويبدو أن الاهتمام الاساسى فى هذه الادارات كان بموارد المنطقة والرسوم والضرائب التى تجمع منها ، ولو أن المعلومات عن الوظائف المذكورة محدودة وغير وافية . وبالنسبة للمشد فهو على مايبدو كان يتولى أمر الدواب والماشية فى المراعى الواقعة فى منطقة المناصفات المتفق عليها [١٣] . أما الشاهد فقد جاء فى التعريف به أنه من أصحاب الوظائف الديوانية وقال عنه ابن مماتى ومن لوازمه أن يضبط كل شىء مما هو شاهد فيه وأن يكتب الحساب الموافق لتعليقه » [١٤] .

وكانت مواد المعاهدات المتعلقة ببلاد المناصفات تنص على سلامة وأمان ممثل كل من الطرفين ، كما تهتم بتنسيق التعامل بينهما مما تشهد به المواد التالية :

« وعلى أن نواب المباشر المقدم الكبير لبيت الاسبتار وولاته وكتابه

(١٢) انظر معاهدة قلاوون مع امير طرابلس سنة ٦٨٠هـ /١٢٨١م فى المقريزى : السلوك ج ١ ص ٩٧٦

(١٣) عن المشد ، جاء فى لسان العرب فى مادة (شدد) المشد الذى دوابه شديدة قوية ، وقيل أشد الرجل اذا كانت معه دابة شديدة

(١٤) ابن مماتى : كتاب الدواوين ص ٣٠٤

ومستخدميه وغلمانه ، يكونون آمنين مطمئنين على نفوسهم وأموالهم ، وجميع ما يتعلق بهم . وكذلك غلماننا وولاتنا ونوابنا ومستخدمونا وكتابنا ورعايا البلاد ، يكونون آمنين مطمئنين على نفوسهم وأموالهم ، ومتفقين على مصالح البلاد وأخذ الحقوق والمقاسمات ... وعلى أن جميع الضمانات يكون نواب السلطان ونواب بيت الاسبتار متفقين جملة على ذلك لا ينفرد أحد منهم بشىء الا باتفاق وتنزيل فى دفاتر الديوان المعمور وديوان بيت الاسبتار ، ولا يطلق ولا يحبس الا باتفاق من الجهتين ، ولا ينفرد أحد دون الاخر » [١٥] .

الرســـوم والضرائب :

وكانت الرسوم والضرائب على اختلاف أنواعها مناصفة بين السلطان والمسئول الفرنجى فى بلاد المناصفات وقد امتدت هذه الرسوم لتشمل شتى الموارد والمرافق الاقتصادية المعروفة اذاك سواء أكانت فى الاراضى الزراعية بما فيها البساتين ، ومصائد الاسماك والملاحات والمحاصيل الصيفية والشتوية . والطواحين والثروة الحيوانية من دواب وأبقار وأغنام وكذلك ما يفرض من رسوم على ما يمر بالبلاد وموانيها من سلع تجارية .

والمعتاد أن الضرائب على اختلاف أنواعها كانت ترفع الى عداد ديوان الملك وعداد ديوان الافرنج حيث يتم سداد الضرائب المقررة على كل من المسلمين والافرنج على السواء . وفى حالة غياب أحد النائبين ، كان يتعين على نائب الطرف الاخر الموجود أن يحتفظ بالقدر المستحق له من الرسوم ليسلمه اليه عند حضوره [١٦] .

(١٥) هدنة بيبرس مع الاسبتار ٦٦٩ هـ فى صبح الاعشى ج١٤ص ٤٥— ص ٤٦

(١٦) المصدر السابق ج ١٤ ص ٣٦

الفـــــلاحون :

ولما كان للفلاحين أهميتهم بالنسبة للاراضى الواقعة تحت الحـكم الاسلامى والفرنجى ، حيث أنهم كانوا الايدى العاملة التى تحتاج اليها الحقول ، فكان من الطبيعى أن يحرص كل من الجانبين على فلاحيه وعلى سلامتهم ومما يشير الى ذلك الاهتمام كانت المواد التى وردت فى بعض المعاهدات ومنهـــا :

« وتقرر أن يكون فلاحو بيت الاستبار رائحين وغادين ومتصرفين فى بيعهم وشرائهم ، مطمئنين لايتعدى احد عليهم • وكذلك جميع فلاحى بلاد الاسماعيلية لا يتعدى أحد عليهم ، وأن يكونوا مطمئنين فى جميــع بلاد الاسبتارية ••• » [١٧] •

هذا وقد وردت فى معاهدة أخرى مواد لترتيب أحوال الفلاحين فى أعقاب قتال نشب بين المسلمين والفرنجة وقد نصت هذه المواد على المناداة على الفلاحين ليعودوا الى بلادهم آمنين ثم طرد من لم يستحب للنداء ، حتى يضطر للعودة الى الارض التى ينتمى اليها ويقوم بمسئولية فلاحتها • ومما جاء فى ذلك :

« ••• وعلى أن ينادى فى البلاد الاسلامية والبلاد الفرنجية الداخلة فى هذه الهدنة ، أنه من كان من فلاحى بلاد المسلمين يعود الى بلاد المسلمين مسلما كان أو نصرانيا ، وكذلك من كان من فلاحى بلاد الفرنج يعود الى بلاد الفرنج مسلما كان أو نصرانيا ، معروفا قراريا من الجهتين ، ومن لم يعد بعد المناداة يطرد من الجهتين • ولا يمكن فلاحو بلاد المسلمين من المقام فى بلاد الافرنج ولافلاحو بلاد الفرنج من المقام فى بلاد المسلمين

---

(١٧) من معاهدة بيبرس مع الاسبتارية ٦٦٥هـ /١٢٦٧م،صبح الاعشى ج ١٤ ص ٣٥

التى أنعقد عليها هذه الهدنة ويكون عود الفلاح من الجهة الى أخـرى بأمـــان » [١٨] •

المــــراعى :

هذا وقد وردت مواد خاصة باستعمال المراعى وتأمين رعى الماشية الخاصة بالجانبين فى مراعى بلاد المناصفات دون أن تفرض عليها رسوم كما لا يتعرض لها أحد بسوء • ومما جاء فى ذلك :

«•••وأن تكون خشارات الملك وخشرات[١٩] عساكره وغلمانهم وأهل بلده ترعى فى بلد المناصفات آمنة من الفرنج والنصارى كافة • وكذلك خشارات بيت الاسبتار وخشارات عسكرهم وغلمانهم وأهل بلدهم ترعى آمنــة من المسلمين كافة فى بلد المناصفات • وعند خروج الخشارات من المراعى وتسليمها لاصـــحابها ، لا يؤخـــذ فيها حق ولا عداد ولا تعارض مـــن الجهتين ••• » [٢٠] •

نظم رفع الدعاوى والمحاكمات وتنفيذ الاحكام :

بالرغم مما وضع من منظمات للتعايش والتعامل السلمى كان مــن الطبيعى أن تنشب بعض المشاكل والمخالفات والقضايا المختلطة بين المسلمين والفرنجة فى بلاد المناصفات وغيرها من البلاد التى امتد اليها التعـــامل

---

(١٨) معاهدة قلاون مع حكام عكا الافرنج ٦٨٢هـ — انظر صبـــح الاعشى ج١٤ ص ٦١ ، المقريزى : السلوك ج ١ ص ٩٩٤

(١٩) الخشارات : جاء فى مادة « خشر » الخشور من الدواب: المنتفخ الجنبين ، ذو المخاشر الحمل — أنظر مادة خشر فى لسان العرب

(٢٠) من معاهدة بيبرس مع الاسبتارية ٦٦٥ هـ/١٢٦٧م أنظر صـــبح الاعشى ج ١٤ ص ٣٣

بين الجانبين ، مما تطلب وضع مواد فى المعاهدات تتعلق بشئون الامن والنظر فى الدعاوى والمحاكمات وتنفيذ الاحكام ، سواء أكان ذلك فى القضايا المدنية أو الجنائية .

والمبدأ الاساسى فى هذه التنظيمات فى بلاد المناصفات أن تطبق الشريعة الاسلامية ان كان الشخص مسلما ، ويطبق قانون الافرنج ان كان الشخص منهم وقد نصت احدى المواد :

« ويحكم فيه بشريعة الاسلام ان كان مسلما ، وان كان نصرانيا يحكم فيه بمقتضى دولة حصن الاكراد (التابعة للافرنج) » .

وبالنسبة للنظر فى الدعاوى الخاصة بالسرقات وما يغتصب من أشياء وجرائم القتل فمن المواد وردت بشأنها :

« ومتى وقعت دعوى على الجهة الاخرى ، وقف أمرها فى الكشف عنها أربعين يوما ، فان ظهرت أعيدت على صاحبها ، وان لم تظهر حلف ثلاثة نمر يختارهم صاحب الدعوى على ما يعلمونه فى تلك الدعوى ، وان ظهرت بعد ذلك أعيدت الى صاحبها ، وان كان قد تعوض عنها أعيد العوض . وعلى أن يكشفوا الاخيذة [٢٢] بجهدهم وطاقتهم ومتى تحققت أعيدت الى صاحبها ، وان امتنع المدعى عليه من اليمين حلف المدعى ، ولا يستحق عوض ما عدم من كل شىء مثله — وكذلك يجرى الامر فى القتل : عوض الفارس فارس ، وعوض الراجل راجل ، وعوض البركيل بركيل [٢٣] وعوض

---

(٢١) معاهدة بيبرس مع الاسبتارية ٦٦٥هـ ، المصدر السابق ج١٤ ص٣٢
(٢٢) الاخيذة ماأغتصب من شىء ، فأخذ — أظر لسان العرب مادةأخذ
(٢٣) البركيل : هذا المصطلح تكرر استعماله فى عدد معاهدات ،وهو يعنى مرتاد البحار من التجار والمغامرين . وقد جاء فى محيط المحيط أن **البراكية نوع من السفن وهو البركوس والجمع براكيس . كما جاء فى كتاب** =

التاجر تاجر وعوض الفلاح فلاح . واذا انقضت الاربعون يوما المذكورة لكشف الدعوى ولم يحلف المدعى للمدعى عليه وجب عليه العوض حتى يرد ، وان رد اليمين على المدعى ومضى على ذلك عشر أيام ، ولم يحلف صاحب الدعوى بطلت دعواه وحكمها ، وان حلف أخذ العوض » [٢٤] .

وهناك من ما يشير الى أن من المواد التى وضعت من أجل بلاد المناصفات ما امتد الى البلاد التى وقعت عليها الهدنة . فقد جاء فى نفس المعاهدة التى أخذنا منها المواد السابقة ما يلى :

« وعلى أن المهادنة بحدودها يكون الحكم فيها كما فى المناصفات ، والحدود فى هذه البلاد جميعها تكون على ما تشهد به نسخ الهدنة ، وما استقر الحال عليه الى آخر وقت » [٢٦] .

أما الاحكام التى كانت تصدر على الجناة المسلمين ، فقد روعى فيها أن تكون وفقا للشريعة الاسلامية ، على أن يعطى ممثل المسئول الافرنجى الحق فى حضور تنفيذها . وقد جاء فى ذلك :

« وعلى أن أى مسلم تصدر منه أذية يحكم فيه بما يقتضيه الشرع الشريف فى تأديبه ، يعتمد ذلك فيه نائبنا : من شنق يجب عليه ، أو قلع أو أدب ، بحكم الشرع : من شنق وقطع ، وكحل أعين ، بحيث لا يعمل ذلك الا بحضور نائب من جهة بيت الاسبتار ، حاضر يعاين ذلك بعينة ، ويكون قد عرف الذنب وتحققه .

= الروضتين لابى شامة : فأخذوا لهم بركوسا وهو مركب صغير . وكلمة بركوس مأخوذة من الايطالية Barcoro أنظر المقريزى السلوك ج١ص٩٩١ حاشية ٢ ، ابن شداد ص ١٤٣ ع ص ١٤٤ حاشية ٦
(٢٤) معاهدة بيبرس مع الاسبتار بحصن الاكراد والمرقب فى رمضان ٦٦٥هـ/ مايو ١٢٦٧م فى صبح الاعشى ج١٤ ص ٣٧ —ص٣٨
(٢٦) نفس المعاهدة السابقة وفى نفس المصدر ج١٤ ص٣٩

وان كان ذنبه يستوجب جناية أو غرامة دراهم أو ذهب أو مواش أو غير ذلك على اختلاف أجناسه ، يكون ما يستأدى مناصفة للديـوان المعمور ولبيت الاسبتار » (٢٦) ٠

وان هذه المواد التى عرضناها تلقى الاضواء على طريقة رفع الدعاوى والمحاكمات وتنفيذ الاحكام فى المشاكل والقضايا المختلطة بين المسلمين والفرنجـة ٠

المعـاملات التجـارية

ممايسترعى النظر فى المعاهدات كثرة ما جاء بها من المواد التى تتعلق بالتعامل التجارى بين الطرفين الاسلامى والفرنجى ٠ وقد تناولت هذه المواد أمورا متعددة من التى تعرض للتجار عند ممارستهم لنشاطهم التجارى ٠ ومما نصت عليه كان التأكيد على أمنهم وحرية تجارتهم وحرية تنقلهم من البلاد الاسلامية الى البلاد التابعة للافرنج والعكس ، ومما جاء فى ذلك :

« ٠٠٠ وعلى أن التجار والسفار والمترددين من جميع هذه الجهات المذكورة يكونون آمنين من الجهتين الاسلامية والجهة الفرنجية والنصرانية، فى البلاد التى وقعت هذه الهدنة عليها ، على النفوس والاموال والدواب وما يتعلق بهم ، يحميهم السلطان ونوابه ، ويتعاهدون البلاد الداخلة فى هذه الهدنة المباركة الواقع عليها الصلح وفى بلد المناصفات — من جميع المسلمين — ويحميهم بيت الاسبتار فى بلادهم الواقع عليها الصلح وفى بلد المناصفات من الفرنج والنصارى كافة ٠٠٠ » (٢٨) ٠

(٢٧) من معاهدة بيبرس مع الاسبتارية بمدينة لد سنة ٦٦٩هـ ، المصدر السابق ج ١٤ ص ٤٦

(٢٨) من معاهدة بيبرس مع الاسبتارية ٦٦٥ هـ ، فى المصدر السابق ج ١٤ ص ٣٧

وهناك مواد خاصة بالرسوم الجمركية ومنها ما نص على الابقـاء عليها دون زيادة ، وقد جاء فى ذلك :

« وعلى ألا يجدد على أحد من التجار المترددين رسم لم تجر به عادة، بل يجرون على العوائد المستمرة ، والقواعد المستقرة من الجهتين » (٢٩) ٠

وفى حالة وفاة تاجر من التجار ومعه تجارته فى بلد الطرف الاخر ، فقد جاءت مواد لتأمين حقه وما معه ٠ ومن ذلك المادة التى تقول :

« ومتى توفى أحد من التجار الصادرين والواردين ، المترددين على اختلاف أجناسهم وأديانهم ، من بلاد السلطان وولده فى عكا وصيدا وعثليت ، والبلاد الساحلية الواقعة فى هذه الهدنة ، يحتفظ على ماله الى أن يوصل الى نوابها ٠ وكذلك التجار الصادرين المترددين من عكا وصيدا وعثليت والبلاد الساحلية الداخلة فى هذه الهدنة ، على اختلاف اجناسهم وأديانهم ، اذا توفى أحد فى البلاد الاسلامية الداخلة فى هذه الهدنة يحتفظ على ماله الى حين يسلم الى كفيل المملكة بعكا والمقدمين ٠» (٣٠) ٠

وقد وضعت مواد خاصة فى المعاهدات تتناول السلع الممنوعة والمحظور التعامل بها أو نقلها من البلاد الافرنجية الى البلاد الاسلامية أو العكس ، وما يعمل به فى حالة مخالفة التجار ذلك وما يتخذ ضدهم من اجراء ٠ ومن هذا النوع من المواد ما يلى :

« ٠٠٠ وعلى أن الممنوعات المعروف منعها قديما تستقر على قاعدة المنع من الجهتين ٠ ومتى وجد صحبه أحد من تجار بلاد السلطان وولده

(٢٩) من معاهدة بيبرس مع ملكة بيروت ٦٦٧ هـ/١٢٦٩م ، المصـدر السابق ج١٤ ص ٤١

(٣٠) معاهدة قلاون مع فرنج عكا ٦٨٢ هـ/١٢٨٣م ، المقريزى:السلوك ج ١ ص ٩٩٢

من المسلمين وغيرهم على اختلاف اديانهم واجناسهم ، شىء من الممنوعات بعكا والبلاد الساحلية الداخلة فى هذه الهدنة ، مثل عدة السلاح وغيره ، تعاد على صاحبه الذى اشتراه منه ، ويعاد اليه ثمنه ، ولا يؤخذ مـاله استهلاكا ، ولا يؤذى بسبب ذلك ، لاهو ولا ماله .

وكذلك اذا طلع تجار الفرنج من عكا والبلاد الساحلية الداخلة فى هذه الهدنة الى البلاد الاسلامية الداخلة فى هذه الهدنة ، على اختلاف أجناسهم وأديانهم ، ووجد معهم شىء من الممنوعات مثل عدة سلاح وغيره يعاد على صاحبه الذى اشتراه منه ، ويعاد اليه ثمنه ويرد ، ولا يؤخذ ماله استهلاكا ، ولا يؤذى .

وللسلطان وولده أن يفصلا فيمن يخرج من بلادهما من رعيتهما،على اختلاف أديانهم وأجناسهم ، بشىء من الممنوعات . وكذا كفيل المملكة بعكا والمقدمون ، لهم أن يفصلوا فى رعيتهم الذين يخرجون بالممنوعات من بلادهم الداخلة فى هذه الهدنة » (٣١) .

العـــرف البحـــرى الدولى

كان البحر المتوسط ممرا بحريا مشتركا بين الدول الاسلامية والدول والامارات الفرنجية سواء تلك الواقعة فى البلاد الشامية أو فى غرب أوروبا وقد شاهد هذا المر نشاطا ملحوظا فى النقل البحرى والتبادل التجارى بين الجانبين . وكان من الطبيعى أن يتطلب التعامل عن طريق البحر وضع قواعد ومبادىء يتفق عليها المسلمون والفرنجة ، مما أدى الى قيام تقاليد مرعية وعرف دولى بحرى يتعاملون فى ظله .

والملاحظ عند الحديث عن تطور العرف الدولى البحرى وأصـول

(٣١) المعاهدة السابقة ، نفس المصدر ج ١ ص ٩٩٠ .

القانون الدولى البحرى ، يتجه غالبية الباحثين الى التراث الاوروبى وما عرفته أوروبا فى عصورها السالفة (٣٢) ، فيرجعون على سبيل المثال الى مجموعة المختار Digest التى صدرت فى عهد جستنيان لما ورد فيها من نصوص ترتبط بالقانون البحرى ، أو الى مجموعات قانونية أخرى صدرت فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر للميلاد ، كما يهتمون بشكل خاص بتلك المجموعة القانونية التى صدرت فى برشلونة فى أواخر القرن الخامس عشر للميلاد باللغة القطلانية وعنوانها Lo Libre de Consolate التى احتوت على مجموعة من القوانين التى تتبعها المدن البحرية الاوروبية المطلة على شواطىء البحر المتوسط ، والتى كان يستعين بها القضـاة القناصل فى اصدار أحكامهم (٣٣) .

هذا ولم ينل الدور الذى أسهم به المسلمون فى تطور العرف الدولى البحرى ما يستحقه من العناية من جانب الباحثين ، على الرغم من أهمية ما أسهموا به فى تطور الملاحة ووضع قواعدها وتقاليدها التى امتدت اثارها الى دساتير البحر عند الامم الحديثة (٣٤) .

ولا يتسع المقام هنا للدخول فى تفاصيل ما عرفه المسلمون فى مجال العرف الدولى البحرى وما أسهموا به فى هذا المجال . ولكن نستطيع القول بأنهم كانت لهم قواعد وأعراف بحرية تتعلق بمعاملة البضائع والاشخاص

(٣٢) يقول كولومبوس أن : القواعد التقليدية للقانون البحرى الدولى كانت ثمرة لتجارب الدول الاوربية) — أنظر : محمد حافظ غانم : محاضرات عن النظام القانونى للبحار . ص ١٧ — ص ١٨

(٣٣) أنظر مادتى :

Maritim Law and Consulate of the Sea

فى موسوعة Encyclopedia Britannica :

ولمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع الى : مصطفى الحناوى : قـانون البحار الدولى ص ١٧، على حسن يونس: أصول القانون البحرى ص٣—ص٤

(٣٤) أنور عبد العليم : الملاحة وعلوم البحار عند العرب ص ٢١٠ .

الذين ينقلون عبر البحر ، ومعاملة السفن وقت السلم والحرب سـواء أكانت سفن تجارية أو حربية ، كما وضعوا التنظيمات لمعاملة القراصنة ولصوص التجار • ولم يقتصر الامر فى ذلك على مجرد التطبيق العملى ، بل لقد نص المسلمون على هذا التعامل فى الشئون البحرية فيما عقدوه من معاهدات مع الفرنجـة •

ويستطيع الباحث المدقق فى تلك المعاهدات التى عقدت ابان فترة الحروب الصليبية أن يجد عدة مواد تعتبر من جوهر العرف الدولى البحرى الذى تعارف عليه المسلمون والفرنجة ، ولاشك أن هذه المواد تقـدم لنا معلومات قيمة عن تطور هذا العرف فى تلك المرحلة من التاريـخ ونعرض فيما يلى نماذج من هذه المواد مع تصـنيفها وفقا للامور التى تناولتهـا •

أولا : مواد تتعلق بمعاملة السفن التجارية :

وتتعلق هذه المواد بتلك السفن وما عليها من بضائع وأموال وأشخاص فى حالة انكسارها فى بلد الطرف الاخر الداخل فى المعاهـدة بين المسلمين والفرنجة : وقد جاء فى المعاهدة التى عقدت بين السلطان قـلاون وفرنج عكا سنة ٦٨٢ هـ ـ ١٢٨٣ م ما يأتى :

« ••• وعلى أنه متى انكسر مركب من مراكب السلطان وولده ، التى انعقدت عليها الهدنة ، ورعيتهما من المسلمين وغيرهم ، على اختلاف اجناسهم وأديانهم ، فى ميناء عكا وسواحلها ، والبلاد السـاحلية التى انعقدت عليها الهدنة ، كان كل من فيها آمنا على الانفس والاموال والامتعة والمتاجر • فان وجد أصحاب هذه المراكب التى تتكسر ، تسلم مراكبهم وأموالهم اليهم ، وان عدموا بموت أو غرق أو غيبيه فيحتفظ بموجودهم ، ويسلم لنواب السلطان وولده • وكذلك المراكب المتوجهة من هذه البـلاد

الساحلية المنعقدة عليها الهدنة للفرنج ، يجرى لها مثل ذلك فى بلاد السلطان وولده ، ويحتفظ بموجودها ان لم يكن صاحبها حاضرا الى أن يسلم لكفيل المملكة بعكا والمقدمين » (٣٥) •

ثانيا : مواد خاصة بتأمين معاملة السفن الحربية الاسلامية فى المياه الاقليميـــة :

وهذه المواد تخص المياه الاقليمية فى الممتلكات الفرنجية فى الشام وعدم تعرض هذه السفن لموانى الدول الاخرى المتعاهدة مع حكام عكا ، وقد جاء فى ذلك :

« وعلى أن شوانى (٣٦) السلطان وولده اذا عمرت وخرجت لا تتعرض لاذية من البلاد الساحلية التى انعقدت عليها هذه الهدنة ، ومتى قصدت هذه المذكورة جهة غير هذه الجهات ، وكان صاحب تلك الجهات معاهدا للحكام بمملكة عكا ، فلا تدخل الى البلاد التى انعقدت عليها هذه الهدنة ولا تزود منها • وان لم يكن صاحب تلك الجهة التى تقصدها الشـوانى المنصورة معاهدا للحكام بمملكة عكا والبلاد التى انعقدت عليها الهدنة ، فلها أن تدخل بلادها وتتزود منها » (٣٧) •

ثالثا : مواد خاصة بالاختلاف فى معاملة الشوانى الاسلاميـة التى تتعرض للكسر فى بلاد مملكة عـكا :

وهذه الحالة تكون وفقا لاختلاف البلاد التى تكون متجهة اليها وما يربطها بمملكة عكا الفرنجية من صلات ومما جاء فى ذلك :

---

(٣٥) انظر المقريزى : السلوك ج ١ ص ٩٩١ـص ٩٩٢

(٣٦) الشوانى مفردها شينى وشونة وهى مركب حربى ضخم كالقلعة مزودة بالابراج والقلاع وبها عدد من المجاديف •

(٣٧) المعاهدة السابقة ، نفس المصدر ج ١ ص ٩٩٢

« واذا تكسر شيء من هذه الشوانى ، والعياذ بالله ، فى ميناء من موانى البلاد التى انعقدت عليها الهدنة وسواحلها ، فان كانت قاصدة من له مع مملكة عكا ومقدمى بيوتها عهد ، ولم يكن لهم معهم عهد ، فيلزم كفيل المملكة بعكا ومقدمى البيوت حفظا ، ويمكن رجالها من الزوادة واصلاح ما انكسر منها والعود الى البلاد الاسلامية .ويبطل حركة ما انكسر منها والعياذ بالله ، أو يرميه البحر ، هذا اذا كانت قاصدة بلاد من له مع مملكة عكا ومقدميها عهد ، فان لم يكن لها معهم عهد ، فلها أن تتزود وتعمر رجالها من البلاد المنعقدة عليها الهدنة ، وتتوجه الى الجهة المرسوم لها بقصدها، ويعتمد هذا الفصل من الجهتين .» [٣٨] .

رابعا : مواد خاصة وردت فى المعاهدات بشأن القراصنة ووضع ضوابط لاعمالهم وخطرهم . ومما جاء فى ذلك :

« وعلى أن النائب بمملكة عكا والمقدمين يوصون فى سائر بلاد الساحل التى وقعت عليها الهدنة ، أنهم لا يمكنون حرامية البحر من الزوادة من عندهم ، ولا من حمل ماء ، وان ظفروا بأحد منهم يمسكوه ، وان كانوا يبيعون عندهم بضائع فيمسكهم كفيل المملكة بعكا والمقدمون حتى يظهر صاحبها وتسلم اليه . وكذلك يعتمد مولانا السلطان وولده ويعتمد فى أمر الحراميه هذا الاعتماد من الجهتين . » [٣٩] .

خامسا : مواد لتأمين المسافرين المسلمين على متن سفن لا تتبع للدولة الفرنجية المعاهدة ، فى حالة وقوع هذه السفن فى أيدى رعايا تلك الدولة :

وقد جاء فى هذا الشأن فى المعاهدة التى عقدها السلطان قلاون مع الجنوية (٦٨٩هـ — ١٢٩٠م) ما يأتى :

(٣٨) المعاهدة السابقة ، المصدر السابق ج١ ص ٩٩٢
(٣٩) المعاهدة السابقة ،المصدر السابق ج ١ ص ٩٩٣

« وان سافر أحد من المسلمين فى مركب غير مراكب الجنوية من أعداء الجنوية أو غيرهم ، لا يتعرضوا لاحد من المسلمين وان أخذوا عدوهم ، يكون المسلمون جميعهم آمنين فى نفوسهم وأموالهم ومماليكهم وجوارهم فى رواحهم ومجيئهم ، ولا يعوقهم الجنوية بسبب احد ، ولا يأخذوا المسلم عن غيره ولا يطلبوه بدين ولابدم ، ان لم يكن ضامنا ولا كفيلا » [٤٠] .

أمـــور دينيـــة

وكان من الطبيعى مع هذا الاهتمام الدينى الذى ابداهالفرنجة بالاماكن المقدسة فى فلسطين أن يكثر فى المعاهدات ظهور المواد التى تنم عن المشاعر التى [illegible]ط بين المسيحيين وتلك الاماكن . فتأتى مواد تنص على تأمين زيارتها .

ومما يصور اهتمام الفرنجة بالاماكن المقدسة ما ورد عند الاعداد للمعاهده بين صلاح الدين الايوبى وريتشارد قلب الاسد ، حيث أرسل الاخير الى الملك العادل سيف الدين كتابا جاء فيه : « ... وليس هناك حديث سوى القدس والصليب والبلاد ،والقدس فمتعبدنامانزل عنه ، ولو لم يبق منا واحد ... وأما الصليب فهو خشبة لا مقدار له عندكم ، وهو عندنا عظيم ... » [٤١] . وكان رد صلاح الدين على ذلك : « القدس لنا كما هو لكم وهو عندنا أعظم مما عندكم ، فانه مسرى نبينا ومجتمع الملائكة فلا يتصور أن ينزل عنه ولا نقدر على التلفظ بذلك بين المسلمين ..»[٤٢]

(٤٠) من معاهدة قلاون مع الجنوية ، تشريف الايام والعصور ص ١٦٧
(٤١) ابن شداد ص ١٩٤
(٤٢) المصدر السابق ص ١٩٤

وقد احتوت المعاهدة التى عقدت بين الطرفين على مواد لتأمين زيارة الحجاج المسيحيين الى القدس •

وهناك ما ورد من مواد معاهدة قلاون مع فرنج عكا سنة ٦٨٢هـ — ١٢٨٣م، حيث نص على التالى :

« ••• وعلى أن تكون كنيسة الناصرة وأربع بيوت من أقرب البيوت اليها لزيارة الحجاج وغيرهم من دين الصليب ، كبيرهم وصغيرهم على اختلاف اجناسهم وأنفارهم من عكا والبلاد الساحلية الداخلة فى هـذه الهدنة • ويصلى بالكنيسة الاقسـاء والرهبان • وتكون البيوت المذكورة لزوار كنيسة الناصـرة خاصة ويكونـون آمنين مطمئنين فى توجههـم وحضورهم الى حدود البلاد الداخلة فى هذه الهدنة • واذا نقبت الحجارة التى بالكنيسة المذكورة ترمى برا ، ولا يحط منها حجر على حجر لاجل بنايته ، ولا يتعرض الى الاقساء والرهبان ، وذلك على وجه الهبة لاجل زوار دين الصليب بغير حق ••• » (٤٣) •

اما المعاهدة التى انعقدت بين السلطان الاشرف خليل بن قلاون وملك أرجون الفرنجى (٦٩٢هـ — ١٢٩٣م) فقد جاء فيها :

وعلى أنه اذا وصل من بلاد الملك دون حاكم وبلاد أخويه وصهريه ، ومعاهديه من الفرنج من يقصد زيارة القدس الشريف ، وعلى يده كتاب الملك دون حاكم وختمه الى نائب الملك الاشرف بالقدس الشريف ، يفسح له فى الزيارة مسموحا بالحق ، ليقضى زيارته ، ويعود الى بلاده آمنا مطمئنا فى نفسه وماله ، رجلا كان أو امرأة ، بحيث ان دون حاكم لا يكتب لاحد من اعدائه ولا من أعداء الملك الاشرف فى أمر الزيارة بشىء » (٤٤) •

(٤٣) المقريزى : السلوك خا ص ٩٤٤ ، صبح الاعشى ج١٤ ص ٦١ — ص ٦٢

(٤٤) صبح الاعشى ج١٤ ص ٦٩

ومن الامور الاخرى المتعلقة بالدين كان تحول البعض من دين لاخر سواء أكان ذلك من المسيحية الى الاسلام أو العكس • ويبدو أن البعض كانوا يلجأون الى ذلك للتهرب من التزامات مادية نحو بنى جنسهم ، ولهذا لجأ الطرفان العاقدان الى وضع مواد لمواجهة مثل تلك التصرفات • ومما جاء فى ذلك :

« وعلى أنه متى هرب كائنا من كان من بلاد السلطان وولده الى عكا والبلاد الساحلية المعينة فى هذه الهدنة ، وقصد الدخول فى دين النصرانية وتنصر بارادته ، يرد جميع ما يروح معه ويبقى عريانا ، وان كان ما يقصد الدخول فى دين النصرانية ولا يتنصر ، رد الى أبوابها العالية بجميع ما يروح معه ، بشفاعة معه ، بعد أن يعطى الامان •

وكذلك اذا حضر أحد من عكا والبلاد الساحلية الداخلة فى هذه الهدنة، ويقصد الدخول فى دين الاسلام ، وأسلم بارادته ، يرد جميع ما معـه ويبقى عريانا ، وان كان ما يقصد الدخول فى دين الاسلام ولا يسلم ، يرد الى الحاكم بعكا ، وهو كفيل الملـكة والمقـدمون ، بجميـع ما يروح منه بشفاعة ، بعد أن يعطى الامان » (٤٥) •

(٤٥) من معاهدة قلاون مع أفرنج عكا ٦٨٢هـ/١٢٨٣م أنظر المقريزى : السلوك ج١ص ٩٩٠ ، ابن الفرات : ج٧ ص ٢٦٢— ص٢٧٠

ملاحـــــــق

وثـــائق دبلوماســـية مختـــارة

تقـــــــــديم

تحتل المعاهدات مكانة خاصة بين الوثائق الدبلوماسية ، لما تقوم به من وضع أسس للتعامل السلمى بين الدول كما ترجع أهمية المعـاهدات لكونها المرحلة النهائية للجهود التى يقوم بها السفراء والمفاوضـات التى يخوضون فيها هذا وتعتبر المعاهدات مصدر أساسى لدراسة التاريـــخ الدبلوماسى • وقد وضحنا فيما سبق الشروط الشرعية التى كان على المسلمين مراعاتها عند عقد المعاهدات وبينا طريقة صياغتها ، كما قمنا بتحليل المواد الرئيسية التى أوردتها • واستكمالا لايضاح هذه الوثائق الدبلوماسيـة رأينا أن نلحق دراستنا بنماذج كاملة لبعض المعاهدات ، حتى يتعرف القارىء بشكل متكامل على طبيعتها وانشائها ومضمونها •

ووقع اختيارنا على خمس معاهدات ، حـرصنا فى اختيارها على أن تكون متنوعة من حيث الأطراف الفرنجية أو العاقدين الافرنـج الذين تعاقد معهم المسؤولون المسلمون • وهذه المعاهدات يرجع اثنتان منها لعهد السلطان الظاهر بيبرس ، وثلاث لعهد السلطان قلاون • وبمعنى آخر فتلك المعاهدات ترتبط بالنصف الثانى من القرن الثالث عشر للميلاد الذى شاهد اضمحلالا واضطرابا فى قوى الفرنجة فى الشام وتزايدا فى الصراع الداخلى بامارتهم ، هذا الصراع الذى شمل الملكية والامراء الاقطاعيين والجماعتين الداوية والاسبتارية وكذلك القومونات التجارية فى الشام • وقد حدث هذا فى الوقت الذى أخذت فيه دول الغـرب الاوروبى تنصرف عن القضـية الصليبية لتهتم بمصالحها المحلية الخاصة • وقد انتهت تلك الفترة بسقوط آخر المعاقل الصليبية فى الشام سنة ١٢٩١م •

وبالنسبة للاوضاع السياسية بين المسلمين فى تلك المرحلة فقد ظهر بينهم السلطان بيبرس الذى أراد أن يواصل الدور الذى قام به صلاح الدين

الايوبى فى جمع كلمه المسلمين وتخليص البلاد الشامية من الحكم الافرنجى، خاصة بعد انتصار المماليك على المغول فى موقعة عين جالوت ١٢٦٠م وتخليص المسلمين من خطرهم وأخذت مراكز الفرنجة تتساقط الواحدة تلو الاخرى فى يد بيبرس • وكانت أشد ضرباته وهجماته تلك التى وجهها ضد الجماعتين الداوية والاسبتارية التى اعتصم رجالها بعدد من المراكز والحصون الرئيسية فى الشام ، وكان حصن الاكراد أهم معقل للاسبتارية • هذا وكان السلطان قلاون لا يقل عن بيبرس حماسة وحمية فى حمل رسالة رفع راية الاسلام وتخليص البلاد من حكم الفرنجة •

والملاحظ فى هذه المرحلة ، أن تعاهد المسلمين مع الفرنجة جاء مع أطراف متعددة منهم من القاطنين منهم فى الشام والمسئولين عن دول الغرب الاوروبى • وبالنسبة لفرنجة الشام فهم كانوا يفتقرون الى تمركز السلطة بينهم ولهذا نجد الحكام المسلمين يعقدون معاهداتهم تارة مع جماعة من الاسبتارية المقيمين عند حصن الاكراد والمرقب ، وتارة أخرى مع الاسبتارية الذين تمركزوا فى قلعة لد • كما عاهد المسلمون ملكة الفرنجة التى اتخذت من بيروت مركزا لها ، وعاهدوا افرنج عكا ، هذه المدينة التى أصبحت مركزا رئيسيا للفرنجة فى الشام ، وقد قدر لها أن تكون آخر معاقلهم بها الى أن سقطت نهائيا سنة ١٢٩١م • ومن ناحية أخرى عقد المسلمون معاهدات مع المسئولين فى الغرب الاوروبى ، وكانت لهم على سبيل المثال معاهدات مع ملك أرجون وحكام جنوه الذين كانت لهم اهتماماتهم بالشرق الادنى الاسلامى لاسباب متعددة سياسية واقتصادية ودينية ، مما دفعهم للدخول فى علاقات دبلوماسية مع المسلمين انتهت بعقد معاهدات معهم •

وفضلا عن هذا التقديم العام الذى قدمناه به لما اخترناه من المعاهدات ، فسوف نرفق مع كل معاهدة منها عند عرضها ما يلزم من ايضاح وملاحظات مما ييسر على القارىء تتبع موادها والمصطلحات التى وردت بها وتفهم بعض نصوصها التى تحتاج للايضاح •

الملحق الاول

معاهدة السلطان بيبرس مع الاسبتارية بحصن الاكراد والمرقب

(٤ رمضان ٦٦٥هـ — مايو ١٢٦٧م)

ملاحظات على المعاهدة :

لهذه المعاهدة أهميتها من حيث المعلومات التى تقدمها ، ومن أهمها ما تناوله من مقومات ذلك النظام الذى توصل اليه المسلمون والفرنجة فى معالجة بعض مشاكل الحدود والترتيب للتعايش فيها ، ونقصد بذلك نظام بلاد المناصفات •

ومما يسترعى الانتباه فى هذه المعاهدة مصطلح « الدعوة المباركة » وما ينسب اليها فالوثيقة تتحدث عن نائبى الدعوة المباركة وبلاده الدعوة المباركة • والمقصود بالدعوة المباركة فرع من الجماعة الاسماعيلية وهى تلك الجماعة الباطنية التى جاء ذكرها باسم جماعة الحشيشية • فان المدن التى تتحدث عنها المعاهدة على أنها من بلاد الدعوة المباركة مثل مصياف والرصافة وغيرها ، معروف أنها مراكز الاسماعيلية ببلاد الشام • والواقع أن مصياف كانت المعقل الرئيسى لهم فى تلك الانحاء • وكان رئيس الاسماعيلية هو « داعى الدعاة » وتعاونه جماعة من كبار الدعاة • والدعوة المباركة كان مصطلحا يستعمله أصحاب هذه الدعوة •

ومما قد يثير العجب للوهلة الاولى أن السلطان بيبرس فى الوثيقة

التى صدرت باسمه وفى حديثه عن تلك الجماعة ، سمح باستعمال مصطلح الدعوة المباركة بالرغم مما وجد من اختلاف مذهبى بينه وبين الاسماعيلية فهم كانوا من الشيعة فى حين أنه كان على المذهب السنى ، بل أن من المعروف عنه أنه بعد هجوم المغول على بغداد وسقوط الخلافة العباسية السنية بها ، نقل مركزها من بغـداد الى القاهرة سنة ١٢٦٢م ، وأصبح نصيرا لها . ويبدو أن السلطان استعمل ذات المصطلح الذى كان أصحاب الدعوة يطلقونه عليها .

وربما كان مما دفعه لعمل ذلك ، الاوضاع السياسية التى واجهها حينئذ ، حيث كان يعمل على ضم الاسماعيلية الى جانبه والتقرب اليهم ، بعد أن ظلوا يدفعون الجزية لاسبتارية حصن الاكراد عـدة سنين ، حتى تدخل بيبرس وعقد مع الاخرين المعاهدة المذكورة . واشترط على الفرنجـة الامتناع عن فرض اتاوات على الاسماعيلية الذين أصبحوا يدفعون الجزية لبيبرس بدلا من دفعها للفرنجـة . ويذكـر المؤرخ المقريزى أن رسـل الاسماعيلية وصلوا مصر سنة ٦٦٥ هـ (التى تم فيها عقد المعاهدة) وقالوا : « هذا المال الذى كنا نحمله قطيعة للفرنج قد حملناه لبيت مال المسلمين لينفق فى المجاهدين » .[١] .

نص المعـــاهدة [٢] :

استقرت الهدنة المباركة الميمونة بين السلطان الملك الظاهر ركن الدين أبى الفتح بيبرس الصالحى النجمى ، وبين المقدم الكبير الهمام فلان مقدم بيت الاسبتار الفلانى بعكا والبلاد الساحلية ، وبين فلان مقدم

(١) المقريزى : السلوك ج١ ق٢ ص ٥٥٧
(٢) صبح الاعشى ج١٤ ص ٣١ — ص٣٩

حصن الاكراد ، وبين فلان مقدم حصن المرقب ، وجميع الاخوة الاسبتار لمدة عشر سنين متوالية وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشر ساعات : أولها يوم الاثنين رابع رمضان سنة خمس وستين وستمائة من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، الموافق لليوم الثلاثين من أيام سنة ألف وخمسمائة وتسعه وسبعين سنة للاسكندر بن فيلبس اليونانى — على أن جميع المملكة الحمصية والشيزرية والحموية وبلاد الدعوة المباركة، واقع عليها الاتفاق المبارك،ومستقرة لهاهذه الهدنة الميمونةبجميع حدودهذه الممالك المعروفة ، وبلادها الموصوفة ، وقـراها وضياعها ، وسهلها وجبلها وعامرها وغامرها ومزروعها ومعطلها،وطرقاتها ومياهها ، وقلاعها وحصونها — على ما يفصل فى كل مملكة ، ويشرح فى هذه الهدنة المباركة للمدة المعينة الى آخرها .

وعلى أن المستقر بمملكة حمص المحروسة أن جميع المواضع والقرى والاراضى التى من نهر العاصى ، وتغرب الى الحد المعروف من الغرب لبلد المناصفات : عامرا وداثرا وبما فيها من الغلات صيفيا وشتويا ، والعداد وغيرها من الفوائد جميعها — تقرر أن يكون النصف من ذلك للسلطان الملك الظاهر ركن الدنيا والدين أبى الفتح بيبرس والنصف لبيت الاسبتار .

وعلى أن كلا من الجهتين يجتهد ويحرص فى عمارة بلد المناصفات المذكورة بجهده وطاقته ، ومن دخل اليها من الفلاحين بدواب ، أومـن التركمان ، أو من العرب ، أو من الاكراد ، أو من غيرهم ، أو الفناة — كان عليهم العداد كجارى العادة . ويكون النصف للسـلطان ، والنصف لبيت الاســـتبار .

وعلى أن الملك الظاهر يحمى بلد المناصفات المقدم ذكرها من جميع عسكره وأتباعه ، وممن هو فى حكمه وطاعته ، ومن جميع المسلمين الداخلين

فى طاعته كافة • وكذلك مقدم بيت الاسبتار وأصحابه يحمون بلاد مولانا السلطان الداخلة فى هذه الهدنة •

وعلى أن جميع من يتعدى نهر العاصى معربا لرعى دوابه : سواء أقام أو لم يقم ، كان عليه العداد سوى قناة البلد ودوابه ، ومن يخرج من مدينة حمص ويعود اليها، ومن غرب منهم ومات كان عليه العداد •

وعلى أن يكون أمر فلاحى بلد المناصفات فى الحبس والاطلاق والجباية راجعا الى نائب مولانا السلطان باتفاق مع نائب بيت الاسبتار على أن يحكم فيه شريعة الاسلام ان كان مسلما ؛ وان كان نصرانيا يحكم فيه بمقتضى دولة حصن الاكراد • وأن يكون الفلاحون الساكنون فى بلاد المناصفات جميعها مطلقين من السخر من الجانبين •

وعلى أن الملك الظاهر لا يأخذ فى بلد المناصفات المذكورة من تركمان ولا عرب ولا أكراد ولا غيرهم عدادا ولا حقا من حقوق بلد المناصفات ، الا ويكون النصف منه للملك الظاهر ، والنصف الاخر لبيت الاسبتار •

وعلى أن الملك الظاهر لا يتقدم بمنع أحد من الفلاحين المعروفين بسكنى بلاد المناصفات من الرجوع اليها ، والسكن فيها اذا اختاروا العود • وكذلك بيت الاسبتار لا يمنعون أحد من الفلاحين المعروفين بسكنى بلاد المناصفات من الرجوع اليها والسكن فيها اذا اختاروا العود •

وعلى أن الملك الظاهر لا يمنع أحدا من العربان والتركمان وغيرهم : ممن يؤدى العداد ، من الدخول الى بلد المناصفات ، ألا أن يكون محاربا لبعض الفرنج الداخلين فى هذه الهدنة ، فله المنع من ذلك • وأن تكون

(٢ـأ) القناة : الغنم ومايتخذ منها للولد أو اللبن ، واحدتها قنـــوة وقنية ـــ مادة «قنى» لسان العرب

خشارات (٣) الملك الظاهر وخشارات عساكره وغلمانهم وأهل بلدة ترعى فى بلد المناصفات آمنة من الفرنج والنصارى كافة • وكذلك خشارات بيت الاسبتار وخشـــارات عســكرهم وغلمانهم وأهـل بلدهم ترعى آمنة من المسلمين كافة فى بلد المناصفات • وعند خروج الخشارات من المراعى وتسليمها لاصحابها ، لا يؤخذ فيها حق ولا عداد ولا تعارض من الجهتين •

وعلى أن تكون مصيدة السمك الرومية مهما تحصل منها ، يـــكون النصف منه للملك الظاهر والنصف لبيت الاسبتار • كذلك المصـــايد التى فى الشط الغربى من العاصى يكون النصف منه للملك الظاهر والنصف لبيت الاسبتار • ويكون لبيت الاسبتار فى كل سنة خمسون دينارا صـــورية عن القش ، ويكون القش جميعه للملك الظاهر يتصرف نؤابه فيه على حسب اختيارهم •ويكون اللينوفر(٣ـأ) مناصفة:النصف منه للملك الظاهروالنصف لبيت الاسبتار •وتقرر أن الطاحون المستجد المعروف بانشاء بيت الاسبتار ، الذى كان حمل الحرب فيه ، والبستان الذى هناك المعروف بانشاء بيت الاسبتار أيضا يكون مناصفة • وأن يكون متولى أمر هما نائب من جهة نواب السلطان ونائب من جهة بيت الاسبتار ، يتوليان أمرهما والتصرف فيهما وقبض متحصلهما • وتقرر أن مهما يجدده بيت الاسبتار على المـاء الذى تدور به الطاحون ويسقى البستان من الطواحين والابنية وغير ذاك يكون مناصفة بين الملك الظاهر وبين بيت الاسبتار •

وأما المستقر بمملكة شيزر المحروسة ، فهى شـــيزر ، وأبو قبيس

---

(٣) الخشارات : من خشر ، الخشور من الدواب: المنتفخ الجنبين مادة خشر : لسان العرب

(٣ـأ) اللينوفر ، ويقال أيضا النيلوفر ، وهو ضرب من الرياحين تنبت فى المياه الراكدة ـــ وهى كلمة أعجمية ـــ انظر مادة « نيلوفر » محيط المحيط •

وأعماله ، وعينتاب وأعمالها ، ونصف زاوية بغراس المعروفة بحماية بيت الاسبتار وأعمالها ، وجميع أعمال المملكة الكسروية والبلاد المذكورة بحدودها المعروفة بها وقراها المستقرة بها ، وسهلها وجبلها وعامرها وغامرها •

وما استقر بمملكة الملك المنصور ، ناصر الدين (محمد) بن الملك المظفر أبى الفتح (محمود) بن الملك المنصور محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب فهى : حماة المحروسة وقلاعها ومدنها • والمعرة وقراها وسهلها وجبلها وأنهارها ، ومنافعها وثمارها وعامرها ، وبلاد رقيبة وبلاد بارين بحدودها وتخومها وعامرها وداثرها وجميع من فيها وما فيها — على أن الملك المنصور لا يرخص للتركمان ولا للعرب أن ينزلوا بلد رقيبه وبارين سوى ثلاثين بيتا يحملون الغلة لقلعة بارين ، وان أرادوا الزيادة يكون بمراجعة الأخوة الاسبتارية والاتفاق معهم على ذلك •

وعلى أنه ان تعدى أحد من أصحابه بأذية ، أو تعدى أحد من الفرنجة فى بلاده بأذية كانت المهلة فى ذلك خمسة عشر يوما ، فان انكشف الأخيذة ، أعيدت • والا تحلف الجهة المدعى عليها أنها ما علمت وما أحست ، وكما لهم ، كذلك عليهم •

والمستقر لمملكة الصالحيين : نجم الدين وجمال الدين ، والأمير صارم الدين نائبى الدعوة المباركة ، وولده الصاحب رضى الدين ، وهى : مصياف والرصافة وجميع قلاع الدعوة وحصونها وسهلها ووعرها وعامرها وداثرها ومدنها وبلادها ، وضياعها وطرقاتها ، ومياهها ومنابعها ، وجميع بلاد الاسماعيلية بجبلى بهر واللكام وكل ما تشمل عليه حدود بلاد الدعوة وتخومها — أن يكون الجميع آنين من على الرصيف الذى بشيزر الى نهاية الاراضى التى بحصون الدعوة وبلادها ، وحماية القرية المعروفة بعرطماز (؟) يكون له أسوة الاسماعيلية • وان علم الاصحاب أن أحدا من

الاسماعيلية قد عبر الى بيت الاسبتار لاذية ، أعلموا بيت الاسبتار قبل أن تجرى أذية ومالم يعملوا به عليهم اليمين انهم ما علموا به ، وان لم يحلفوا يردوا الاذية التى جرى •

وتقرر أن يكون فلاحو بيت الاسبتار رائحين وغادين ومتصرفين فى بيعهم وشرائهم ، مطمئنين لا يتعدى أحد عليهم • وكذلك جميع فلاحى بلاد الاسماعيلية لا يتعدى أحد عليهم ، وأن يكونوا آمنين مطمئنين فى جميع بلاد الاستبارية ، وان تعدى أحد من الجهتين فى سوق أو طريق ، فى ليل أو نهار ، تكون المهلة خمسة عشر يوما ، فان ردت الشكوى كلها فما يكون الا الخير بينهم ، ومن توجهت عليه اليمين حلف ومن يفعل يحلف والا يرد الاذية • وتكون الضيعة التى رهنها عبد المسيح رئيس المرقب الاسبتار ، وهى الشيرفة تكون آمنة ان كان الحال استقر عليها الى آخر وقت عند كتابة هذه الهادنة المباركة بين الاصحاب وأصحابهم • ويحمل الامر فى الحقوق •

ويبطل ما هو على بلاد الدعوة المباركة من جميع ما لبيت الاسبتار على حماية مصياف والرصافة ، وهو كل سنة ألف ومائتان دينار قومصية ، وخمسون مدا حنطة ، وخمسون مدا شعيرا ، ولا تبقى قطيعة على بلاد الدعوة جميعها ، ولا يتعرض بيت الاسبتار ولا نوابهم ولا غلمانهم الى طلب قديم من ذلك ولا جديد ولا منكسر ولاماض ، ولا حاضر ولا مستقبل على اختلافه •

وتقرر أن تكون جميع المباحات من الجهتين مطلقة مما يختص بالمملكة الحمصية ، يسترزق بها الصعاليك • وأن نواب الملك الظاهر يحمونهم من أذية المسلمين من بلاده المذكورة ، وأن نواب بيت الاسبتار يصونونهم

ويحرسونهم ويحمونهم من النصارى والفرنج من جميع هذه البلاد الداخلة في هذه الهدنة • ولا يتعرض أحد من المسلمين كافة من هذه البلاد الداخلة في هذه الهدنة الى بلاد الاسبتار بأذية ولا اغارة • ولا يتعرض أحد من جميع الفرنجة من هذه البلاد الداخلة فى هذه الهدنة بحدودها الجارية فى يد نواب الاستبار وفى أيديهم ، الى بلاد الملك الظاهر بأذية ولا اغارة •

وعلى أنه متى دخل فى بلاد المناصفات أحد ممن يجب عليه العداد وامتنع من ذلك ، وكان عداد احدى الجهتين حاضرا ، : اما عداد ديوان الملك الظاهر ، اما عداد بيت الاسبتار ، فلنائب العداد الحاضر من احدى الجهتين أن يأخذ من ذلك الشخص الممتنع عن العداد أو الخارج من بلد المناصفات بمقدار ما يجب عليه من العداد ، بحضور رئيس من رؤساء بلد المناصفات ، ويترك الرهن عن الرئيس وديعة الى أن يحضر النائب الاخر من الجهة الاخرى ، ويوصل الى كل من الجهتين حقه من العداد •

وان خرج أحد ممن يجب عليه العداد ، وعجز النائب الحاضر عن أخذ رهنه : فان دخل بلد من بلاد الملك الظاهر ، كان على النواب ايصال بيت الاستبار الى حقهم مما يجب على الخارج من العداد • وكذلك ان دخل الخارج المذكور الى بيت الاستبار كان عليهم أن يوصلوا الى نواب الملك الظاهر حقهم مما يجب على الخارج من العداد • وكذلك يعتمد ذلك فى المملكة الحموية وبلاد الدعوة المحروسة •

وعلى أن التجار والسفار والمترددين من جميع هذه الجهات المذكورة يكونون آمنين من الجهتين : الجهة الاسلامية ، والجهة الفرنجية والنصرانية فى البلاد التى وقعت هذه الهدنة عليها — وعلى النفوس والاموال والدواب وما يتعلق بهم ، يحميهم السلطان ونوابه ، ويتعاهدون البلاد الداخلة فى

هذه الهدنة المباركة الواقع عليها الصلح وفى بلد المناصفات — من جميع المسلمين • ويحميهم بيت الاسبتار فى بلادهم الواقع عليها الصلح وفى بلد المناصفات — من الفرنج والنصارى كافة •

وعلى أن يتردد التجار والمسافرون من جميع المترددين على أى طريق المختصة بالملك الظاهر ، وبلاد معاهدية ، وبلاد المناصفات ، وخاص بيت الاسبتار والمناصفات ، يكون الساكنون والمترددون فى الجهتين آمنين مطمئنين على النفوس والاموال ، تحمى كل جهة الاخرى •

وعلى أن ما يختص بكل جهة من هذه الجهات : الاسلامية ، والفرنجية الاسبتارية • لا يكون عداد على ما لها فى المناصفات : من الدواب والغنم والبقر والجمال وغيرها ، على العادة المقررة فى تلك •

وعلى أن اطلاق الرؤساء باتفاق من الجهتين : الاسلامية ، والفرنجية الاسبتارية • ومتى وقعت دعوى على الجهة الاخرى ، وقف أمرها فى الكشف عنها أربعين يوما ، فان ظهرت أعيدت على صاحبها ، وان لم تظهر حلف ثلاثة نفر من يختارهم صاحب الدعوى على ما يعلمونه فى تلك الدعوى ، وان ظهرت بعد اليمين أعيدت الى صاحبها ، وان كان قد تعوض عنها أعيد العوض •

وعلى أن يكشفوا عن الاخيذة بجهدهم وطاقتهم • ومتى تحققت أعيدت الى صاحبها . فان حلفوا يبرءوز من الدعوى ، وان ظهرت بعد اليمين أعيدت على صاحبها ، وان امتنع المدعى عليه من اليمين حلف المدعى ، ولا يستحق عوض ما عدم من كل شىء مثله • وكذلك يجرى الامر فى القتل : عوض الفارس فارس ، وعوض الراجل راجل ، وعوض البركيل بركيل وعوض التاجر تاجر ، وعوض الفلاح فلاح • واذا انقضت الاربعون يوما المذكورة لكشف الدعوى ولم يحلف المدعى عليه للمدعى وجب عليه العوض

حتى يرد ، وان رد اليمين على المدعى ومضى على ذلك عشرة أيام ولم يحلف صاحب الدعوى بطلت دعواه وحكمها ، وان حلف أخذ العوض •

ومتى هرب من احدى الجهتين الى الاخرى أحد ، ومعه مال لغيره أعيد جميع ما معه ، وكان الهارب مخيرا بين المقام والعود • وان هرب عبد وخرج عن دينه ، أعيد ثمنه ، وان كان باقيا على دينه أعيد •

وعلى أن لا يدخل أحد من القاطنين فى بلد المناصفات : من الفلاحين والعرب ، والتركمان وغيرهم ، والى بلاد الفرنج والنصارى كافة لاغارة ولا أذية بعلم الملك الظاهر وبلاد معاهدية ولا يدخل أحد بلاد المسلمين لا غارة ولا أذية بعلم بيت الاسبتار ولا رضاهم ولا اذنهم •

وعلى أن الدعاوى المتقدمة على هذا الصلح يحمل أمرها على شرط المواصفة التى بين الملك الظاهر وبين معاهديه وبين بيت الاسبتار •

وعلى أن هذه الهدنة تكون ثابتة مستقرة ، لاتنقض بموت أحد من الجهتين ، ولا وفاة ملك ولا مقدم ، الى آخر المدة المذكورة ، وهى : عشر سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشر ساعات ، أولها يو تاريخه •

وعلى أن نواب الملك الظاهر ومعاهديه لا يتركون أحدا من التركمان ولا من العربان ، ولا من الاكراد ، يدخل بلاد المناصفات بغير اتفاق من بيت الاسبتار أو رضاه ، الا أن يكفلوه على نفوسهم فى هذه الطوائف المذكورة ويعلموا حاله لئلاتبدو منهم أذية أو ضرر أو فساد ببلد المناصفات وببلد النصارى • ولنواب مولانا السلطان أن تتركهم على شرط أنهم يعلم بهم بيت الاسبتار فى غد نزولهم المكان ، ان كان النواب يجاوبون بيت الاسبتار بيت الاسبتار فى غد نزولهم المكان ، ان كان المكان قريبا • وان ظهر منهم فساد كان النواب يحاربون بيت الاسبتار •

وعلى أن المهادنة بحدودها يكون الحكم فيها كما فى المناصفات ،

والحدود فى هذه البلاد جميعها تكون على ما تشهد به فسخ الهدن ، وما استقر الحال عليه الى آخر وقت •

وعلى أن تخلى أمور المملكة الحمصية على ما كان مستقرا فى الايام الاشرفية ، على ما قرره الامير علم الدين سنجر •

هذا ما وقع الاتفاق والتراضى عليه من الجهتين • وبذلك جرى القلم الشريف السلطانى الملكى الظاهرى : حجة بمقتضاه ، وتأكيدا لما شرح أعلاه، كتب فى تاريخ كذا وكذا •

* * *

الملحــــق الثـــــانى

معاهدة السلطان بيبرس مع ملـكة بيروت

(٦ رمضان ٦٦٧ هـ ــ مايو ١٢٦٩م)

ملاحظــات على المعاهدة :

عقــــدت هــذه المعـــاهدة فى أعقـــــاب نجـــاح بيبـــرس فى الاستيلاء على أنطاكية سنة ٦٦٧هـ (١٢٦٨م) وكان هذا حدثا له أهميته اذ كانت انطاكية احدى الامارات الكبرى التى تكونت منها المملكة الصليبية فى الشام ، وهى ثانى الامارات الصليبية التى برزت الى الوجود ولابد أن هذا الحدث كانت له آثاره فى تشجيع المسلمين على متابعة ضغطهم على هذه الامارات وكذلك فى اضعاف معنويات الافرنج وتثبيط هممهم •

وبالنسبة لبيبرس فانه فى مواجهته للافرنج وان عرف عنه اشتداده فى متابعة بعضهم فى ميدان القتال فانه كثيرا ما كان يلجأ الى مهادنة بعضهم الاخر • وذلك حتى يتفادى مواجهتهم وهم مجتمعين • وبالنسبة للمعاهدة التى عن بصدد عرضها فالطرف الافرنجى العاقد هو ملكة بيروت التى لم يظهر اسمها فى نص المعاهدة التى جاء بها القلقشندى •

وبالنسبة لاستعمال اللقب الملكى فى الامارات الصليبية ، فيلاحظ أن بيت المقدس خرجت نهائيا عن حكم الفرنجة سنة ١٢٤٤ م على اثر استرجاع المسلمين لها • ولكن ظل الفرنجة يحتفظون بلقب ملك بيت المقدس ويتصارعون عليه ، وان كان ملوك قبرص من أسرة لوسنيان قد وحدوا بين عرشى قبرص وبيت المقدس الا ان هذا لم يضع حدا للصراع حول تاج بيت المقدس فى وقت اضطربت فيه أحوال الفرنجة فى الشام •

وأما الملكة المشار اليها فى هذه الاتفاقية فهى ايزابيلا ، الابنة الكبرى ليوحنا الثانى ابلين وكانت من تلك العائلة الفرنجية ، عائلة ابلين التى كانت لها مكانتها بين الفرنجة والتى تمركزت اقطاعاتها حول بيروت وصور وتوابعها • وقد تزوجت ايزابيلا من هيو الثانى Hugh II ملك قبرص الا انه مات قبل أن يضع عقد الزواج موضع التنفيذ وكان ذلك سنة ١٢٦٧م وخلفه فى حكم قبرص هيو الثالث ولكنه يتوج ملكا لبيت المقدس الا فى ٢٤ سبتمبر ١٢٦٩ م ، وتزوج من فتاة أخرى تدعى كذلك ايزابيلا وهى ابنه الكندسطبل جى وكانت كذلك من بيت ابلين (٤) •

أما ايزابيلا أرملة الملك الراحل ، فظلت فى بيروت معتمدة حقها الشرعى فى الحكم ، وملأت المجتمع الفرنجى بأخبار مغامراتها العاطفية • ولكى تستطيع المحافظة على كيانها السياسى كانت على استعداد لعقد معاهدة مع السلطان بيبرس ، واقامة حلف سياسى معه . فضلا عما ذهبت اليه لوضع أسس للتعامل السلمى معه •

ومما أسترعى الانتباه فى هذه المعاهدة أن المسلمين مع استعمالهم للقب « ملكة » فى مخاطبة ايزبيلا ، فهم يذكورنها كملكة بيروت التى كانت

(٤) رنسيمان ج ٣ ص ٥٦٥

مركزا لاقطاعاتها وليس ملكة بيت المقدس • وهو على ما يبدو يرجع الى تحفظات من جانبهم نظرا لاهمية تلك المدينة بالنسبة للمسلمين • ويظهر هذا التحفظ فى عدد من الوثائق الرسمية التى كانوا يصدرونها مثل الرسالة التى بعث بها صلاح الدين الى الملك الصليبى بولدوين الرابع ، خاطبة فيها بالملك المعظم « حافظ بيت المقدس » ولم يقل ملك بيت المقدس (٥) أما الرسم الذى اعتاد المسلمون استعماله فى مكاتبة الملوك الفرنج بالشام فكانوا عادة يذكرون أوصاف مثل شمس الملة النصرانية وجلال الطائفة الصليبية مع الامتناع عن ذكر لقب ملك بيت المقدس (٦) •

نص المعاهدة (٧)

استقرت الهدنة المباركة بين السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس وبين الملكة الجليلة المصونة الفاخرة ، فلانه ابنة فلان • مالكة بيروت وجميع جبالها وبلادها التحية مدة عشر سنين متوالية ، أولها يوم الخميس سادس رمضان سنة سبع وستين وستمائة الموافق لتاسع ايار سنة ألف وخمسمائة وثمانين يونانية — على بيروت وعمالها المضافة اليها ، الجارى عادتهم فى التصرف فيها فى أيام الملك العادل ، أبى بكرين أيوب ، وأيام ولده المعظم عيسى ، وأيام الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن الملك العزيز • والقاعدة المستقرة فى زمنهم الى آخر الايام الظاهرية ، بمقتضى الهدنة الظاهرية • وذلك مدينة بيروت وأماكنها المضافة اليها •••

ويكون جميع المترددين من هذه البلاد واليها آمنين مطمئنين على نفوسهم وأموالهم وبضائعهم ، ومن الملكة فلانة وغلمانها ، وجميع من هو فى حكمها وطاعتها : برا وبحرا ، ليلا ونهارا ، ومن مراكبها وشوانيها •

(٥) صبح الاعشى ج ٧ ص ١١٥ — ص ١١٦ •
(٦) المصدر السابق ج ٦ ص ١٧٦ ، ج ٧ ص ١١٨
(٧) المصدر السابق ج ١٤ ص ٣٩ — ص ٤٢ •

وكذلك رعية الملكة فلانة وغلمانها يكونون آمنين على أنفسهم وأموالهم وبضائعهم من السلطان ومن جميع نوابه وغلمانه ومن هو تحت حكمه وطاعته برا وبحرا ونهارا : فى جبلة ، واللاذقية ، وجميع بلاد السلطان ، ومن مراكبه وشوانيــــه •

وعلى أن لا يجدد على أحد من التجار المترددين رسم لم تجربه عادة، بل يجرون على العوائد المستمرة ، والقواعد المستقرة من الجهين • وان عدم لاحد من الجانبين مال ، أو أخذت أخيذة ، وصحت فى الجهة الاخرى ردت ان كانت موجودة ، أو قيمتها ان كانت مفقودة • وان خفى أمرها كانت المدة للكشف أربعين يوما ، فان وجدت ردت ، وان لم توجد حلف والى تلك الولاية المدعى عليه ، وحلف ثلاثة ممن يختارهم المدعى ، وبرئت جهته من تلك الدعوى • فان أبى المدعى عليه عن اليمين حلف الوالى المدعى ، وأخذ ما يدعيه • وان قتل أحد من الجانبين خطأ كان أو عمدا ، كان على القاتل فى جهته العوض عنه نظيره : فارس بفارس ، وبركيل ببركيل (٨) وراجل براجل ، وفلاح بفلاح • وان هرب أحد من الجانبين الى الجانب الاخر بمال لغيره ، رد من الجهتين هو المال ، ولا يعتذر بعذر •

وعلى أنه ان تاجر فرنجى صدر من بيروت الى بلاد السلطان يكون داخلا فى هذه الهدنة ، وان عاد الى غيرها لا يكون داخلا فى هذه الهدنة •

وعلى أن الملكة فلانة لا تمكن أحدا من الفرنج على اختلافهم مــن قصد بلاد السلطان من جهة بيروت وبلادها ، ونمنع من ذلك وتدفع كل متطرق بسوء ، وتكون البلاد من الجهتين محفوظة من المتجرمين المفسدين• وبذلك انعقدت الهدنة للسلطان ، وتقرر العمل بهذه الهدنة والالتزام

(٨) سبق ايضاح هذا المصطلح فى الفصل التاسع •

بعهودها والوفاء بها الى آخر مدتها من الجهتين : لا ينقضها مرور زمان ولا يغير شروطها حين ولا أوان ، ولا تنقض بموت أحد من الجانبين • وعند انقضاء الهدنة يكون التجار آمنــين من الجهتين مدة أربعين يوما ، ولا يمنع أحد منهم من العودة الى مستقره ، وبذلك شمل الهـدنة المباركة الخط الشريف حجة فيها ، والله الموفق فى تاريخ كذا وكذا •

* * *

الملحـق الثـالث

معاهـدة السلطان قـلاون مع فرنج عـكا

(٥ ربيع الاول ٦٨٢هـ / ٥ مايو ١٢٨٣م)

ملاحظات على المعـاهدة :

بالنسبة للطرف الاسلامى فى المعاهدة فكان يمثله السلطان قلاون وابنه الملك الصالح علاء الدين ، وقد تولى السلطان قلاون حكم دولة المماليك فى الفترة ٦٧٩هـ — ٦٨٩هـ (١٢٧٩م — ١٢٩٠م) وان كان من المعــروف عنه حرصه على تقويض دعائم ما تبقى من الممتلكات الصليبية فى الشام ،الا أنه وجدت ظروف بداخل دولته فى الفترة الاولى من حكمه اقتضت أن يلجأ الى مهادنة الفرنج وابرام معاهدات معهم وبالذات عقد الاتفاق مع فرنج عــكا •

ففى باكورة حكمه واجه قلاون مشاكل داخلية ممثلة فى خروج بعض كبار الامراء المماليك عليه ، ومن بينهم الامير شمس الدين سـنقر نائب السلطنة الذى اتخذت من دمشق قاعدة له ورفض الاعتراف بقلاون سلطانا وأعلن نفسه حاكما على الشام سنة ١٢٨٠م وتلقب بالملك الكامل ودعى له فى المسجد الاموى (٩) • كما أنه اتصل بالتتار وأغراهم على غزو الشام •

(٩) المقريزى : السلوك ج ١ ق ٣ ص ٦٧٤— ص ٦٧٥ •

وكان على قلاون أن يرسل أكثر من حملة عسكرية ضده ، ولم يتمكن السلطان من التغلب على ما تسبب سنقر فيه من متاعب الا سنة ١٢٨٧م .

أما الطرف الثانى فى المعاهدة فيمثله فرنج عكا التى كانت لها أهميتها حيث أصبحت قاعدة للامارات الصليبية فى الشام بعد أن فقد الصليبيون بيت المقدس . هذا وكان لمدينة عكا نشاط تجارى ملحوظ . الا أن هذه المدنية شأنها شأن غيرها من المراكز الصليبية فى الشام كانت تعانى فى هذه المرحلة من الانقسامات الداخلية والتصارع على السلطة ، وخاصة ذلك التصارع الذى قام بين أنصار هيو الثالث ملك قبرص الذى توج ملكا لبيت المقدس ، وشارل الانجوى الفرنسى الاصل الذى آل اليه حكم مملكة النورمان بصقلية وورث حلم ملوكها لاقامة امبراطورية فى الشرق ، تكون مملكة بيت المقدس من بين ممتلكاتها واستمر هذا النزاع حتى وفاة هيو ٣ سنة ١٢٨٤م .

ولما بدأت قوة مملكة شارل آنجو فى الانهيار سنة ١٢٨٢م عقب المذبحة الصقلية التى ذبح فيها جميع الفرنسيين الموجودين فى صقلية ، استدعى هذا الملك نائبه سان سفيرينو من الشرق وأمره بالعودة الى ايطاليا ،فغادر هذا عكا فى نهاية ١٢٨٢م بعد أن ترك بها كتائب للملك أودو بواليشيان Odo Poilichien الذى يشار اليه فى المصادر العربية بالصنجيل أو السنجال أود كفيل المملكة بعكا (١٠) .

وكان أودو بواليشيان هذا هو الذى دخل فى مفاوضات مع قلاون لعقد المعاهدة . ولكن لما كان السلطان غير مطمئن الى مدى سلطة هذا النائب

(١٠) مصطلح الصنجيل أو السنجال انما هو تحريف للمصطلح اللاتينى Senescalluc المقريزى : السلوك ج ١ ص ٩٨٥ الحاشية (٥).

مع اضطراب الاوضاع فى الامارات الصليبية ، فقد أشرك معه فى عقد المعاهدة عددا من الفرنج من عكا .

ومن الشخصيات التى تكون منها الطرف الفرنجى فى المعاهدة الى جانب نائب المملكة ، كان مقدم جماعة الداوية وليام دى بوجيه guillaume de Beaujeu الذى ترأس الجماعة من ١٢٧٣ — ١٢٩١م ، ويشار اليه فى المعاهدة باسم كليام ديباجوك ، ومقدم الاسبتارية « الاخ » نيكول لورجن Nicholas le Lorgne الذى ترأس جماعته من ١٢٧٧ — ١٢٨٣م وهو فى المعاهدة المقدم افرير (الاخ) نيكون للورن ، وكذلك المارشال كونراد Conrad نائب مقدم الاسبتارية (وهو فى المعاهدة المرشان الاجل كورات) .

والمعاهدة لها أهميتها من حيث المواد الرئيسية التى تضمنتها وتناولتها ، ما بين رسم الحدود والتدقيق فى ذلك ، ونظام بلاد المناصفات والنشاط التجارى ، والعرف الدولى البحرى ومعاملة الاسرى والرهائن ، والزام الفرنجة بعكا بتبليغ السلطان عن أى تحركات عسكرية من أوروبا نحو الشرق ولهذا فان هذه المعاهدة غنية بالمعلومات التى تقدمها .

نص المعاهدة (١١)

استقرت الهدنة بين مولانا السلطان الملك المنصور سيف الدين أبى الفتح قلاون الملكى الصالحى وولده السلطان الملك الصالح علاء الدين على، خلد الله سلطانهما ، وبين الحكام بمملكة عكا وصيدا وعثليت وبلادها التى انعقدت عليها هذه الهدنة ، وهم : السنجال أود كفيل المملكة بعكا ، وحضرة

(١١) نص المعاهدة منقول عن المقريزى : السلوك ج ١ ص ٩٨٥ — ص ٩٩٥ ، أنظر كذلك ابن الفرات تاريخ الدول والملوك ج ٧ ص ٢٦٢ — ص ٢٧٢ ، صبح الاعشى ج ١٤ ص ٥١ — ص ٦٣ .

المقدم الجليل افرير كليام ديباجوك مقدم بيت الديوية والمقدم افرير نيكول للورن مقدم بيت الاسبتارية والمرشان الاجل افرير كورات نائب مقدم بيت الاسبتار الامن ، لمدة عشر سنين كوامل وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشر ساعات ، أولها يوم الخميس خامس شهر ربيع الاول ، سنة اثنين وثمانين وستمائة للهجرة النبوية ، صلوات الله على صاحبها وسلامه ، الموافق للثالث من حزيران سنة ألف وخمسمائة وأربعة وتسعين للاسكندر بن فيلبس اليونانى ، على جميع بلاد السلطان الملك المنصور وولده ، وهى التى فى تملكهما وتحت حكمهما وطاعتهما ، وتحويه يدهما يومئذ من جميع الاقاليم والممالك والقلاع والحصون ، والاعمال والمدن والقرى والمزارع والاراضى ... (١٢) .

وعلى جميع العساكر وعلى جميع الرعايا من سائر الناس أجمعين ، على اختلافهم وتغاير أنفارهم وأجناسهم وأديانهم ، القاطنين فيها والمترددين اليها ومنها من سائر بلاد المسلمين ، وعلى جميع التجار والسفار والمترددين فى البر والبحر ، والسهل والجبل ، وفى الليل والنهار ، يكونون آمنين مطمئنين فى حالتى صدورهم وورودهم ، على أنفسهم وأموالهم وأولادهم ، وحريمهم وبضائعهم وغلمانهم ، وأتباعهم ومواشيهم ودوابهم ، على جميع ما يتعلق بهم ، وكل ما تحوى أيديهم من سائر الاشياء على اختلافها من الحكام بمملكة عكا : (وهم كفيل المملكة ، والمقدم افرير كليام ديباجوك مقدم بيت الديوية ، والمقدم افرير نيكول للورن مقدم بيت اسبتار ، والمرشان افرير كورات نائب مقدم بيت اسبتار الامن ، ومن جميع الفرنج الاخوة ، والفرسان) الداخلين فى طاعتهم وتحويه مملكتهم

(١٢) جاء فى نص المعاهدة ثبت دقيق باسماء البلاد والمواقع التى تكونت منها دولة قلاون فى الشام ويمكنه الرجوع اليه فى المقريزى : السلوك ج١ ص٩٨٦ — ص ٩٨٨

الساحلية ، ومن جميع الفرنج على اختلافهم ، الذين يستوطنون عكا والبلاد الساحلية الداخلة فى الهدنة ، وكل واصل اليها فى بر وبحر ، على اختلاف أجناسهم وأنفارهم ، لا ينال بلاد (مولانا) السلطان (الملك المنصور قلاون) وولده الملك الصالح ، ولا حصونهما ولا قلاعهما ، ولا بلادهما ولا ضياعهما ، ولا عساكرهما ولا جيوشهما ، ولا عربهما ولا تركمانهما . ولا أكرادهما ولا رعاياهما ، على اختلاف الاجناس والانفار ، ولا ما تحويه أيديهم من المواشى والاموال والغلال وسائر الاشياء منهم بغدر ولا سوء، ولا يخشون من جهتهم أمرا مكروها ولا اغارة ولا تعرضا ولا أذية ، وكذلك كل ما سيفتحه ويضيفه مولانا السلطان الملك المنصور وولده الملك الصالح، على يدهما وعلى نوابهما وعساكرهما ، من بلاد وحصون وقلاع وملك وأعمال وولايات ، برا وبحرا ، سهلا ووعرا .

وكذلك جميع بلاد الفرنج التى استقرت الان عليها هذه الهدنة المباركة وهى : مدينة عكا وبساتينها وأراضيها وطواحينها ، وما يختص بها من كرومها ، وما لها من حقوق حولها ، وما تقرر لها من بلاد فى هذه الهدنة ، وعدتها بمافيها من مزارع ثلاث وسبعون ناحية خاصا للفرنج ، وكذلك حيفا والكروم والبساتين ، والعدة بحيفا سبع نواحى ، وكذلك مارينا بأرضها المعروفة بها تكون للفرنج وكذلك دير السياج ودير مار الياس يكون للفرنج .

(ويكون لمولانا السلطان من بلاد الكرمل خاصا عفا والمنصورة ، وباقى بلاد الكرمل ثلاث عشر ناحية للفرنج ، وعثليث القلعة والمدينة والبساتين التى قطعت والكروم وفلاحتها وأراضيها تكون لها من البلاد ست عشرة ناحية ، ويكون خاصا لمولانا السلطان ما يذكر : وهو قرية الهراميس بكمالها وحقوقها ومزارعها ، وبقية بلاد عثليث تكون مناصفة خارجا عما للخاص الشريف وعما لخاص عثليث يكون مناصفة: وهى ثمانى نواحى ، وفلاحة

الاسبتار بعمل قيسارية تكون خاصا للفرنج بما فيها، ونصف مدينة اسكندرونة
ونصف قرية مارن بما فيها للفرنج، وما عدا ذلك يكون خاصا لمولانا السلطان .
ومهما كان فى اسكندرونة وقرية مارن من الحقوق والغلة يكون مناصفة ،
وصيدا القلعة والمدينة والكروم وضواحيها وجميع ما ينسب اليها يكون
خاصا للفرنج ، ويكون لها من البلاد خاصا خمس عشرة ناحية ، وما فى
الوطاة من أنهار ومياه وعيون ، وبساتين وطواحين وقنى ، ومياه جارية
وسكور لهم بها عادة قديمة تسقى أراضيهم ، يكون خاصا لهم ، وما عدا
ذلك من البلاد الجبلية جميعها تكون لمولانا السلطان ولولده بكاملها .

وتكون جميع هذه البلاد العكاوية ، وما عين فى هذه الهدنة المباركة
من البلاد الساحلية ، آمنة من السلطان الملك المنصور وولده الملك الصالح
وآمنة من عساكرهما وجنودهما ومن فى خدمتهما . وتكون هذه البلاد
المشروحة الداخلة فى هذه الهدنة المباركة ، الخاص منها وما هو مناصفة
مطمئنة هى ورعاياها وسائر أجناس الناس فيها ، والقاطنين بها والمترددين
اليها ، على اختلاف أجناسهم وأديانهم ، والمترددين اليها من جميع بلاد
الفرنجية والتجار والسفار ، والمترددين منها واليها فى بر وبحر ، وفى ليل
أو نهار ، وسهل وجبل ، آمنيين على النفوس والاموال والاولاد ، والمراكب
والدواب وجميع ما يتعلق بهم ، وكل ما تحويه أيديهم من الاشياء على
اختلافها ، ومن السلطان وولده ، ومن جميع من هو يجب عليه طاعتهما ،
لا ينالهم ولا ينال هذه البلاد المذكورة التى انعقدت الهدنة عليها سوء
ولا ضرر ولا اغارة ، ولا ينال احدى الجهتين المذكورتين الاسلامية
والفرنجية من الاخرى ضرر ولا أذية ويكون ما تقرر أنه يكون خاصا للفرنج
حسبما بين أعلاه لهم ، وما تقرر أن يكون للسلطان وولده يكون خاصا

لهما ، المناصفات تكون كما شرح ، ولا يكون للفرنج من البلاد والمناصفات
الا ما شرح فى هذه الهدنة وعين فيها من البلاد .

وعلى أن الفرنج لا يجددون فى غير عكا وعثليث وصيدا ، مما هو
خارج عن أسوار هذه الجهات الثلاث المذكورات سورا ، ولا قلعة ولا برجا
ولا حصنا قديما ولا مستجدا .

وعلى أنه متى هرب أحد كائنا من كان من بلاد السلطان وولده الى عكا
والبلاد الساحلية المعينة فى هذه الهدنة ، وقصد الدخول فى دين النصرانية
وتنصر بارادته ، يرد جميع ما يروح معه ويبقى عريانا ، وان كان ما يقصد
الدخول فى دين النصرانية ولا يتنصر ، رد الى أبوابها العالية بجميع
ما يروح معه ، بشفاعة معه ، بعد أن يعطى الامان .

وكذلك اذا حضر أحد من عكا والبلاد الساحلية الداخلة فى هذه الهدنة
ويقصد الدخول فى دين الاسلام ، وأسلم بارادته ، يرد جميع ما معه ويبقى
الحكام بعكا ، وهم كفيل الملكة والمقدمون ، بجميع ما يروح معه بشفاعة
بعد أن يعطى الامان .

وعلى أن الممنوعات المعروف منعها قديما تستقر على قاعدة المنع من
الجهتين ، ومتى وجد صحبة أحد من تجار بلاد السلطان وولده من المسلمين
وغيرهم ، على اختلاف أديانهم وأجناسهم ، شىء من الممنوعات بعكا والبلاد
الساحلية الداخلة فى هذه الهدنة ، مثل عدة السلاح وغيره ، تعاد على
صاحبه الذى اشتراه منه ، ويعاد اليه ثمنه ، ولا يؤخذ ماله استهلاكا ،
ولا يؤذى بسبب ذلك ، لا هو ولا ماله .

وكذلك اذا طلع تجار الفرنج من عكا والبلاد الساحلية الداخلة فى
هذه الهدنة ، الى البلاد الاسلامية الداخلة فى هذه الهدنة ، على اختلاف

أجناسهم وأديانهم ، ووجد معهم شىء من الممنوعات مثل عدة سلاح وغيره ، يعاد على صاحبه الذى اشتراه منه ، ويعاد اليه ثمنه ويرد ، ولايؤخذ ماله استهلاكا ، ولا يؤذى • وللسلطان ولولده أن يفصلا فيمن يخرج من بلادهما من رعيتهما ، على اختلاف أديانهم وأجناسهم بشىء من الممنوعات • وكذلك كفيل المملكة بعكا والمقدمون : لهم أن يفصلوا فى رعيتهم الذين يخرجون بالممنوعات من بلادهم الداخلة فى هذه الهدنة •

ومتى أخذت أخيذة من الجانبين ، أو قتل قتيل من الجانبين ، على أى وجه كان والعياذ بالله ، ردت الاخيذة بعينها ان كانت موجودة ، أو قيمتها ان كانت مفقودة • والقتيل يكون العوض عنه بنظيره من جنسه : فارس بفارس ، وبركيل ببركيل ، وتاجر بتاجر ، وراجل براجل ، وفلاح بفلاح ، فان خفى أمر القتيل والاخيذة كانت المهلة فى الكشف أربعين يوما ، فان ظهرت الاخيذه أوتعين أمر المقتول ردت الاخيذه بعينها • ويكون العوض عن القتيل بنظيره ، وان لم تظهر كانت اليمين على والى المكان الدعى عليه وثلاثة نفر يقع اختيار المدعى عليهم من تلك الولاية • وان امتنع الوالى عن اليمين حلف من الجهة المدعية ثلاثة نفر تختارهم الجهة الاخـرى ، وأخذت قيمتها • وان لم ينصف الوالى ولارد المال أنهى المدعى أمره الى الحكام من الجهتين ، وتكون المهلة بعد الانهاء أربعين يوما • ويلزم الولاة من الجهتين بالوفاء بهذا الشرط،ومتى أخفوا قتيلاأو أخيذة ، أو قدروا على أخذ حق ولم يأخذه كل واحد فى ولايته ، يتعين على الذى يوليه من ملوك الجهتين اقامة السياسة فيه : من أخذ الروح والمال ، والسبق والانكار العام على من يتعين عليه الانكار ، اذا فعل ذلك فى ولايته وأرضه • وان هرب أحد بمال واعترف ببعضه ، وأنكر ما ادعى به عليه ، لزمه أن يحلف أنه لم يأخذ سوى مارده ، فان لم يقتنع المدعى بيمين الهارب حلف والى تلك الولاية أنه لم يطلع على أنه وصل معه غير مارده ، وان أنكر أنه لم يصل اليه شىء

أصلا يستحلف الهارب أنه لم يصل معه للمدعى شىء ، ويحلف والى تلك الجهات على أنه لم يصل شىء •

وعلى أنه اذا انكسر مركب من مراكب تجار السـلطان وولده ، التى انعقدت عليها الهدنة ، ورعيتهما من المسلمين وغـيرهم ، على اختـلاف أجناسهم وأديانهم ، فى ميناء عكا وسواحلها ، والبلاد الساحلية التى انعقدت عليها الهدنة • كان كل من فيها آمنا على الانفس والاموال والامتعـة والمتاجر • فان وجد أصحاب هذه المراكب التى تتكسر تسلم مراكبهـم وأموالهم اليهم ، وان عدموا بموت أو غرق أو غيبة فيحتفظ بموجودهم ، ويسلم لنواب السلطان وولده • وكذلك المراكب المتوجهة من هذه البـلاد الساحلية المنعقدة عليها الهدنة للفرنج ، يجرى لها مثل ذلك فى بلاد السلطان وولده ، ويحتفظ بموجودها ان لم يكن صاحبها حاضرا ، الى أن يسلم لكفيل المملكة بعكا والمقدمين •

ومتى توفى أحد من التجار المترددين ، الصادرين والواردين ، على اختلاف أجناسهم وأديانهم ، من بلاد السلطان وولده ، وفى عكا وصيدا وعثليث والبلاد الساحلية الداخلة فى هذه الهدنة ، يحتفظ على ماله الى أن يوصل الى نوابها • وكذلك التجار الصادرين والواردين ، المترددين من عكا وصيدا وعثليث ، والبلاد الساحلية الداخلة فى هذه الهدنة ، على اختلاف أجناسهم وأديانهم ، اذا توفى أحد فى البلاد الاسلامية الداخلة فى هـذه الهدنة يحتفظ على ماله الى حين يسلم ، الى كفيل المملكة بعكا والمقدمين •

وعلى أن شوانى السلطان وولده اذا عمرت وخرجت لا تتعرض لاذية من البلاد الساحلية التى انعقدت عليها هذه الهدنة ، ومتى قصدت هذه المذكورة جهة غير هذه الجهات ، وكان صاحب تلك الجهات معاهدا للحكام بمملكة عكا ، فلا تدخل الى البلاد التى انعقدت عليها هذه الهدنة ولا تتزود

منها • وان لم يكن صاحب تلك الجهة التى تقصدها الشوانى المنصورة
معاهدا للحكام بمملكة عكا والبلاد التى انعقدت عليها الهدنة ، فلها أن تدخل
الى بلادها وتتزود منها • واذا تكسر شىء من هذه الشوانى والعياذ بالله،
فى ميناء من موانى البلاد التى انعقدت عليها الهدنة وسواحلها ، فان كانت
قاصدة من له مع مملكة عكا ومقدمى مونها عهد ، ولم يكن لهم معهم عهد ،
فيلزم كفيل المملكة بعكا ومقدمى البيوت حفظها ، ويمكن رجالها من الزوادة
واصلاح ما انكسر منها والعود الى البلاد الاسلامية ، ويبطل حركة ما
ينكسر منها والعياذ بالله ، أو يرميه البحر • هذا اذا كانت قاصدة بلاد من
له مع مملكة عكا ومقدميها عهد ، فان لم يكن لها معهم عهد فلها أن تتزود
وتعمر رجالها من البلاد المنعقدة عليها الهدنة ، وتتوجه الى الجهة المرسوم
لها بقصدها ، ويعتمد هذا الفصل من الجهتين •

وعلى أنه متى تحرك أحد من ملوك الفرنجية وغيرهم من جـوا
البحر ، بقصد الحضور لحضرة السلطان وولده فى بلادهما المنعقد عليهـا
هذه الهدنة ، فيلزم نائب المملكة والمقدمين بعكا أن يعرفوا السـلطان وولده
بحركتهم قبل وصولهم الى البلاد الاسلامية الداخلة فى الهدنة بمـدة
شهرين • وان وصلوا بعد انقضاء مدة شهرين ، فيكون كفيل المملكة بعكا
والمقدمون بريئين من عهدة اليمين فى هذا الفصل •

ومتى تحرك عدو من جهة البر من التتار وغيرهم ، فأى من سبق الخبر
اليه من الجهتين يعرف الجهة الاخرى بما سبق الخبر اليه من أمرهم •

وعلى أنه ان قصد البلاد الشامية والعياذ بالله عدو من التتار وغيرهم
فى البر ، وانحازت العساكر الاسلامية من قدام العدو ، ووصل العـدو
الى القرب من البلاد الساحلية الداخلة فى هذه الهدنة وقصدوها بمضرة ،
فكفيل المملكة بعكا والمقدمين بها أن يدرأوا عن نفوسهم ورعيتهم وبلادهم

بما تصل قدرتهم اليه • وان حصل والعياذ بالله جفل من البلاد الاسلامية
الى البلاد الساحلية الداخلة فى هذه الهدنة ، فيلزم كفيل المملكة بعـكا
والمقدمين بها حفظهم والدفع عنهم ومنع من يقصدهم بضرر ، ويكونون
آمنين مطمئنين بما معهم •

وعلى أن النائب بمملكة عكا والمقدمين يوصون فى سائر البـلاد
الساحلية التى وقعت الهدنة عليها ، أنهم لا يمكنون حرامية البحر من الزوادة
من عندهم ، ولا من حمل ماء ، وان ظفروا بأحد منهم يمسكوه ، وان كانوا
يبيعون عندهم بضائع فيمسكهم كفيل المملكة بعكا والمقدمون حتى يظهـر
صاحبها وتسلم اليه • وكذلك يعتمد (مولانا) السلطان وولده ، ويعتمـد
فى أمر الحرامية هذا الاعتماد من الجهتين •

وعلى أن الرهائن بعكا والبلاد الساحلية الداخلة فى هذه الهدنة مثل
من عليه مبلغ أو غلة ، فيحلف والى ذلك المكان الذى منه الرهينة ، ويحلف
المباشر والكاتب فى وقت واحد وهذا الشخص رهينة أن عليه كذا وكذا من
دراهم أو غلة أو بقر أو غيره • فاذا حلف الوالى والمباشر والكاتب قدام
نائب السلطان وولده على ذلك يقوم أهل الرهينة عنه بما للفرنج عليـه
ويطلقونه • وأما الرهائن الذين أخذوا منسوبا الى الجفل والاختشاء أنهم
لا يهربون الى بلاد الاسلام ، ويمتنع الولاة والمباشرون من اليمين عليهم •
فأولئك يطلقون •

وعلى أنه لا يجدد على التجار المسافرين ، الصادين والواردين ، من
الجهتين حق لم تجر به عادة ، ويجروا على عوائدهم المستمرة الى آخر
وقت • تؤخذ منهم الحقوق على العادة المستقرة ، ولا يجدد عليهم رسم
ولا حق لم تجر به عادة ، وكل عرف باستخراج الحق فيه استخرج بذلك المكان
من غير زيادة من الجهتين • ويكون التجار والسفار والمترددون آمنين

مطمئنين مخفرين من الجهتين ، فى حالتى سفرهم واقامتهم ، وصدروهم ووردوهم ، بما (فى) صحبتهم من الاصناف والبضائع التى هى غير الممنوعة .

وعلى أن ينادى فى البلاد الاسلامية والبلاد الفرنجية الداخلة فى هذه الهدنة ، أنه من كان من فلاحى بلاد الاسلام يعود الى المسلمين مسلما كان أو نصرانيا ، وكذلك من كان من فلاحى بلاد الفرنج يعود الى بلاد الفرنج مسلما كان أو نصرانيا ، معروفا قراريا من الجهتين ، ومن لم يعد بعد المناداة يطرد عن الجهتين . ولا يمكن فلاحو بلاد المسلمين من المقام فى بلاد الفرنج المنعقدة عليها هذه الهدنة ، ولا فلاحو بلاد الفرنج من المقام فى بلاد المسلمين التى انعقدت عليها هذه الهدنة ، ويكون عود الفلاح من الجهة الى الجهة الاخرى بأمان .

وعلى أن تكون كنيسة الناصرة ، وأربع بيوت من أقرب البيوت اليها، لزيارة الحجاج وغيرهم من دين الصليب ، كبيرهم وصغيرهم ، على اختلاف أجناسهم وأنفارهم ، ومن عكا والبلاد الساحلية الداخلة فى هذه الهدنة.ويصلى بالكنيسة الاقساء والرهبان،وتكون البيوت المذكورة لزوار كنيسة الناصرة خاصة ، ويكونون آمنين مطمئنين فى توجههم وحضورهم الى حدود البلاد الداخلة فى هذه الهدنة . واذا نقبت الحجارة التى بالكنيسة المذكورة ترمى ، ولا يحط منها حجر لاجل بنايته ، ولا يتعرض الى الاقساء ولا الرهبان ، وذلك على وجه الهبة لاجل زوار دين الصليب بغير حق .

ويلزم السلطان وولده حفظ هذه البلاد المشروحة التى انعقدت عليها الهدنة،من نفسهما وعساكرهما وجنودهما ، ومن جميع المتجرمة والمتلصصين والمفسدين ، ممن هو داخل تحت حكمهما وطاعتهما . ويلزم كفيل المملكة بعكا والمقدمين بها حفظ هذه البلاد الاسلامية المشروحة التى انعقدت عليها

الهدنة من نفسهم وعساكرهم وجنودهم ، ومن جميع المتجرمة والمتلصصين والمفسدين ، ممن هو داخل تحت حكمهم وطاعتهم ، بمملكتهم الساحلية الداخلة فى هذه الهدنة .

ويلزم كفيل المملكة بعكا ومقدمى البيوت بها ، الحكام بعكا والبلاد الساحلية الداخلة فى هذه الهدنة ، القيام بما تضمنته هذه الهدنة من الشروط جميعها ، شرطا شرطا وفصلا فصلا،والعمل بأحكامها والوقوف عند شروطها الى انقضاء مدتها ، ويفى كل منهم بما حلف به من الايمان المؤكده من أنه يفى بجميع ما فى هذه الهدنة على ما حلفوا به .

تستمر هذه الهدنة المباركة بين السلطان وولده وأولادهما وأولاد أولادهم ، وبين الحكام بمملكة عكا وصيدا وعثليث ، وهم السنجال أود ، والمقدمون المذكورون فلان وفلان الى آخرها ، ولا تتغير بموت أحد ملوك الجهتين ، ولا بتغير مقدم وتولية غيره ، بل تستمر على حالها الى آخرها وانقضائها ، بشروطها المحررة وقواعدها المقررة كاملة تامة .

ومتى انقضت هذه الهدنة المباركة ، أو وقع والعياذ بالله فسخ ، كانت المهلة فى ذلك أربعون يوما من الجهتين ، وينادى برجوع كل أحد الى وطنه بعد الاشهار ، ليعود الناس الى مواطنهم آمنين مطمئنين ولا يمنعوا من السفر من الجهتين ، ولا تبطل بعزل أحد من الجهتين ، وتستمر أحكامها متتابعة متوالية بالسنين والشهور والايام الى انقضائها .

ويلزم المعزول والمتولى حفظها والعمل بشروطها الى آخر مدتها المعينة، وتستمر هذه الهدنة بشروطها وفصولها وفروعها وأصولها ، ويجرى الحال فيها على أجمل الحالات الى آخرها ، وعلى جميع ذلك وقع الرضا والصلح والاتفاق ، وحلف عليها من الجانبين . والله الموفق .

الملحق الرابع

معاهدة السلطان قلاون مع مملكة أرجون

(٦٨٩هـ / ١٢٨٩م)

ملاحظات على المعاهدة :

من الاسباب التى تقوم عليها أهمية هذه الوثيقة الرسمية أنه أوصلها لنا محيى الدين عبد الظاهر (٦٢٠ — ٦٩٢هـ / ١٢٢٣ — ١٢٩٢م) فى كتابه « تشريف الايام والعصور فى سيرة الملك المنصور » وكان هذا المؤرخ معاصرا للاحداث التى أبرمت فيها المعاهدة كما كان فى مركز يمكنه من الاطلاع على بواطن الامور ، اذ كان كما تشير المصادر ، صاحب ديوان الانشاء لكل من بيبرس وقلاون وابنه الاشرف ، ويقول عنه صاحب «فوات الوفيات » أنه وضع كثيرا من اصطلاحات الانشاء ونظم الديوان وبقعت نظمه واصلاحاته معمولا بها فى مصر والشام الى أن فتح العثمانيون مصر (١٣) .

هذا وكان الطرف الافرنجى العاقد مع السلطان يختلف عن الاطراف الاخرى التى تعاقدت مع المسلمين فى المعاهدات التى أدرجناها فى الملاحق السابقة فالتعاقد لم يكن مع هيئة من الهيئات الموجودة فى الشام ، بل كانت مع قوة من القوى الافرنجية القائمة فى غرب أوربا ونقصد بالذات مملكة أرجون التى أصبحت لها اهتماماتها المتزايدة بالشرق الادنى الاسلامى، ولجأت الى أقامة علاقات دبلوماسية مع سلاطينه ، وذلك على النحو الذى يتضح فيما يلى .

مع امتداد حركة الاسترداد Reconquista التى قام بها المسيحيون فى اسبانيا ضد المسلمين ، ومع انحسار الحكم الاسلامى عن

---

(١٣) محيى الدين عبد الظاهر : تشريف الايام والعصور (المقدمة) ص٩

تلك البلاد ، قامت بها ثلاث ممالك مسيحية رئيسية هى مملكة قشتالة ومملكة البرتغال ومملكة أرجون . وتكونت هذه الاخيرة من ثلاث أقاليم هى أرجون وقطالونيا وبلنسية — وكانت مدينة برشلونة المطلة على البحر المتوسط هى قاعدة تلك المملكة التى كانت تقع فى الشمال الشرقى من شبه الجزيرة الايبيرية .

واذا كان تاريخ الممالك الاسبانية المسيحية حتى أوائل القرن الثالث عشر للميلاد عبارة عن تاريخ جهود المسيحيين ضد المسلمين فى حركة الاسترداد ، فان مملكة أرجون مالبثت بعد ذلك أن اتجهت لمد نشاطها الى حوض البحر المتوسط والتوسع فيه . فان قيام مملكة قشتالة سد أمامها طريق التوسع بداخل شبه الجزيرة الايبيرية ، كما أن موقع أرجون الجغرافى ومالها من سواحل مطلة على البحر المذكور ، أعطاها منطلقا بحريا حيث سعت لتحقيق مصالحها . وقد غزا حكامها جزر البليار ثم اتجهوا الى جزيرة صقلية وعقدوا زواجا سياسيا مع بيتها الحاكم ، حيث تزوج بدرو Pedro (بطرس) ابن الملك جيمس الاول ، من الاميرة كونستانس Constance ، ابنه مانفريد هو هنشتاوفن ملك صقلية، ووريثة عرشها . وعقب اعتلاء بدور العظيم عرش أرجون(١٢٧٦—١٢٨٥) قام بغزو صقلية استنادا الى حقه فى حكمها عن طريق الزواج ، وأصبحت سياسة أرجون الخارجية فى أواخر القرن الثالث عشر مرتبطة بتاريخ صقلية ، بل لقد قامت بها أسرة أرجونية حاكمة (١٢٩٦ — ١٣٤٩م) .

ومع توسع مملكة أرجون شرقا فى البحر المتوسط اتجهت أنظار حكامها الى الشرق الادنى الاسلامى ، وكان لها نصيبها فى المشاركة فى الحروب الصليبية ومنها حملة سنة ١٢٦٩م (١٤) . واذا كانت لارجون

---

(١٤) رنسيمان لا الحروب الصليبية ج ٣ ص ٥٦٧ .

أهتمامات دينية بالاراضى المقدسة حرصت فيها على تأمين زيادة الحجاج المسيحيين لها ، فقد كانت لها كذلك مصالحها التجارية فى تلك المنطقة • والواقع أن رخاء أرجون الاقتصادى كان يعتمد على تجارتها مع الشرق تلك التجارة التى كان تمر بالبلاد التابعة للسلاطين المماليك فى مصر والشام فلا عجب اذن أن تدخل أرجون فى علاقات دبلوماسية معهم لعقد ما تحتاج اليه من معاهدات ومن تلك المعاهدات كانت المعاهدة التى نعرضها فيما يلى وهى التى عقدت فى عهد السلطان قلاون والملك الفونس الثالث Aifonso III (١٢٨٥—١٢٩١م) المسمى فى المصادر العربية ذوفنش أو أودفونش[١٥] •

والجانب الاسلامى فى المعاهدة ويمثله السلطان قلاون وولى عهـده الاشرف خليل والملوك أولاده ، أما الجانب الافرنجى فيمثله الملك الفونسو الثالث أرجون (الريد راغون) وأخـوه الرى دون جام (جيمس الثانى) صاحب صقلية وأخويهما فريدريك الاول (دون فلدريك) ودون بيدورا[١٦] •

وكان عقد المعاهدة على أثر مجىء سفارة خاصة من ملك أرجون الى قلاون أحضرت معها هدية من بينها سبعين من الاسرى المسلمين • وقد جاء فى تشريف الايام والعصور أن رسل الفونسو كتبوا نسخة المعاهدة بأيديهم بالعربى والافرنجى واستصحبوها معهم الى مولاهم بعد أن كتبوا خطهم على النسخة التى بالعربى[١٧] •

والمعاهدة تتكون من مواد تتعلق بأمور التجارة وتنظيمها ، واتفاقيات

---

(١٥) جاء اسم ذوفنش فى تشريف الايام والعصور ص ١٥٦ ، اما فى صبح الاعشى فقد عرف باسم أوفونش ج ٥ ص ٤٨٤ •

(١٦) يبدو ان دون بيدروا المشار اليه انما هو فريدريك الاول — أنظر
Le Monte : World of the Middle Ages. pp. 516 — 518.

(١٧) تشريف الايام والعصور ص ١٥٦ •

سياسية وعسكرية ، ومسائل ترتبط بالعرف الدولى البحرى • وتتميز هذه المعاهدة بترتيب عناصرها الاساسية وحسن عرضها •

نص المعـــاهدة : [١٨]

استقرت المودة والمصافاة والمصادقة بين مولانا السلطان الملك المنصور السيد الاجل العالم العادل،سيف الدنيا والدين،سلطان الاسلام والمسلمين، سلطان الديار المصرية والبلاد الشامية وحلب ، سلطان الملوك ، ملك الشرق بأسره ، سلطان النوبة — بلاد الملك داود — سلطان البيت المقـدس ، سلطان البيت العالى الشريف بمكة ، أعزها الله ، سلطان اليمن والحجاز سلطان جميع العرب ، سلطان الاسلام جميعهم سيد الملوك والسلاطين،أبى الفتح قلاون الصـالحى وولده — ولى عهـده المولى الملك الاشرف السيد الاجل ، العالم العادل ، صلاح الدنيا والدين خليل — والملوك أولاده ،وبين حضرة الملك الجليل ، المكرم ، الخطير ، الباسل ، الضرغام ، المفخـم ، المبجل ، دون ألفوش الريدراغون وأخيه الملك الجليل المكرم الخطير الاسد الضرغام ، الرى دون جام صاحب صقلية وأخويهما دون فلدريك ودون بيدروا ، من تاريخ يوم الثلاثاء المبارك ، ثالث عشر شهر ربيع الاخـر سنة تسع وثمانين وستمائة للهجرة النبوية المحمدية— صلوات الله وسلامه وتحياته على صاحبها— الموافق ذلك لسبع بقين من شهر أبريل سنة ألف ومائتين تسعة وثمانين لمولد السيد المسيح عيسى عليه السلام • وذلك بحضور رسل الملك الريدراغون ، وهم الزعيم الرسول ابن لنجير ستفنس ، وريمون المان قرارى برشنونة والحكيم داود بن حسداى الاسرائيلى — وزير حضرة الملك الريدراغون — وكتابه بكتابه المختوم بختم الملك المذكـور المقتضى معناه أن تصدقهم فى جميع ما يقولونه ويقررونه من قواعد الصلح والمودة والصداقة ، وما يتكفلونه من الشروط التى يشترطها مولانا السلطان

الملك المنصور على الملك الريداغون ، وأنه يلتزم بجميع هذه الشروط الاتى ذكرها ، ويحلف الملك المذكور عليها ، هو واخوته المذكورين ، ووضع الرسل المذكورون خطوطهم بجميع الفصول الاتى ذكرها ، بأمره ومرسومه، وأن الملك الريدراغون واخوته يلتزمون بها •

وهى استقرار المودة والصداقة من التاريخ المقدم ذكره على مر السنين والاعوام ، وتعاقب الليالى والايام ، برا وبحرا ، سهلا ووعرا ، قربا وبعدا على أن تكون بلاد مولانا السلطان الملك المنصور وولده الملك الاشرف ، والملوك أولاده ، وقلاعهم وحصونهم وثغورهم ، وممالكهم وموانيهم ، بلادهم وسواحلها وبرورها وجميع أقاليمها ومدنها وكل ما هو داخل فى مملكتهم ومحسوب منها ومنسوب اليها من سائر الاقاليم الرومية والعراقية ، والمشرقية ، والشامية ، والحلبية ، والفراتية ، واليمنية ، والحجازية ، والديار المصرية ، والغرب ، وحد هذه الاقاليم والبلاد وموانيها وسواحلها ، من البر الشرقى والشامى من القسطنطينية والبلاد الرومية ، والبلاد الساحلية ، واللاذقية ، وطرابلس الشام ، وجميع الموانى والبرور الى ثغر دمياط ، وبحيرة تنيس ، وحدها من البر الغربى من تونس واقليم افريقية وبلادها وموانيها ، وطرابلس الغرب وثغورها وبلادها وموانيها الى ثغر الاسكندرية ورشيد ، وبحيرة بنى لبيس وسواحلها وبلادها وموانيها وما تحويه هذه البلاد المذكورة والممالك التى تذكر ، والمدائن ، والثغور ، والسواحل ، والموانى ، والطرقات فى البر والبحر ، والصدور ، والورود ، والمقام ، والسفر من عساكر وجنود ، وتركمان ، وأكراد ، وعربان ورعايا ، وتجار وشوانى ، ومراكب ، وسفن ، وأموال ، وموانى على اختلاف الاديان ، والانفار ، والاجناس وما تحويه الايدى من الاصناف ، والاموال، والاسلحة والعدد ، والامتعة ، والبضائع ، والمتاجر ، قليلا كان أو كثيرا ،

قربيا كان أو بعيدا ، برا كان أو بحرا ، آمنه على النفوس والارواح والاموال ، والحريم والاولاد من الملك الريداغون ومن اخوته المذكورين أهلاه ومن أولادهم وفرسانهم ، وخيالتهم ، ومعاهديهم ، وعمائرهم ، ورجالهم ومن كل من يتعلق بهم • وكذلك كل ما سيفتحه الله على يد مولانا السلطان الملك المنصور ، وعلى يد أولاده وعساكره وجيوشه من القلاع ، والحصون والبلاد والاقاليم وأنه يجرى على هذا الحكم •

وعلى أن تكون بلاد الملك الريدراغوان وبلاد اخوته وأولاده وممالكه المذكوره وهى بلاد أرغن وثغورها وأعمالها ، ما يرقه وأعمالها وبلادها ، بلنسية وأعمالها وبلادها ، اقليم برشنونة وأعمالها وبلادها ، صقلية وجزيرتها وبلادها وأعمالها ، برنوليه وأعمالها وبلادها ، جزيرة مالطة وقوصرة وبلادها ، ميرقة ومانسة وبلادها ، واربسويات وأعمالها ، وما سيفتحه الملك الريدراغون من بلاد اعدائه الفرنج المجاورين له بتلك الاقاليم، آمنة من مولانا السلطان الملك المنصور وعساكره وجنوده وشوانيه وعمائره وهى ومن فيها من فرسان وخيالة ورعايا وأهل بلاد آمنين مطمئنين على الانفس والاموال والحريم والاولاد فى البر والبحر والصدور والورود ، وعلى أن الملك الريدراغون يكون هو أوخوته أصدقاء من يصادق مولانا السلطان الملك المنصور والملوك وأولاده ، وأعداء من يعاديه من سائر الملوك الفرنجية وغير الملوك الفرنجية •

وان قصد الباب برومة ، أو ملك من ملوك الفرنج متوجا كان أو غير متوج ، كبيرا كان أو صغيرا ، أو من الجنوية أو من البنادقة أو سائر الاجناس على اختلاف الفرنج والروم • والبيوت بيوت الاخوة الديوية والاسبتارية ، وجميع أجناس النصارى مضرة مولانا السلطان بمحاربة أو آذية ، يمنعهم الملك الريداغون ويردهم ويعمر شوانيه ومراكبه هو واخوته ، ويقصدون بلادهم ويشغلونهم بنفوسهم عن قصد مضرة بلاد

مولانا السلطان وموانيه وسواحله وثغوره المذكورة وغير المـذكورة ، ويقاتلونهم فى البر والبحر وبشوانيهم وعمائرهم وفرسانهم وخيالتهم ورجـــالهم •

وعلى أنه متى خرج أحد من معاهديهم على مولانا السلطان مـن الفرنج بعكا وصور وبلاد الساحل وغيرها عن شروط الهدنة المستقرة بينه وبينهم ووقع ما يوجب فسخ الهدنة لايعينهم الملك الريدراغون ولا اخوته ولا خيالته ولا فرسانه ولا اهل بلاده بخيل ولا خيالة ، ولا سلاح ولا مال ولا نجده ولا ميرة ولا مراكب ولا شوانى ولا غير ذلك •

وعلى أنه متى طلب الباب برومية ، وملوك الفرنج والروم والتتار وغيرهم من الملك الريدراغون او من اخوته ، او من بلاده انجـادا ، أو معاونة ، أو خيالة ، أو رجالة ، أو مال ، أو مراكب ، أو شوانى ، أو سلاح ، لايوافقهم على شيء من ذلك ، لا فى سر ، ولا فى جهر ، ولا يعين أحدا منهم ولا يوافقه على ذلك • متى اطلع على أن أحدا منهم يقصد بلاد مولانا السلطان بمحاربة أو بمضرة يسير يعرف مولانا السلطان بخبرهم وبالجهة التى اتفقوا على قصدها فى أقرب وقت قبل حركتهم من بلادهم ، ولا يخفيه شيئا من ذلك •

وعلى أنه متى انكسر مركب من المراكب الاسلامية فى بلاد الملك الريدراغون وبلاد اخوته ومعاهديه يكون كل من فيها من التجار والبحارة، والمال والمماليك والجوار آمنين على الانفس والاموال والبضائع • ويلتزم الملك الريدراغون أن يحفظهم ويحفظ مراكبهم وأموالهم ، ويساعدهم على عمارة مركبهم ، ويجهزهـم هم وأموالهـم وبضايعهم الى بلاد مولانا السـلطان •

وكذلك اذا انكسرت مركب من بلاد الريدراغون وبلاد اخوته فى بلاد

مولانا السلطان يكون لهم هذا الحكم المذكور أعلاه ، وعلى أنه متى مات أحد من تجار المسلمين ومن نصارى بلاد مولانا السلطان أو ذمة أهل بلاده فى بلاد الريدراغون وبلاد اخوته وأولاده ومعاهديه لايعارضوهم فى أموالهم ولا فى بضائعهم ، ويحمل مالهم وموجودهم الى بلاد مولانا السلطـان ليفعل فيه ما يختار • وكذلك من يموت فى بلاد مولانا السلطان من أهل مملكة الريد راغون وبلاد اخوته ومعاهديه فلهم هذا الحكم المذكور أعلاه •

وعلى انه متى عبر على بلاد الريدراغون رسل من بلاد مولانا السلطان قاصدين جهة من الجهات البعيدة أو القريبة صادرين أو واردين أورماهم الريح فى بلاده يكون الرسل وغلمانهم وأتباعهم ، ومن فضل معهم من رسل الملوك وغيرهم آمنين محفوظين فى الانفس والاموال ويجهزهم الى بلاد مولانا السلطان •

وعلى أن الملك الريدراغون لا يمكن الحرامية ولا الكرسالية من التزود من بلاده ولا من حمل ماء ، ومن ظفر به من الحرامية يمسكه ويفعل فيه الواجب ، ويسير ما يجده معهم من الاسرى المسـلمين ، ومن البضـائع والحريم والاولاد الى بلاد مولانا السلطان • وكذلك ان حضر أحد مـن الحرامية الى بلاد مولانا السلطان يجرى الحكم فيه لبلاد الريدراغون متى جرى من واحد من بلاده قضية توجب فسخ هذه المهادنة ، كان على الملك الريدراغون طلب من فعل ذلك ، وفعل الواجب فيه •

وعلى أن الملك الريدراغون يفسح لاهل بلاده ، وغيرهم من الفرنـج فى أنهم يجلبون الى الثغور الاسلامية الحديد والبياض والخشب وغير ذلك•

وعلى انه متى اسر احد من المسلمين فى البر او فى البحر من مبدا تاريخ هذه المهادنة من سائر البلاد شرقها وغربها أقصاها وأدناها ووصلوا

به الى بلاد الملك الريدراغون ، وبلاد اخوته ومعاهديه ليبيعوه فيلزم الملك
الريدراغون فك أسرهم وحملهم الى بلاد مولانا السلطان •

وعلى انه متى كانت بين تجار المسلمين وتجار بلاد الريدراغون معاملة
فى بضائعهم وهم فى بلاد مولانا السلطان كان أمرهم محمولا على موجب الشرع
الشريف • وعلى أنه متى ركب أحد من المسلمين فى مراكب الملك الريدراغون
وحمل بضاعته معهم وعدمت البضاعة ، كان على الملك الريدراغون ردها
ان كانت موجودة أو قيمتها ان كانت مفقودة •

وعلى انه متى هرب أحد من بلاد مولانا السلطان الداخلة فى هذه
المهادنة الى بلاد الملك الريدراغون وبلاد اخوته ، أو توجه ببضاعة لغيره
وأقام بتلك البلاد ، كان الريدراغون رد الهارب والمال معه الى بلاد مولانا
السلطان مادام المذكور مسلما ، وان تنصر فيرد المال الذى معه خاصة
ولملكة الريدراغون ولملكة أخيه فيمن هرب من بلادهم الى بلاد مولانا
السلطان ، هذا الحكم المذكور أعلاه •

وعلى أنه اذا وصل من بلاد الملك الريدراغون وبلاد اخوته ومعاهديهم
من الفرنج ، من يقصد زيارة القدس الشريف ، وعلى يده كتاب الملك
الريدراغون وختمه الى نائب مولانا السلطان بالقدس الشريف ، يفسح
له فى الزيارة مسموحا بالحق ليقضى زيارته ، ويعود الى بلاده آمنا مطمئنا
فى نفسه وماله ، رجلا كان أو أمرأة ، بحيث أن الملك الريدراغون ، لا يكتب
لاحد من أعدائه ، ولا من أعداء مولانا السلطان فى أمر الزيارة بشىء •

وأن الملك الريدراغون يحرس جميع بلاد مولانا السلطان من كل
مضرة • ويجتهد فى أن أحدا من أعواء مولانا السلطان لا يصل الى بلاد مولانا
السلطان ، ولا ينجدهم على مضرة بلاد مولانا السلطان الملك المنصور

ولا بلاد ولده السلطان الملك الاشرف ، ولا رعاياهم ، وأنه يساعد مولانا
السلطان وولده الملك الاشرف فى البر والبحر بكل ما يشتهونه ويختارونه •

وعلى أن الحقوق الواجبة على من يصدر ويرد ويتردد من بلاد الملك
الريدراغون الى ثغرى الاسكندرية ودمياط والى الثغور الاسلامية ،
والممالك السلطانية ، وسائر أصناف البضائع والمتاجر على اختلافها ، تستمر
على حكم الضرائب المستقرة فى الدواوين المعمورة الى آخر وقت ، ولا
يحدث عليهم فيها حادث وكذلك يجرى الحكم على من يتردد من البلاد
السلطانية الى بلاد الريدراغون •

تستمر هذه المودة والمصادقة على حكم هذه الشروط المشروحه أعلاه
بين الجهتين على الدوام والاستمرار ، وتجرى أحكامها وقواعدها على أجمل
الاستقرار ، فان المملكتين بها قد صارتا شيئا واحدا ومملكة واحدة ،
لا تنتقض بموت أحد من الجانبين ولا بعزل وال وتولية غيره ، بل تؤيد
أحكامها ، وتدوم أيامها ، وشهورها وأعوامها • وعلى ذلك انتظمت
واستقرت فى التاريخ المذكور أعلاه ، وهو يوم الثلاثاء ثالث عشر شهر
ربيع الاخر سنة تسع وثمانين وستمائة للهجرة المحمدية صلوات الله وسلامه
على صاحبها ، الموافق لسبع بقين من شهر أبريل سنة ألف ومائتين تسعة
وثمانين لمولد السيد المسيح عيسى عليه السلام •

* * *

الملحـــق الخـــامس

معاهـــدة السلطان قلاون مع دولة جنـــوة

(٢ جمادى الاول ٦٨٩هـ / ١٣ مايو ١٢٩٠م)

ملاحظـــات على المعـــاهدة :

كانت جنوة احدى الوحدات السياسية الرئيسية ، التى انقسمت اليها شبه الجزيرة الايطالية فى العصور الوسطى • وبحكم موقعها الاستراتيجى على ساحل ليجوريا المطل على البحر التيرانى ، أصبحت جنوة من أعظم القوى البحرية التجارية فى ايطاليا • وساعدها على ذلك أنها كانت حلقة وصل بين وسط وشمال أوروبا من ناحية والبحر المتوسط والشرق من ناحية أخرى • وكونت جنوة امبراطورية بحرية كبيرة قامت مراكزها ومستعمراتها فى الشرق الادنى وفى البحر الاسود ، مما أثار غيرة منـافستيها البندقية وبيزا اللتين كانت لهما اهتمامات مماثلة بالشرق وتجارته • وقد عـرف المسلمون دولة جنوة باسم «بلاد جنوة» كما عرفوها باسم « مملـــكة الجنويين » وهى فى نظر القلقشندى واحدة من أكبر ممالك الفرنج[19] •

وقد ورد فى المعاهدة عدد من المصطلحات والنظم الخاصة بجنـوة تحتاج الى ايضاح وتعريف بها بالنسبة للقارىء العربى • فالنظام السياسى بدولة جنوة قام على اساس نظام القومون وهو تحريف لكلمة Commune وقد تردد ذكره فى المصادر العربية[20] •

وأساس هذا النظام حلف او اتحاد من التجار والصناع وغيرهـم

(١٩) صبح الاعشى ج ٣ ص ٢٣٥ ، ج٥ ص ٤٠٥،ص٤٠٦،ص٤١١

(٢٠) عرف صاحب تشريف الايام والعصور هذا النظام باسم الكمون، ص ١٦٦ •

اقاموه فى عدد من المدن لضمان حقوقهم المدنية فى وجه السلطة التى كان يمارسها أمراء الاقطاع فى أوربا فى العصور الوسطى[21] • ومع تطور هذا النظام أصبح يدل على المـدن المستقلة التى تتمتع بحقوقها السياسيـة والاقتصادية ،[22] ، وهكذا تحول القومون الى وحـدة سياسية مستقلة لها نظمها وجهازها الادارى يرأسه كبار المسئولين الذين يحكمون بالنيابة عن مواطنى القومون •

وقد احتدم التنافس والصراع بين العائلات النبيلة التى ظهرت فى القومون الامر الذى كانت له خطورته بالنسبة للاستقرار الداخـلى فى المدينـة وهدد ازدهارها ومن أجل ايجاد حل لهذه المشكلة اتفق النبـلاء على ايجاد محكم من خارجها مهمته الاساسية حفظ السلام بداخل القومون وعرف هذا المحكم باسم Pcdesta الذى ورد اسمه فى المصادر العربيـة محرفا الى البودسطا أو البوذستا • وقد اشترطوا فيه أن يكون غريبا عن المدينة ومن أصل نبيل ، وكان تعيينه لمدة قصيرة •

وكانت حكومة جنوة مثل البندقية يسيطر عليها التجار الاثرياء الذين أصبحوا يحكمون عن طريق قنصلين اثنين • والملاحظ أن مع ازدياد قوة الطبقة البورجوازية المتوسطة مع مرور الوقت ، ظهرت وظيفة كقبطان الشعب Capitano de populo الذى أصبح يمثل العناصر البورجوازية التى لا تنتمى لطبقة النبلاء ، وكان الكبطان مسئولا أمام النقابات بداخل المدينة وكان لكل من البودستا والكبطان مجلسه الاستشارى الخاص وكان مجلس

(٢١) أنظر
Cambridge Medieval History, V, 624

(٢٢) المصدر السابق جص ٢٢٣ •

البودستا يمثل النبلاء اما مجلس الكبطان فيمثل النقابات [٢٣] .

وعلى العموم فقد استمرت بعض العائلات الكبيرة تتحكم فى شئون المدينة وهى عائلات دوريا Doria ، اسبينولا Spinola وامبرياتسى Embriaci . وقد أثر تشعب النفوذ السياسى وتعددت السلطات فى جنوة فى الاتصالات التى قامت بينها وبين السلطان ، مما اقتضى أن ينص فى المعاهدة على أن السفير الذى أرسلته الى السلطان وهو ألبرت اسبينولا ، كان يمثل كلا من البودستا والكبطانية وأصحاب الرأى والمشورة فى قومون جنوة [٢٤] .

والملاحظ أن فضلا عن الشهود على المعاهدة من الجنويين من القناصل والتجار ، قد شهد عليها كذلك عدد من رجال الكنيسة والرهبان من مصر مثل بطرس أسقف مصر الملكى ومخائيل الراهب من دير طور سيناء كما يذكر صاحب « تشريف الايام والعصور » عن ظروف تحرير المعاهدة فيقول أنه « كتب بين السطور بالافرنجى نسخة ذلك سطرا سطرا وكلمة كلمة ، وكتب الرسول (الجنوى) خطه أعلى هذه الهدنة بالفرنجى بيده » [٢٥] . والمعاهدة تحتوى على عدة مواد لها أهميتها فى تنظيم العلاقات التجارية والبحرية بشكل خاص .

نص المعاهدة [٢٦] :

أقول — وأنا ألبرت اسبينولا رسول البوذسطا بالرام ذكر كان

---

(٢٤) ذكرهم صاحب (تشريف الايام الكنطابية والصواب هو الكبطانية ومفردها الكبطان ص ١٦٦ .

(٢٥) المصدر السابق ص ١٦٦ — ص ١٦٨ .

(٢٦) المصدر السابق ص ١٦٦ — ص ١٦٩ — وهناك نص لاتينى للمعاهدة فى المكتبة العامة بجامعة جنوة وقد قام بترجمة جزء منه مصطفى الكنانى فى كتابة : جنوة والشرق الادنى الاسلامى ج ٢ ص ٤١٩ . والملاحظ أن نصوص الترجمة تتمشى مع النص العربى .

والكبطانية [٢٧] أوبرت اسبينولا وكرات دوريا ، والمشايخ وأصحاب الرأى والمشورة كمون الجنوية — أحلف بالله ، والله ، والله العظيم ، وحق المسيح وحق الصليب المقدس ، وحق الانجيل المقدس ، اله واحد ، وحق الست مارية وحق الاربعة أناجيل : لوقا ، ومتى . ومرقص ، ويوحنا ، وصلواتهم وتقديساتهم ، وحق الصوت نزل من السماء على نهر الاردن فزجره ، وحق الاباء المعموديه ، وحق الانجيل المقدس ، وحق دينى ومعبودى .

اننى ألتزم لمولانا السلطان الملك المنصور السيد الاجل العالم العادل ، سيف الدنيا والدين ، سلطان مصر والشام وحلب ، وسلطان اليمن والحجاز ، سلطان بيت مكة ، البيت العالى — أعزه الله تعالى — سلطان القدس والبلاد المقدسة ، وبلاد الساحل ، وفتوحات المسلمين وفتوحاته، طرابلس الساحل الى طرابلس الغرب ، سلطان الشرق والغرب ، وسلطان الملوك ملك سائر العرب والعجم ، سطان جميع الاسلام قلاون الصالحى ، وولده السلطان الملك الاشرف صلاح الدنيا والدين خليل الله يحفظهم وينصرهم — بمرسوم البوذسطا والكنطابية والمشايخ كمون الجنوية — المذكورين — وجميع الجنوية .

انهم يحفظون ويحترمون ويكرمون جميع المسلمين لمولانا السلطان الملك المنصور ، ولولده السلطان الملك الاشرف (الذين) يجيئون الى بلاد مولانا السلطان ، والذين يخرجون من بلاد مولانا السلطان ، من سائر البلاد ولاقاليم ، من بلاد الفرنج والروم والمسلمين ، من الرسل والتجار وغيرهم سالمين ومكسورين فى السفن والمراكب والطرائد والشوانى ،

---

(٢٧) وردت فى الأصل الكنطابية والصواب الكبطانية وهى تحريف لكلمة Capitano

وغيرها من المراكب والبضائع والنفوس ، وأموالهم ومماليكهم وجوارهم
فى مراكبهم فى البر والبحر ، وفى جميع أماكن كمون الجنوية ، وما يفتحونه
من البلاد ويحكمون عليه من تاريخ هذه الهدنة ، وما دامت الليالى والايام
والشهور والسنون والاعوام دائما •

وان جميع الجنوية يكرمون ويحترمون ويحفظون جميع المسلمين •
الذين يحضرون الى بلاد مولانا السلطان ، والذين يخرجون ويسافرون منها
فى البر والبحر ، ولا يتعرضون اليهم ، ولا يمكنون من التعرض اليهم
بأذية ، ولا ضرر ، ولا عدوان ، لا فى نفس ولا فى مال ، لافى مجيئهم ولافى
رواحهم • ويكونون آمنين مطمئنين فى نفوسهم وأموالهم وأرواحهم من
جميع الجنوية ، وممن تحت حكم كمون الجنوية — على ما تقدم ذكره —
وأنهم يحفظون جميع التجار المسلمين وغيرهم ، الذين يسافرون فى مراكب
الجنوية وغيرهم ، رائحين وجائين فى جميع الاماكن التى لكمون الجنوية
وغيرهم ، من بلاد الفرنج ، وبلاد الروم ، وبلاد المسلمين • ويكون من
يسافر من المسلمين معهم ومع غيرهم محفوظين آمنيين مطمئنين لا يتقوى
عليهم أحد ولا يؤذيهم فى سفرهم ، ولا مقامهم ، ولا سكناهم •

وان سافر أحد من المسلمين فى مركب غير مراكب الجنوية من أعداء
الجنوية أو غيرهم ، لا يتعرضوا لاحد من المسلمين ، وان أخذوا عدوهم ،
يكون المسلمين جميعهم محفوظين آمنين فى نفوسهم ومماليكهم وجوارهم ،
فى رواحهم ومجيئهم ، ولا يعوقهم الجنوية بسبب أحد ، ولا يأخذوا المسلم
عن غيره ، ولا يطلبوه بدين ولا بدم ، ان لم يكن ضامنا ولا كفيلا •

استقرت هذه الفصول : وهذا الصلح وهذه الشروط بين مولانا
السلطان الملك المنصور ، وولده الملك الاشرف ، وبين البوذسطا والكبطانية

والمشايخ والمشيرين من أصحاب الرأى والمشورة كمون الجنوية المذكورين•
وحلف على ذلك أسبينولا الرسول المذكور ، بحضور بونقاص صورلا ،
ودانيال تتكرد ، وافربجسكيرروب ، ورميربوكيكرورافوا القنصل ، وتنكوك
فليروى • وكتب بتاريخ ثالث عشر مايو سنة ألف ومائتين وتسعين سنة
لمولد عيسى عليه السلام •

المصـــادر العربيـــــة

ابن الاثـــــير : الباهر فى الدولة الاتابكية

________ : الكامل فى التاريخ • ط•بيروت ، ١٩٦٦ •

ابن الصيرفى : قانون ديوان الرسائل — ت على بهجت — القاهرة ، ١٩٠٥ •

ابن العديم : زبدة الحلب من تاريخ حلب — ت، سامى الدهان ، دمشق ١٩٤٥ — ١٩٥١ •

ابن الفراء : كتاب رسل الملوك ومن يصلح للرسالة والسفارة • ت صلاح الدين المنجد ط• ١ ، القاهرة ، ١٩٤٧ ، ط٢ بيروت ١٩٧٢ •

ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك • ت قسطنطين زريق — بيروت ، ١٩٣٦ — ١٩٤٢ •

ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق — بيروت ، ١٩٠٨ •

ابن جبير : رحلة ابن جبير (تذكرة بالاخبار عن اتفاقات الاسفار) بيروت ١٣٨٤هـ — ١٩٦٤ م •

ابن خلدون : المقدمة • ط• بيروت ، دار العودة •

ابن شداد : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (سيرة صلاح الدين) ت جمال الدين الشيال ، ط ١ القاهرة ١٩٦٤م •

ابن شيث : معالم الكتابة ومغانم الاصابة — بيروت ، ١٩١٣م •

ابن عبد الظاهر : (محيى الدين) — تشريف الايام والعصور فى سيرة الملك المنصـــور • القاهرة ١٩٦١ •

ابن منقذ (أسامة) : كتاب الاعتبار •ت فيلب حتى ، برنستون،١٩٣٠•

ابن هشام : سيرة النبى — ت • محمد محيى الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٣٨٣هـ — ١٩٦٣ م •

ابن واصل : مفرج الكروب فى اخبار بنى أيوب ج ٣ت جمال الدين الشيال حتى نهاية ٦١٥هـ ، القاهرة ١٩٥٣م — ١٩٥٧ ، الجزء الرابع تحقيق حسنين ربيع القاهرة ١٩٧٢ م •

ابو شامة : الروضتين فى اخبار الدولتين — دار الجيل — بيروت •

أبو الفداء : المختصر فى تاريخ البشر • ٤ أجزاء ، القاهرة ١٣٢٥هـ•

أبو يوسف : كتاب الخراج • ط ٣ — القاهرة ١٩٨٢ هـ

الجرجانى : التعريفات • بيروت •

السرخسى : شرح كتاب السير الكبير للشيبانى — ت صلاح الدين المنجد وعبد العزيز احمد — ٥ اجزاء القاهرة ١٩٧١ — ١٩٧٢م •

الشافعى : (الامام ابو ابو عبد الله محمد بن ادريس) : كتاب الام ط١ — القاهرة ١٣٢٢هـ •

الصولى : ادب الكتاب — ت محمد بهجت — القاهرة ١٣٤١هـ •

الطبرى : كتاب الجهاد واحكام المحاربين ت شاخت ١٩٣٣م •

العماد الكاتب الاصفهانى : الفتح القسى فى الفتح القدسى • ت محمد محمود صبح القاهرة ١٣٤٨ هـ •

العينى : عقد الجمان — مجموعة مؤرخى الحروب الصليبيـــة — المؤرخون الشرقيون ، ج٢ ، قسم١ •

القلقشندى : صبح الاعشى فى صناعة الانشاء ، ١٤ جزءا • القاهرة ١٩١٣ — ١٩١٧م •

الماوردى : الاحكام السلطانية والولايات الدينية ط٢ — القـــاهرة ١٣١٦هـ — ١٩٦٦م •

المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك • ت • محمد مصطفى زيادة — القاهرة ١٩٥٨م •

ـــــــ : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار • جزءان • بولاق ١٣٧٠هـ •

مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة • اعداد محمد حميد الله الحيدر أبادى ط ٢ •

مجموعة الوثائق الفاطمية : اعداد جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٥٨م •

المراجع العربية والمعربة

ابراهيم احمد العدوى : السفارات الاسلامية — القاهرة ١٩٥٧م •

احمد عزت عبد الكريم واخرون : ابو العباس القلقشندى وكتابه صبح الاعشى — الهيئة المصرية العامة للكتاب • القاهرة ١٣٩٣هـ ، ١٩٧٣م •

احمد مختار العبادى والسيد عبد العزيز سالم : تاريخ البحرية الاسلامية فى مصر والشام • بيروت ١٩٧٢ •

ارشيبالد لريس : القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط (٥٠٠ — ١١٠٠م) ت أحمد محمد عيسى — القاهرة •

انور عبد العليم : الملاحة وعلوم البحار عند العرب • سلسلة عالم المعرفة ، الكويت •

بنامين التطيلى : رحلة بنيامين — ت عزرا حداد — بغداد ١٩٤٥م •

توفيق اليوزبكى : تجارة مصر البحرية فى العهد المماليكى • الموصل ١٩٧٤ م •

جوزيف نسيم يوسف : لويس التاسع فى الشرق الاوسط •

حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسى والدينى والاجتماعى ٤ اجزاء • القاهرة ١٩٧٥ — ١٩٨٢ •

حسن الباشا : الالقاب الاسلامية فى التاريخ والوثائق — القاهرة ١٩٣٧م •

حسن حبشى : الحرب الصليبية الاولى — القاهرة ، ١٩٤٧ •

حياة ناصر الحجى : العلاقات بين سلطنة المماليك والممالك الاسبانية ، الكويت ١٩٨٠م •

رنسيمان (ستيفن) : تاريخ الحروب الصليبية — ٣اجزاء — ت السيد

الباز العرينى بيروت ، ١٩٦٨ — ١٩٦٩م .

سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية — جزأن — القاهرة ، ١٩٦٣ م .

__________ : العصر المماليكى فى مصر والشام .ط١ القاهرة ١٩٦٥م .

سهيل فريحى (ت) : العلاقات القنصلية والدبلوماسية — حصاناتها وامتيازاتهــا .

شاكر مصطفى : التاريخ العربى والمؤرخون ج١ بيروت ١٩٧٨ .

صلاح الدين المنجد : النظم الدبلوماسية فى الاسلام . بيروت ،١٩٨٣

عبد العزيز محمد سرحان : العلاقات الدبلوماسية والقنصلية — مطبعة جامعة عين شمس ١٩٧٤ .

عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسى للدولة العربية . ط٤ ، القاهرة ١٩٧١م .

__________ : نظم سلاطين المماليك ورسومهم — القاهرة .

__________ : نظم الفاطميين ورسومهم . القاهرة .

عز الدين فودة : ما الدبلوماسية ؟ القاهرة ، ١٩٧١م .

على صادق ابو هيف : القانون الدبلوماسى والقنصلى ، ط١ ، الاسكندرية ١٩٦٢ م .

على يونس : أصول القانون البحرى . القاهرة ، ١٩٦٧ .

عمر الخطيب : « الدبلوماسية والمفاوضة فى الصراعات الدولية » المجلة العربية للعلوم الانسانية ، العدد ١٧ المجلد . الكويت ١٩٨٥م .

فاضل زكى محمد : الدبلوماسية فى النظرية والتطبيق . ط٢ ، بغداد ١٩٦٨م .

مجيد خدورى : الحرب والسلم فى شرعة الاسلام . بيروت ،١٩٧٣م.

محمد جمال الدين سرور : دولة الظاهر بيبرس . ط٢ . القاهرة ١٩٦٠م .

محمد حافظ غانم : محاضرات عن النظام القانونى للبحار القاهرة ١٩٦٠م .

محمد طلعت الغنيمى : القانون الدولى البحرى . الاسكندرية .

محمد فريد ابو حديد : عصر صلاح الدين .

محمد قنديل البقلى (تصنيف) : فهارس كتاب صبح الاعشى ، القاهرة ١٩٧٠م .

محمد ماهر حمادة (اعداد) : وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولى سلسلة وثائق الاسلام — ١٩٧٩ .

مصطفى الحناوى : قانون البحار الدولى فى زمن السلم . القاهرة، ١٩٦٢م .

مصطفى الكتانى : جنـوة والشرق الادنى الاسـلامى ، جـزءأن ، الاسكندرية ١٩٨١ م .

نعيم زكى : طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب . القاهرة ، ١٩٨٣م .

نيكلسـون : الدبلوماسية .

وهبة الزحيلى : العلاقات الدولية فى الاسلام . بيروت ١٩٨١م .

المصادر والمراجع الاجنبية

Alexandroff,, A. S. : The Logic of Diplomacy. London, 1981.

Beily, T. A. : The Art of Diplomacy. N. Y. 1968.

Cahen, C. : La Syrie du Nord a L'Epoque des Croisades, Paris, 1946

Cambridge History of Islam. 2 Vols.

Cambridge Medieval History. Cambridge University Press. 1966.

Colombos, C. g: Le Droit International de la Mer. Paris 1952.

Diehl, C. : Une Republique patricienne, Venice. Paris, 1915.

Dussaud, R. : Topographie Hisorique de la Syrie Antique et Medevale Paris, 1927 .

Encyclopedia Britannica.

Encyclopedia of Islam. Articles : Diplomatic, Diwan, Muahada.

Fulcher of chartres: A History of the Expedition to Jerusalem 1095 to 1127 . Trans. F. R. Ryan. Knoxville, 1969 .

Hamidullah, M. : Muslim Couduct of State. Lahore 1953.

Heyd, W.: Histoire du Commerce du Levant aux Moyen Ages. Trans F. Reynaud. French ed. 2Vols. Leipzig, 1885 â 86.

Historia Diplomatica Friderici Secundi (Ed. J. L. A. Huillard âBreholles) 6 Vols, Paris 1821 â 61 .

Iqbal, A. : Diplomacy in Islam. Lahore, 1965.

Kantorowicz, E. : Frederic the Second London, 1931.

King, E. J. The Kinghts Hospitallers in the Holly Land. London,1913.

La Monte, J. L: The world of the Middle Ages. N. Y. 1949.

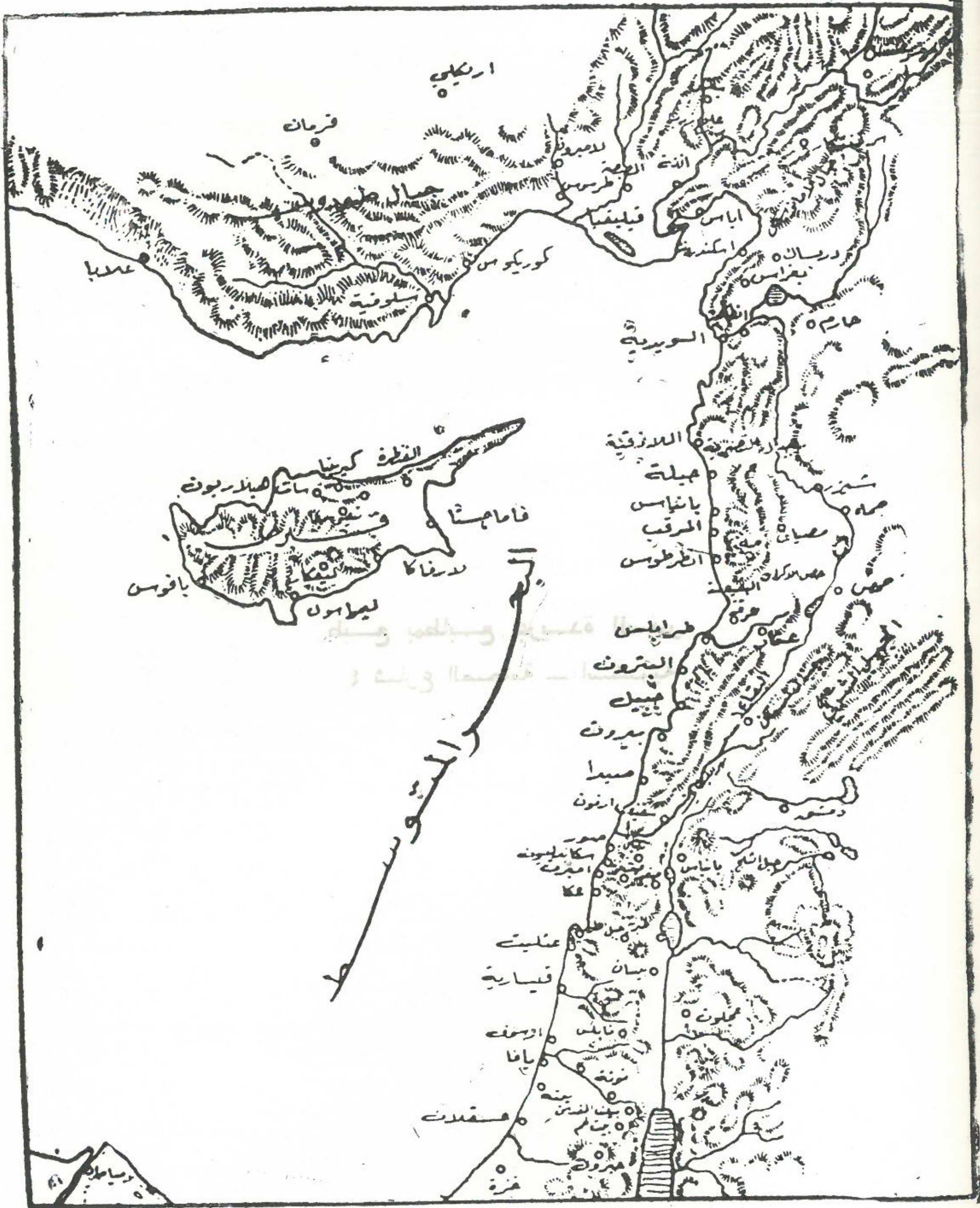
———— Feudal Monarchy in the Latin Kingdom of Jerusalem 1100 â 1291 Cambridge, Ma. U. S. A., 1932.

Lewis, B.: A Handbook of Diplomatic and political Arabic. London, 1947

———— The Assassins. L. A., N. Y. 1980. —

.... The origins of Ismailism, Cambridge, 1946.

Nicolson, H. : Diplomacy. Oxford University press. New York, 1969. —



الشام فى عصر الحروب الصليبية

(نقلا عن رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية)

Numelin : Les Origines de la Diplomatique Paris, 1942.

Recueil des Historiens des Croisades. 16 vols Academie des incriâptions. paris, 1841 â 1906.

Historiens Occidentaux. 5 Vols.

Historiens Orientaux. 5 Vols.

Les Assises de Jerusalem, 2 Vols.

Rey. E. G. : Les Coronies Franques de Syrie aux XII et XIII Siecles. Paris, 1883.

Runciman, S. : A History of the Crusades. 2 Vols. Cambridge University press, 1961 â 57 .

Setton, K. A. : History of the Crusades. Ed Seton. The University of Wisconcin press. 1958 — 1977.

Stevenson, W. B.: The Crusaders in the East. Beirut, 1968. —

William of Tyre : History of Deeds Done Beyond the Sea. 2 vols Records of Civilization (Trans Babcock and Kaey)New York, 1943.

طبع بمطابع جريدة السفير
٤ شارع الصحافة ــ أسكندرية

MUSLIM DIPLOMACY

And PeaceFul Relations With The Crusaders

Dr. OMAR KAMAL TEWFIK
Professor Of History, Kuwait University
Former Professor University Of Alexandria.

1986